THE VERTICAL GRAVEYARD

حميد رضا شاه

القبر العَمودي

ترجمتها عن الفارسية | سمر عزت

KOTOPIA
PUBLISHING
HOUSE

ترجمة حصرية

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق -متميزون-

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

القبر العَمودي
رواية مترجمة..

الكاتب: حميد رضا شاه
ترجمتها عن الفارسية: سمر عزت

-١-

لن أمر بجانب الجدران العالية غير مكترث بعد الآن، فالجدار العالي ليس جدارًا فحسب؛ إنه إشارة إلى أن ثمة شيئًا غامضًا مخبوءًا خلفه أو حتى داخله. إنما خلف الجدران أشياء نجهلها، أشياء لا علم لنا بها، أشياء مثيرة ومذهلة حينًا ومخيفة ومروعة حينًا آخر. آخر مرة رأيت فيها جدارًا سامقًا كان سورًا يطل من خلفه قصر كبير قديم بإيوان مرتفع وأعمدة خشبية، وكان يتوسط فناءه حوض أسود اللون يبدو وكأنه فم ميت مفغور. كان قصرًا ذا جدران ضخمة ومتسعة، ووفقًا لقول رضا قُلِي ميرزا، كانت جدرانه قد أَوت في جوفها جثثًا كثيرة، وفي حلكة الليل كانت تتردد منها أصوات غريبة تخترق الأسماع. ومع رؤيتي ذلك القصر فطنت إلى أنه ينبغي للمرء منا ألا يمر بجانب الجدران العالية مرور الكرام؛ حتى وإن كان خلف ذاك الجدار جدار آخر يعقبه هو الآخر جدار. فاجتياز تلك الجدران سوف يقودنا إلى المجهول، إلى أشياء لم نرها من قبل؛ إلى أشياء لا علم لنا بها. كان رضا قُلِي ميرزا قد كتب: إن معتمد الدولة كان يأمر بوضع كل من يريد قتله مقيد اليدين والقدمين وسط تجاويف بيت لا يزال قيد البناء على أن يُشيد أمامه حائل رقيق من الطوب الآجر. وعندئذٍ كان البائس من أولئك المدفونين داخل الأعمدة الجدارية يختنق، وما يلبث أن يُسلم روحه. إنه لأمر مُروِّع أن يعيش شخص في دار قد دفن داخل جدرانها أشخاص لا حصر لها، ويكأنه يعيش في إحدى المقابر العمودية([1])!

كان رضا قلي ميرزا قد دون أحداثًا كثيرة، كان قد كتب مثلًا أن الصبية كانوا يشعرون بالخوف حينما كانت تلك الأصوات تنبعث من جدران البيت ليلًا. كما كتب أن ثمة حوضًا كان يتوسط فناء القصر، حوضًا غريبًا؛ حوضًا كانوا يزعمون أن بعض الأشخاص قد ماتوا فيه مخنوقين في حين لم تظهر جثة أي منهم قط. وكانت مخطوطاته تلك هي ما قادني إلى حي عود لاجان([2])؛ خلف الجدران العالية التي تُسوِّر قصر نُويان خان.

أول مرة رأيت فيها مخطوطات رضا قلي ميرزا كانت في يد أبي. لم يكن قد قرأها بنفسه، بل كان يعتزم أن يلصقها بلوحة له، إلى أن قرأتها أنا. كان أبي شغوفًا بالفن والعمارة في العصر القاجاري([3])، فراح يسعى إلى محاكاة رسوم تلك الحقبة التاريخية في لوحاته الخاصة. وعادة ما كان ينتج عن لوحاته أعمال فنية ذات نقوش وزخارف غاية في الروعة، حتى إنها كانت لتضفي لمسة جمالية على المنازل أو المطاعم التقليدية. كان أبي لا يزال يسعى إلى توظيف هذه المخطوطات الورقية في آخر لوحاته؛ هذه المخطوطات التي بدت أمامي فجأة كضيف مباغت غير مدعو، وما لبثت أن شغلت ذهني واستحوذت على جل تفكيري، حتى انقلب كل شيء رأسًا على عقب. ربما لولا ذكريات أمي، لما أثر رضا قلي ميرزا بي تأثيرًا عميقًا على هذا النحو. وربما لولا تلك الأيام المريرة التي اختبرتها بنفسي، لما تضاعفت مرارة قصة رضا قلي ميرزا في قلبي. كنت قد بدأت أسعى لتوي لأبدل حالي إلى الأفضل، إلى أن جاء رضا قلي ميرزا في صبيحة أحد أيام الجمعة، وقضى على كل شيء.

كنت جالسًا خلف مائدة الطعام أتناول إفطاري. فعندما استيقظ صباحًا لا أجد في نفسي رغبة للطعام، وعادة ما أذهب إلى المدرسة دون تناول وجبة الإفطار. وهنالك وبعد أن يرن جرس الفسحة أبتاع وجبة خفيفة من المقصف المدرسي وأتناولها. والأمر ذاته ينطبق على يومي الخميس والجمعة من كل أسبوع حيث أمكث في المنزل، فلا آكل شيئًا حتى قرب الظهيرة.

وعندئذٍ أعد لنفسي وجبة خفيفة من بيضتين مقليتين وأتناولها. غير أنها تكون كافية لتفقدني شهيتي لتناول طعام الغذاء. لذلك فإن أبي وليلى كانا لا يتناولان وجبة الغذاء إلا في وقت متأخر، ريثما أكون استعدت شهيتي للأكل. ذلك اليوم كانت الساعة الحادية عشرة تقريبًا عندما وضع أبي ذاك الظرف البلاستيكي على مائدة الطعام.

كنت وحدي بالبيت. وكنت قد شغلت جهاز التلفاز، ليحدث شيئًا من الضجيج يحد من أجواء الصمت التي خيمت على المنزل. كان يُعرض على شاشة التلفاز تقرير إخباري عن أوضاع الأطفال الذين تضرروا من جرَّاء الحرب في سوريا، وكانت تلك المشاهد التي يعرضها التقرير مروعة للغاية. ولما لم يكن جهاز التحكم عن بعد في متناول يدي، ولم أكن في مزاج يسمح لي بأن أقوم وأبحث عنه، حاولت أن أشيح بنظري عن شاشة التلفاز، وأركزه على طبق طعامي وقطعة الخبز التي قد وضعتها بجانب الطبق على الصينية إزائي. ولم أكد أبتلع آخر لقمة بيض مقلي، حتى أدار أبي المفتاح في الباب، وفتحه، ثم ولج إلى الداخل. كانت مائدة الطعام تواجه الباب تقريبًا، هكذا رأيت أبي عندما أغلق الباب خلفه، وخلع فردتي حذائه، ووضعهما في حافظة الأحذية، ثم تقدم باتجاهي. فما لبثت أن رحبت به والطعام ملء فمي، حينئذٍ قال أبي: «مرحبًا عزيزي. انتبه، لئلا يغص حلقك بالطعام!»

ثم وضع ظرفًا بلاستيكيًا بني اللون بجواري على المائدة، وذهب كي يبدل ثيابه. نظرت إلى الظرف البلاستيكي الذي كان مزودًا بغلاف مثلث الشكل وقد أُغلق بواسطة كبسولة بنية اللون بدرجة أغمق من لون الظرف ذاته. لا أعرف تحديدًا لمَ فكرت في أن هذا الظرف يخصني أنا، واعتقدت أن أبي قد ابتاع شيئًا من أجلي، ووضعه على المائدة لآخذه. كان هذا دأب أبي، فعادة ما يؤدي مهامه متكتمًا. ففي بعض الأحيان عندما كنت أنا أو ليلى نطلب منه شيئًا مهمًا للغاية بالنسبة لنا، ونظل نؤكد بحماس بالغ على أن هذا الأمر مثلًا يجب أن يتمه في يوم كذا، فما يكون من أبي إلا أن يحدق إلينا ببرود جم فحسب، ولا ينبس ببنت شفة. كان يتمتع بهدوء وثبات انفعالي شديد، حتى إننا كنا نعتقد أنه لا يأخذ كلامنا على محمل الجد، أو أنه لا يريد أن ينفذ ما طلبناه. ولكن أبي في حقيقة الأمر كان ينفذ ما طلبناه منه خلسة بعد بضعة أيام فحسب، وحتى قبل أن يحين موعد الانتهاء المرجوّ أن يُنفذ فيه هذا الأمر. كذلك كنا إذا طلبنا منه أن يشتري لنا شيئًا، فإنه يشتريه بالفعل، ثم يضعه في ركن ما دون أن يلاحظ أحد، وينصرف إلى عمله في وقته المعتاد، إلى أن أكتشف أنا أو ليلى أن طلبنا قد لُبِّيَ. وهكذا رحت أعتقد في ذلك اليوم أيضًا أن هذا الظرف قد يكون شيئًا كنت قد طلبته من أبي آنفًا، والآن قد نسيته، أما أبي فيتذكره. أو كل ما في الأمر أن أبي قد ابتاع لي شيئًا، ووضعه على المائدة، كي أفتحه بنفسي وأراه.

ابتلعت لقمة الخبز المغموسة في البيض المقلي، وتجرعت كوب الماء الذي كان بجانبي. عندئذٍ اجتذبت الظرف ناحيتي. أخذت أقلب فيه النظر قليلًا، وبعد ذلك التقطته من على المائدة بكلتا يدي. وفي الوقت ذاته وقعت عيني على شاشة التلفاز، ورأيت إحدى الأمهات تحتضن طفلها برأس تقطر دمًا وتبكي. تناولت الظرف أمامي، وفتحت كبسولته، فبرزت أمامي مجموعة أوراق قديمة قد اعترتها صُفرة. مجموعة أوراق قديمة! لم يسبق لي أن طلبت من أبي شيئًا مثل هذا، ورغم ذلك داهمني الفضول لمعرفة أي شيء داخل الظرف. وفي حين كانت تلك المرأة في شاشة التلفاز لا تنفك عن البكاء والصراخ، دسست يدي تحت مجموعة الأوراق تلك، وهممت بإخراجها من الظرف، وإذ بأبي يهتف من أمام باب غرفة نومه قائلًا: «انتبه، يا سيد الفضول.»

باغتني صوت أبي، فسحبت يدي على الفور. وعندما نظرت إلى أبي، أردف قائلًا: «برفق... برفق شديد... إنه ورق قديم جدًا، وقد يتمزق.»

وضعت الظرف على المائدة. وفي حين كان أبي يشمر كميّ قميصه الأزرق، راح يتقدم نحوي. فسألته مستغربًا: «قديم؟!»

حينئذٍ اقترب أبي من المائدة، وتناول الظرف، وقال: «لقد كُتب هذا الورق قبل نحو مئة، بل مئة وخمسين عامًا. لقد كنت أبحث عنه منذ بضعة أسابيع، ولم أزل أطلبه من هذا وذاك، حتى حصلت عليه أخيرًا.»

ثم سحب كرسيًا إلى الخلف وجلس بجانبي وأردف: «اشتريتها من ممر السوق ذلك في شارع لاله زار، حيث تباع هنالك الأغراض والتحف القديمة.»

فسألته: «ولمَ اشتريتها إذن؟»

فأعاد أبي الأوراق التي كانت قد برزت من الظرف إلى مكانها، وأغلق الظرف، ثم قال: «لقد اشتريتها من أجل لوحتي الجديدة، فإنني أريد أن أنشئ لوحة كبيرة أفكر في تنفيذها منذ فترة طويلة، بحيث تكون مزيجًا من الرسم بالألوان الزيتية، ودمج القصاصات الورقية.»

فقلت: «وهل ستصنع حينئذٍ من هذا الورق قصاصات ورقية تلصقها بخلفية لوحتك؟»

فرد أبي متحمسًا: «بالضبط، أريد أن تكون خلفية اللوحة بضعة أوراق منقوشة بكتابة يدوية قديمة، يرجع أصلها إلى العصر القاجاري؛ إن هذا النوع من اللوحات منذ البداية يبدو كعمل إبداعي أصيل، ويغدو منذ تلك البداية تحفة فنية.»

حينئذٍ قلت: «إنه لأمر رائع للغاية.»

فقال أبي: «أجل، أعتقد أن هذا العمل يمكن أن يصير لوحة فنية رائعة. ثم إن الزبائن يتهافتون على شرائها منذ الآن، حتى إن أحدهم يعرض عليّ شرائها، ليأخذها معه إلى إمارة دُبيّ. طوال هذه الفترة لم يكن شيء ليَثنيني عن تنفيذ هذا العمل سوى إيجاد هذه الأوراق، ولقد طلبتها من عدة أشخاص، إذ كنت أقول لهم إنني أريد مجموعة أوراق بالحجم والشكل ذاتهما تكون مكتوبة بالخط المُكَسَّر، بأي بطريقة كانت، على أن تكون هذه الكتابات قد دونت بخط يد الشخص ذاته فحسب، وأن تكون كتابتها دقيقة. كان الأمر صعبًا للغاية، ولكنه تحقق أخيرًا.»

وبعد ذلك فتح غلاف الظرف وهو منتشٍ ببهجة النصر، وأخرج مجموعة من الأوراق، ففاحت رائحة القِدم من الظرف. قلت: «هل كُتبت حقًا هذه الأوراق قبل مئة وخمسين عامًا؟!»

فقال أبي: «يبدو أنها تنتمي إلى فترة حكم الملك مظفر الدين شاه([4])، قد تكون دونت خلال تلك الفترة تقريبًا»

ثم مكث هنيهة، وحدق إلى وجهي، كما لو كان يحاول أن يستبين كيف يبدو حالي. فقال: «هل أنت بخير؟»

فقلت: «أجل.»

قال مازحًا: «بخير بخير بخير؟»

فقلت: «بخير بخير بخير.»

فقال: «هل نمت البارحة جيدًا؟»

فقلت: «أجل.»

قال: «ألم تراودك أي كوابيس مزعجة؟»

فقلت: «بلى، لم تراودني.»

فقال: «أتخبرني بالحقيقة؟»

قلت: «أجل، أخبرك بالحقيقة.»

فخرَّز أبي عينيه وضيق جفنيهما، ثم قال: «أحقًا حقًا حقًا؟»

فقلت ضاحكًا: «حقًا حقًا حقًا.»

فضحك أبي أيضًا، وقال: «الحمد لله، أحيانًا ما أشعر بالقلق عليك.»

فقلت: «ليس هنالك أي داعٍ لشعورك بالقلق؛ إنني بخير.»

ثم أشرت إلى الأوراق، وسألته: «والآن أخبرني، بكم اشتريت هذه الأوراق؟»

فهز أبي رأسه، وقال: «لم يكن سعرها غاليًا، يُعد جيدًا.»

ثم دفع بالأوراق نحوي ونهض قائلًا: «ما رأيك في أن أعد لنا وجبة من المعكرونة؟»

مكثت قليلًا، ثم قلت: «دعني أعد لنا شيئًا.»

فقال أبي: «كلا، يوم جمعة يحين دوري أنا، هل ستتناول المعكرونة أم أعد شيئًا آخر؟»

فقلت: «لا، هذه المعكرونة جيدة.»

فأردف أبي قائلًا: «إن ليلى تحبها أيضًا.»

وذهب أبي إلى المطبخ. تحسست تلك الأوراق الصفراء القاسية التي كانت قد خُطت بقلم رأسه دقيق. تفحصت الخط المكتوب على الورق، حيث كان الخط مُكسّرًا، وكانت قراءته منذ الوهلة الأولى تبدو صعبة. وقتئذٍ دعاني أبي من المطبخ قائلًا: «أطفئ التلفاز.»

فقمت من خلف المائدة، ومضيت إلى التلفاز الذي كان يُعرض عليه حينها مشهد لصبي صغير مصاب بعدة جروح، و مُغبَّر بالتراب، كان قد جلس مبهوتًا على مقعد أحمر اللون لإحدى سيارات الإسعاف، ويصوب النظر أمامه بجمود تمامًا مثل التمثال، فأطفأت شاشة التلفاز.

ثم نادى أبي مرة أخرى: «ألا تعلم متى ستأتي ليلى؟»

فقلت: «إنهم يتوقفون عند الساعة الثانية.»

فأردف أبي: «حتى في يوم الجمعة أيضًا لا يدعون هؤلاء الشباب وشأنهم.»

ثم ارتفع صوت انسكاب ماء الصنبور. حينئذٍ عدت إلى الطاولة، وجلست على الكرسي، وحاولت

أن أقرأ تلك الكتابة المنقوشة على الورق. ركزت على نحو ثلاث كلمات، إذ كان مكتوبًا: من شدة اليأس. وفي السطر التالي: لم يكن من الموت بُدٌ. ثم جعلت أقلب الأوراق أمامي، غير أن إحدى العبارات لفتت انتباهي: لقد رأيت عالم الموتى. اقشعر بدني، وشعرت ببرودة شديدة. حينئذٍ هتف أبي من المطبخ: «أحضر طبقك و كوبك، لأغسلهما.»

فرفعت رأسي وقلت: «سوف أغسلهما بنفسي مع أطباق الغذاء.»

فقال: «احضرهما، لأغسلهما مع الأطباق الأخرى لديّ.»

نهضت، وحالما كان ذهني مشغولًا بالكلمات التي كنت قد قرأتها، وضعت طبق البيض والكوب على الصينية، وحملتها، ثم وضعتها أمام أبي بجانب غسالة الصحون. فقال أبي: «لترى كم الساعة الآن.»

فخرجت من المطبخ ونظرت إلى ساعة الحائط. كانت بطارية الساعة قد فرغت مرة أخرى؛ إذ كانت عقارب الساعة تشير إلى التاسعة والنصف صباحًا.

وبعد أن التفت تجاه المطبخ، قلت: «لقد نفدت البطارية.»

فهتف أبي قائلًا: «لقد غيرت بطاريتها بنفسي مؤخرًا.»

ذهبت إلى غرفتي، والتقطت ساعة معصمي التي كانت على طاولة مكتبي، ونظرت؛ كانت الساعة حينذاك الثانية عشرة إلا خمس عشرة دقيقة. خرجت من غرفتي ملتفتًا صوب المطبخ، وقلت لأبي: «إنها الآن الثانية عشرة إلا خمس عشرة دقيقة.»

وجلست مرة أخرى إلى المائدة، وحملقت إلى الورق. بحثت عن العبارة التي كنت قد قرأتها للتو وأكملت: لقد عدت من عالم الموتى، لقد رأيت بعينيّ هاتين ما لا يمكن لأحد أن يسمعه. أخذت أقلب الصفحات التالية، ثم عدت إلى الصفحة الأولى. كانت زاوية في الورقة الأولى مثنية، ففكت ثنية الورقة بطرف إصبعي برفق، وشرعت في القراءةبدءًا من السطر الأول: سيادة حضرة أجلّ أشرف أكرم، مدير مدرسة دار الفنون العالية المُحترم، جناب الميرزا جعفر خان هدايت...

رفعت رأسي، والتفت ببصري إلى شاشة التلفاز المغلقة. ثم ما لبثت أن تناولت الأوراق، ومضيت بها إلى داخل غرفتي. أغلقت الباب خلفي، وعكفت على قراءة مخطوطات رضا قلي ميرزا. تلك المخطوطات التي أرسلتني بعد بضعة أيام إلى حي عود لاجان، لأبحث عن دار تُسوِّرها جدران عالية خلافًا للدور الأخرى التي كانت لا تزال قائمة في مكانها في ذلك الحي.

٢--

سيادة حضرة أجلّ أشرف أكرم، مدير مدرسة دار الفنون العالية([5]) المُحترم، جناب الميرزا جعفر خان هدايت([6]) (دام عزه).

وافر التحايا وأسمى آيات التبجيل، مقدمة لكم من هذا العبد المتواضع، رضا قلي الشهير برضا قلي ميرزا الكاتب، أمين مكتبة المدرسة العالية العلمية لدار الفنون، حيث إنني أقوم منذ خمس سنين في ظل نعماء جنابكم بأداء مهام ترتيب وتنظيم وأيضًا نسخ وتحرير الكتب الموجودة في المكتبة الفخيمة والعظيمة لهذه المدرسة، وأحيانًا ما أستغل ساعات فراغي و دقائق راحتي في أثناء تأدية مهامي الوظيفية، وبحُكم شغفي باكتساب العلوم المتعددة والمناقشات في المسائل المُتعينة، لأواظب على حضور الفصول الدراسية وأنهل وأستفيد من الدروس والمناقشات بين الأساتذة والطلاب، إذ إنني أسعى بكل ما أوتيت من قدرة لزيادة تحصيلي المعرفيّ.

إن أحد الدروس التي يميل هذا العبد المتواضع بشدة إلى حضور مجلسها العلمي هو درس التشريح للطلاب المتخصصين في العلوم الطبية. فبين الفينة والأخرى عندما تُنقل جثة جديدة لأحد الأموات للقيام بتشريحها في قاعة التشريح الخاصة بقسم العلوم الطبية في المدرسة فإن هذا العبد المتواضع يواظب أيضًا على الحضور بصحبة الطلاب في المجلس العلمي المنعقد للتشريح ويظل إلى جانبهم يرقب قيام الأستاذ بتشريح الجثة. إنني دائمًا ما كنت أتوق لمعرفة ما الذي يجري خلف ظاهر الجسد البشري، كيف تبدو أمعاؤه وأحشاؤه وأين تستقر في جسده. أما هذا الشغف الذي يرافقني منذ سنوات، فلا شك أنه لو كانت أسعفتني يد الزمان، لأصبح دافعًا لي لتحصيل ودراسة العلوم الطبية ومزاولة مهنة الطب. لكنما نوائب الدهر، عصفت بكياني ووجودي كما لو أنني أجمة شوكية صغيرة وخفيفة وطوَّحتني هنا وهناك حتى سلبتني إمكانية حسن التدبير والتدبر في أمر مستقبلي واختيار عمل أمارسه حتى في نهاية الأمر توليت مهام الكتابة وأعمال النسخ، بداية في دار الطباعة الملكية ومن ثم في مكتبة دار الفنون المباركة تحت إمرة جنابكم، وأنحيت فكرة اكتساب المهارات اللازمة لمهنة الطب برمتها جانبًا، وآثرت العزلة على الرغبة الجامحة والطموح لنيل الشهرة، لذا فإنني دائمًا ما أقضي أوقاتي بين الكتب منزويًا في أحد أركان المكتبة تحت وطأة الصمت التام.

على أي حال؛ فإن الغرض من كتابة هذه السطور ليس شرح اهتمام هذا العبد المتواضع بمهنة الطب إنما أفردت هذه المقدمة لأشرح لكم علة وجودي بين الفينة والأخرى داخل قاعة التشريح من جهة وعلة وقوع الحادث التي سوف أوضحه لكم الآن من جهة أخرى.

لقد علمت أنه في صباح يوم الاثنين من الأسبوع الماضي أودعت أسرة شخص أجنبي غير مسلم جثته لدى قسم العلوم الطبية في المدرسة كي تُشرَّح وأن هذه الجثة سوف تُشرَّح تحت إشراف جناب الميرزا أبي القاسم خان([7]) سلطان الحكماء وأستاذ الطب المبجل، على أن تُعرض أعضاء وجوارح هذه الجثة على الطلاب. لقد استغرق تجهيز جسد المتوفى مدة يومين، وقام سلطان الحكماء بنفسه بسحب الدماء الفاسدة من الجثة وتعقيمها وأخيرًا ففي صبيحة يوم الأربعاء بدأ العمل على تشريح جسد الميت في قاعة التشريح بالمدرسة. وفي ذلك اليوم شرفنا جنابكم بالمجيء في أثناء العمل وبدأتم بمراقبة أداء الأستاذ لعمله من كثب. أما أنا فقد كنت حاضرًا من بداية انعقاد هذا المجلس العلمي وسط جموع الطلاب الحاضرين. وفي بداية انعقاد المجلس بدأ

الأستاذ سلطان الحكماء أولى عباراته بوصف جسم الإنسان وبيان كيفية استقرار الأعضاء داخله بعضها إلى جانب بعض ثم ما لبث أن أزاح عن الجثة غطاء من قماش الكِرباس القطني الأبيض الذي كان قد أُلقي عليها. كان المتوفى رجلًا يبلغ من العمر نحو خمسين عامًا أصلع ذا حاجبين كثيفين بدين الجسم وقد استحال لون جلده تمامًا إلى اللون الأصفر من جراء تطهيره باستخدام بالمواد المعقمة. أما الأستاذ سلطان الحكماء فبعد أن أزاح عنه هذا الغطاء القطني السميك طفق يشرح مجددًا على جسد الرجل الميت وأطرافه ويرسم على جسده بالقلم والمِداد خطوطًا ويضع في مكان كل عضو من أعضائه علامة تميزه. ثم التقط المشرط الجراحي بمهارة فائقة وأخذ يُشرِّح به أطراف الميت وعضلاته واحدة واحدة ويتناول بالشرح الوظيفة المميزة لكل منها على حدة. وبعد ذلك حان دور الأطراف العلوية والقفص الصدري للمتوفى؛ حيث قام جناب سلطان الحكماء بتشريحها أيضًا وفي نهاية الأمر اقتلع الأستاذ قلب الميت بحرص شديد دون أن تُمس منطقة الصدر لديه بسوء وعرضه على الطلاب.

أتذكر حينها أن بعض الطلاب لم يستطع تحمل رؤية ذاك المشهد، فنأى هؤلاء بأنفسهم عن جموع الحاضرين وخرجوا من قاعة التشريح واحدًا تلو الآخر. وبينما كنت واقفًا في الصف الأخير، أخذت أصوات تهوعهم تتناهى إلى سمعي بوضوح وقد غلبهم القيء. حينذاك شرَّفنا جنابكم بالوصول. في البداية سمعت صوتك يتردد في الردهة خارج قاعة التشريح حينما كنت توبخ وتؤنب بصوت عالٍ هؤلاء الطلاب نافدي الصبر الذين كانوا قد خرجوا من القاعة، ثم من بعد ذلك سمعت أصوات أقدامهم تتجه بهم إلى داخل القاعة مرة أخرى. استدرت ورأيتك إذ كنت ترتدي قباءً([8]) بني اللون من قماش التِرمة الفاخر وتعتمر قبعة باللون ذاته. ألقيت عليك التحية، فهززت رأسك مُرحبًا ومررت بين صفوف الطلاب الذين كانوا يفسحون لك الطريق حتى تقدمت إلى الصف الأمامي. وكانت حركتك في القاعة قد خلفت أثرًا طيب الرائحة من العطر الذي كنت قد تطيبت به فاح شذاه في أرجاء قاعة التشريح المعبأة برائحة مركب الفُورمالين. وفور أن رآك الأستاذ سلطان الحكماء استقبلك مرحبًا بقدومك وحيَّاك، فمنح جنابكم بإيماءة رأسه وحركة يده إشارة إلى الأستاذ كي يواصل عمله وهذا ما فعله الأستاذ. وإذا كنت تتذكر فإن الأستاذ كان ممسكًا بقلب الرجل المُتوفى في يده اليسرى التي كان يرتدي فيها قفازًا طبيًا ويشير باليد الأخرى إلى كل جزء من أجزاء القلب ويبين اسم ووظيفة كل جزء على حدة. ومن جملة ما قاله الأستاذ سلطان الحكماء إن القلب مركز حياة الإنسان. فالدم ينتقل عبر القلب إلى الشرايين، ثم يتدفق في كل عضو من أعضاء جسم الإنسان ويمنحها الحياة. أما إذا توقف القلب عن العمل وعجز عن أداء مهمته ألا وهي إيصال ماء الحياة الذي هو ذاته الدم إلى الأعضاء الأخرى في الجسم فإن كل جسم الإنسان سوف يتعطل هو الآخر بدوره عن العمل وحينئذٍ يدنو أجله ويموت.

لا بد أنك تتذكر أن أحد الطلاب حينئذٍ قال: «إذا كان القلب هو مركز حياة الإنسان فالروح إذن تستقر في وسط القلب.»

ومع سماع الأستاذ لهذا الكلام مكث هنيهة وخفض يده ثم ما لبث أن قال: «ليس هنالك أي مكان في الجسد يسع الروح.»

فأردف الطالب ذاته الذي كان قد قال تلك الجملة من قبل قائلًا: «أينما كانت الروح موجودة فلا بد أن يسعها مكان ما في الجسد.»

كما تتذكر أن الأستاذ أجابه قائلًا: «كلا الأمر ليس كذلك فوجود الروح لا يوجب علينا حتمًا أن نبحث لها عن مكان في الجسد.»

حينئذٍ تكلم طالب آخر من بين الحشود، وقال: «إننا لا نقوم بتشريح جسم الإنسان إلا لاكتشاف الأسرار التي يحتويها داخله. وعندما نحكم سيطرتنا عليه ونتمكن من تشريح كل جزء فيه بدقة ونتفحصه بعناية فلا يمكن حينئذٍ أن يخفى علينا شيء.»

هذه المرة وضع الأستاذ قلب المتوفى في صدره مرة أخرى وقال: «هذا الرأي الذي يقول إننا عن طريق شق صدر الإنسان والوصول إلى ما كان مختفيًا تحت ثنايا جلده ولحمه سوف نتمكن من أن نطلع على كل أسراره رأي عارٍ تمامًا من الصحة. إننا بهذه الطريقة سوف نكتسب القليل من المعلومات بشأن جزء من الوجود الإنساني فحسب، في حين أن هنالك أشياء أخرى كثيرة لا نزال نجهل بها.»

أما آخر سؤال فقد طرحه أحد الطلاب الآخرين إذ قال: «ما السبيل لاكتشاف تلك الأسرار البشرية؟»

ففكر الأستاذ قليلًا قبل أن يقول: «لست مخولًا للإجابة عن مثل هذا السؤال. كل ما أعرفه أن هذا علم لا يمكن اكتسابه بواسطة التشريح والمشرط الطبي، بل من طريق آخر.»

ثم أشار إلى الوجه الأصفر للجثة التي تحت يديه، وقال: «قد يكون هذا الرجل الآن قد اكتشف في العالم الآخر تلك الأسرار التي ما زلت أنا وأنتم نخوض في حديث بشأنها.»

حينئذٍ ضحك جنابكم ومن أجل أن تحسم المناقشة الدائرة حول هذه المسألة قلت: «هكذا إذن فإن اكتساب المعرفة التي تمكن المرء من اكتشاف كل الأسرار البشرية أمر لن يتيسر له إلا بعد الموت. وإننا نحن معشر الأحياء لن نطلع على هذه الأسرار أبدًا ما لم نتحدث إلى شخص قد جاء من عالم الموتى.»

ثم التفت نحو الطلاب وأردفت: «هل ثمة شخص بينكم قد عاد من عالم الموتى؟ إن كان هناك، فإنه وحده من يستطيع حل مشكلتنا.»

وضحكت. كما ضحك الآخرون أيضًا بالتزامن مع ضحكة معاليكم. عدا أنني قلت فجأة: «ليس هنالك شيء مستحيل بالطبع...»

وفور أن نطقت جملتي هذه، خفُتت أصوات الضحكات ولزم الجميع الصمت. بيد أن هذا الصمت لم يكد يستغرق دقيقة ثم من دون أن تستدير جنابك برأسك نحوي وتنظر إليّ حيثما كنت واقفًا خلفك عقدت يديك خلف ظهرك وشمخت برأسك عاليًا وبنبرة قوية نافذة تفضلت قائلًا: «أي شيء هذا ليس بمستحيل؟ أهو اكتشاف أسرار الإنسان، أم العودة من عالم الموتى؟»

ولما كان الندم الشديد على ما قلته من ذي قبل قد ألم بي التزمت السكوت ولم أجب. وفي أثناء صمت القاعة استدار بعض الطلاب نحوي وحدجوني بنظراتهم لكنما لساني كان قد انعقد فعجزت عن الكلام. وفي نهاية الأمر لم يكسر سَوْرة هذا الصمت سواك. فمن دون أن تنظر ورائك مرة أخرى التفت إلى الأستاذ وقلت: «لم يجب أحد أيها الأستاذ... لا بُد أن عوارض السقف الخشبية كانت تطقطق فظننا أن ثمة شخصًا بيننا يتحدث.»

هذه المرة تعالت ضحكات الطلاب أكثر فأكثر حتى إن بعضهم قد استدار وأخذ يشير إليّ بيده ليريني إلى بعضهم الآخر وأنا الذي لم أستطع تحمل سخريتهم مني واستهزاءهم بي ما لبثت أن انطلقت خارج القاعة وعدت إلى خلوتي في ركن المكتبة.

لقد مرت خمسة أيام منذ ذلك اليوم. وفي تلك الأيام الخمسة قد راجعت ما حدث ذلك اليوم نحو خمسة آلاف مرة. ولقد أجبتك في مخيلتي مرارًا وتكرارًا. فإذا كنت الآن أنقل لك وقائع ذلك اليوم على هذا النحو نقلًا تفصيليًا دقيقًا فذلك إنما لتعلم كم أن لحظات ذلك اليوم لحظة في إثر لحظة لا تنفك تتكرر في ذهني ككابوس مزعج.

واليوم فإنني أهدف من كتابة هذه الرسالة إلى أن أضع حدًا لقلقي واضطرابي، وأجيب عن سؤالك الذي طرحته عليّ ذلك اليوم؛ أنا رضا قلي ميرزا الكاتب أعمل أمين مكتبة بسيطًا في مدرسة دار الفنون، وأنا عارض السقف الخشبي نفسه الذي لم تلتفت إليه حتى كي تراه ذلك اليوم وإذا لم تقدك قدماك بالصدفة إلى ذاك الركن في مكتبة المدرسة فلن تراه أبدًا. لقد رأيت عالم الموتى، لقد عدت من عالم الموتى. لقد رأيت بعينيّ هاتين ما لا يمكن لأحد أن يسمعه، أشياء أطلعتني بقدر ما أوتيت من فهم على بعض الأسرار البشرية.

لا شك أن ما أقوله غير قابل للتصديق بالنسبة لك. وربما تعد هذا العبد الفقير في نظرك من زمرة أهل الغش والخداع. رغم هذا فإنني مُصر على كلامي إصرارًا. ولكي تكتشف بنفسك مدى صحة كلامي فإنني سوف أرسل إلى حضرتك سيرة حياتي التي قد كتبتها فيما مضى مُرفقة بهذه الرسالة لتطالعها، وتقف بنفسك على ما حل بي.

لقد دونت سيرة حياتي هذه قبل سنوات من الآن؛ آملًا أن أمنحها لأبنائي من بعدي حتى يقرؤوها ثم ينقلوها من بعدهم إلى أبنائهم الذين سوف ينقلونها بدورهم إلى أبنائهم. لكنما قضت مشيئة اللهبعد سنوات من اقتراني بزوجتي التي أحبها كثيرًا ألا أرزق بأطفال وأن تبقى هذه المخطوطات هكذا بلا قارئ. لذلك فإنني سوف أرسلها إليك لتقرأها بنفسك حتى أُزيح عن كاهلي هذا العبء الثقيل الذي لا أطيق تحمله مرتين. أول مرة كانت تلك الإهانة التي وجهتموها إليّ يوم الأربعاء من الأسبوع الماضي، أما المرة الثانية فثقل تلك المذكرات الذي ما زلت أحمله على عاتقي طيلة سنوات ولم أقاسمه أحدًا حتى الآن.

شاءت الأقدار أن تقودني تلك الحادثة التي وقعت في قاعة التشريح إلى أن أخرج مخطوطاتي تلك وأضعها في متناول شخص آخر. ربما بهذه الطريقة، تنتقل سيرة حياتي من يد إلى يد وتُروى من فم إلى فم حتى تصل إلى أجيال سوف تأتي من بعدي إلى هذه الدنيا بعد مئة عام أو يزيد.

لن أزعجكم أكثر، إنني لألتمس من جنابكم مطالعة سيرة حياة هذا العبد الفقير لتستبين صحة ادعائي هذا من جهة ومن جهة أخرى تتعرف إلى الحقائق المروعة التي تحوزها بين جنباتها.

الخامس من ذي الحجة ١٣٣٠

العبد الأكثر تواضعًا رضا قلي

--٣

من المحتمل أن أكون قد وُلدت تقريبًا عام١٢٩٠ هجريًا، في قرية سلطان آباد إحدى القرى التابعة لمدينة ساوة. وإنني لأرجح هذا التاريخ لا أجزم به لأن أحدًا لم يقيد تاريخ ميلادي، ثم إنني أذكر أنني وُلدت عام ١٢٩٠ من الهجرة، لأنني أظن أني قد قضيت من عمري ما يناهز أربعين شتاءً حتى اليوم، ووفقًا لهذا التاريخ الذي قد حفظته في ذاكرتي فقد مضى ما يقرب من ثلاثين عامًا منذ قدومي إلى دار الخلافة في طهران. وإذا كانت يد القدر قد أخذتني من بيتي وساقتني إلى دار الفناء في طهران حينما كنت أبلغ من العمر عشر سنوات، مع الأخذ بعين الاعتبار أننا نعيش الآن في عام ١٣٢٩ من الهجرة، فيجب أن أكون قد جئت إلى هذه الدنيا تقريبًا بين عامي ١٢٩٠ و ١٢٩١. خلافًا لهذه الطريقة لا يمكنني حساب ما انصرم من عمري. لقد وُلدت في قرية كان من بين كل عشرة أطفال صغار فيها ثمانية لا يكادون يصلون إلى عمر الخامسة، حتى يسلموا أرواحهم واحدًا تلو الآخر بسبب إصابتهم بوباء الكوليرا، أو التيفوئيد، أو الطاعون، أو يموتوا جوعًا في حين لم يكلف أحد نفسه مثلًا عناء تقييد زمن ولادة طفل أصفر اللون هزيل كان يُخشى موته في أيما لحظة. وحتى إن بقي ذلك الطفل على قيد الحياة، فما حاجة ذاك العامل في القرية أو خفير الرّي، أو الشيَّال، أو مُكرِي البغال مثلًا إلى أن يعرف وقت ولادته تحديدًا. وما حاجة الآخرين أيضًا إلى أن يعرفوا متى حل مثل هذا الشخص ووَطِئَت قدمه ظلمة هذه الدنيا.

على أي حال، فإن جل ما أنشده الآن هو ألا أشير إلى سنة وشهر ويوم ميلادي الذي يوضح كيف ولَّى عمري وانقضى في عناء وشقاء منذ أن أتيت إلى هذه الدنيا الفانية. ورغم أن كل أهل الدنيا من فقير وغني ذات يوم من أيام الله سوف يطأ هذه الدنيا بقدمه وفي يوم آخر سوف يزيح قدمه عنها، فإن ما يفصل بين شخص و آخر هو كيفية اجتياز المسافة بين هذين اليومين وليس زمان المجيء والرحيل.

لا زلت أتذكر أنني قضيت سنوات بداية طفولتي في قرية تُدعى سلطان آباد، ونشأت في كنف أبي وأمي بجانب شقيقتين، شقيقتين كانتا تكبراني سنًا اسم إحداهما مرضية والأخرى اسمها عطية. وبالطبع فإن أمي قد أنجبت أيضًا فيما عدانا نحن الثلاثة أربعة بطون أخرى. بيد أنه لم تكن تمضي بضعة أيام على ولادة أي منهم، حتى يزهد دنيا البشر، ولا يرتضي لنفسه البقاء في دار الفناء، فيولي الأدبار عائدًا إلى العالم الآخر.

كان أبي مزارعًا هرمًا اسمه حبيب، أما أمي فربة بيت اسمها جُلتاج، وكان كلاهما أجيرين يعملان في أرض إقطاعي القرية، أي لدى السيد قاسم خان. ففي موسم الحصاد من كل عام كان أبي لا يحصل إلا على النُذر اليسير من عائد المحصول الزراعي الذي لم يكن يكفي نفقات أسرة يعولها، وأفواه يطعمها. لذلك كان أبي بجانب أنه يعمل أجيرًا لدى الإقطاعي مالك الأرض يمارس بعض الأعمال الأخرى كجمع الشوك من الأراضي، وحفر الآبار، وصنع قوالب الطوب. غير أن كل تلك الأعمال كانت لا تزال غير كافية، لإشباع بطوننا الجائعة، حتى إنني أتذكر كيف كنت أُحصي الطعام على جيراننا، وأسلط نظري باشتهاء على خبز التنور الذي تصنعه هذه الجارة، أو بيض تلك.

ومع ذلك، فإنني قد حظيت بطفولة سعيدة، لأنني كنت أعيش في كنف والديّ. والحق أن أختيّ

الكُبريين لم تدخرا معروفًا أو محبة إلا وقد بذلتاهما من أجلي. فكم من ليالٍ نامتا فيها وهما تتضوران جوعًا وقد منحتاني نصيبيهما الضئيلين من الخبز، كي أسد رمقي، وأضع رأسي على وسادتي هانئ البال. لكن وآسفاه إذ لم تدم هذه السعادة طويلًا! ففعل القدر بي ما كان يجب أن يُفعل، وصار زماني إلى ما كان يجب أن يصير.

في العام الذي كان خلافًا للسنوات التي تقدمته، كشفت لنا السماء عن وجهها الطيب، فظلت الأمطار الوافرة تهطل. ذلك العام الذي أظن أنه كان عام ١٣٠١ من الهجرة، وهو العام نفسه الذي فارقت أهلي فيه، وسلكت طريقًا لا عودة منه. ففي ذلك العام كانت السهول أكثر خضرة مما كانت عليه في المعتاد، وبينما كنت إلى جانب أقراني نلهو مستمعتين بين ربوع هذه المروج المكسوة بالخضرة وتحت الظلال الوارفة لتلك الأشجار المثمرة، لم أكن أدري أن الخريف المُبكر للحياة قد شارف على الوصول. ما زلت أتذكر جيدًا أنه ذات يوم عند الغروب حالما كنت عائدًا إلى بيتي بعد وقت قضيته في اللعب والتسكع في أزقة القرية، لم أكد ألج الغرفة، حتى خرجت أمي من بين ظلام الغرفة، وقالت مبتسمة: «أبشر يا رضا، سنذهب غدًا لحضور حفل زفاف.»

ولما كانت أخبار الزفاف بالنسبة لي من أكثر الأخبار التي تغمرني بالبهجة حينما كنت طفلًا، سألت أمي متحمسًا: «زفاف؟ زفاف من؟!»

مسدت أمي بيدها على رأسي، وقالت: «إنه زفاف ابن خالتك.»

فأردفت: «خالتي؟ أي خالة؟»

فقالت: «خالتك التي تسكن في قرية جعفر آباد. لقد بعثت اليوم رسالة إلينا حملها ساعي البريد جاء فيها أن غدًا سيقام حفل الزفاف، وقد دعتنا كي نذهب غدًا إلى جعفر آباد، ونشهد هنالك أجواء الاحتفال، ونشاركهم مظاهر الفرح، ثم نتناول الطعام في مأدبة عشاء حفل الزفاف.»

كنت أعلم أن السعادة تغمر الجميع في حفل الزفاف، كما كنت أعلم أنهم يقدمون أطيب الطعام في حفل الزفاف. كنت قد سمعت أنهم يقدمون البُلُو([9])، البُلو نفسه الذي كنت في بعض الأحيان أتسلل برفقة الصبية الصغار إلى أسفل نافذة مطبخ السيد الإقطاعي قاسم خان، ونعبئ صدرونا برائحته الطيبة التي تخرج من النافذة، ونظل نلهو ونمرح ضاحكين. وهو نفسه أيضًا الذي ذات مرة حيث كانت ليلة زفاف نجل السيد قاسم خان على ابنة الخان حسين آباد، وضعوا قدورًا كبيرة ملأى على المواقد، وأشعلوا النيران، ثم بدأوا يطهونه. ولما نضج الرز في المرق، سكبوه في مصافٍ كبيرة. أما المرق الأبيض الذي كان يتقطر من ثقوب المصافي فكانوا يسكبونه في قدر آخر ويضعونه أمام الباب، وينادون في الناس بأن السيد يقول من اشتهت نفسه شيئًا من هذا الطعام، فليأخذه. حينئذٍ كان الكثيرون ما يلبثون أن يتناولوا أوعيتهم، ويغترفوا ما يشتهونه من المرق ثم ينثروا فيه بعضًا من نخالة القمح، ويأكلوه.

وفي تلك الليلة لم تنل أيدينا شيئًا من مرق الرز، غير أننا شاهدنا العروس والعريس وهما يمتطيان الخيل، ويتجولان في أزقة القرية، في حين كان يتقدمهما الجوقة الموسيقية من قارعي النُقر ونافخي الأبواق، وبجانب موكب العروسين كان قد اصطف حشد من رجال ونساء يرتدون أبهى الحُلل يتراقصون على الأنغام، ويلوحون بمناديلهم في الهواء مع الإيقاع. وبعد انتهاء مراسم الاحتفال تلك، ولج الجميع داخل بيت السيد قاسم خان، وأغلقت الأبواب، وتناولوا جميعًا

وجبة طيبة من البُلو. وها هي ذا خالتي الآن سوف تقيم هي الأخرى حفل زفاف، وقد دعتنا لحضور الحفل، وبالطبع سوف تستقبلنا داخل منزلها، ونستطيع تناول البُلو مع الضيوف المدعوين. ركضت نحو الغرفة فرحًا منفرج الأسارير، وأخبرت أختيّ عطية ومرضية أننا سوف نذهب إلى حفل الزفاف غدًا، لكن أمي التي جاءت خلفي قالت إنهما لن تأتيا، وقالت إن المسافة إلى هناك طويلة ولا بد أن نستقل عربة بريد([10]) لتنقلنا، وقالت إن أجرة الطريق ستكون باهظة، وقالت إننا يجب أن نبات في بيت خالتي، ولا توجد مساحة كافية لديها، وأخيرًا قالت لن يذهب إلى هنالك أحد سواي أنا وهي وأبي.

لم أنم في تلك الليلة حتى الصباح، لأن نومي كان ثقيلًا. فعندما كنت صغيرًا لم أكن أنام إلا وقد استغرقت في نوم عميق، حتي إنني في الصباح كنت أجد صعوبة شديدة في الاستيقاظ. كنت خائفًا من أن أبقى نائمًا في صباح الغد، ويفوتني الذهاب إلى حفل الزفاف. لهذا السبب لم أنم بتاتًا. بت ليلي كله أتقلب في فراشي حتى ذلك الصباح، بل ورحت أنهض عن فراشي مرة كل ساعة، وأعض على يدي، كي تظل تؤلمني، فلا أستطيع أن أنام من فرط الألم. ولا غرو أن كان ذهني في عالم اليقظة والأرق زاخرًا بجملة من الأفكار المتباينة، فمن ناحية كنت سعيدًا للغاية لأننا ذاهبون لحضور حفل الزفاف، ومن ناحية أخرى كنت مغتمًا، لأن أختيّ لن تكونا معنا. كان قد تملكني الحزن الشديد من فكرة عدم مجيئهما، ومن أجل أن أواسي نفسي قطعت على نفسي عهدًا بأن أدخر أكبر قدر ممكن من البُلو، وأحضره معي لعطية ومرضية. وقلت في سريرتي حتى وإن قدموا لي القليل من البُلو، فلن آكله، وسوف أدخره لأختيّ.

كما فكرت في أنهم بالتأكيد سوف يقدمون لي أيضًا بضع حبات من حلوى السكر، فقلت لنفسي سوف أحضرها معي أيضًا من أجل أختيّ. خلاصة الأمر أنني لم أنفك طوال الليل أتقلب في مكاني، وأعض على يدي، حتى صدح آذان الفجر فوق الأسطح. عندئذٍ رأيت أن أبي وأمي قد نهضا من رقادهما، وتوضآ، وصليا الفجر، ثم من بعد ذلك هتفا بي لإيقاظي في حين تظاهرت بأنني نائم، وقالا: «هيا انهض، حتى نتأهب للذهاب.» وتزامنًا مع استيقاظي استيقظتا عطية ومرضية أيضًا. أعطتني أمي بنطالي النظيف المهندم كي أرتديه، ثم ألبستني قميصًا أبيض اللون أنيقًا كان أبي قد ابتاعه لي من المدينة قبل عام. هكذا أصبحنا جميعًا متأهبين للذهاب. ولم يكد يستغرق الأمر وقتًا طويلًا، حتى خرجنا من المنزل قبل طلوع الشمس تشيعنا أختيّ بنظرات ملؤها الحزن والأسى. مضينا حتى خرجنا من أزقة القرية، ووقفنا بجانب الطريق منتظرين وصول عربة البريد.

أتذكر جيدًا أن ريحًا باردة كانت تهب علينا، وقد أصابني السهاد بالوهن والخدر، وطفق جسدي يرتعش في إثر هبوبها. كانت السماء صافية تمامًا، والنجوم التي ترصعها تبدو في ظلمة الفُلاة أقرب من أي وقت آخر، فغمرتني السعادة وأنا جالس بجوار أبي وأمي على إحدى الصخور دون أن ينبس أحدنا ببنت شفة. وأخذ ثلاثتنا يتأمل السماء حينًا، و ينظر إلى آخر الطريق حينًا آخر، لنرى متى ستصل عربة البريد. ثم شيئًا فشيئًا لاح في نهاية الأفق خيط أبيض كسر من سورة الظلام، وأخذ الخيط الأبيض يتسع ويتسع رويدًا حتى انبلجت منه عربة البريد كبقعة سوداء. حينئذٍ باغتتنا السعادة، ونهضنا عن أماكننا، و نفضنا التراب عن ملابسنا، ووقفنا في انتظار قدوم العربة.

كانت العربة التي وصلت إلينا فيما بين انقشاع الظلمة وانبلاج نور الصباح، عربة خشبية يجرها

حصانان قد اقتربت منا محدثة صخبًا وجلبة. وبمجرد أن وصلت، شد سائق العربة لجام الحصانين، والتفت نحو أبي قائلًا: «ها؟ إلى أين تذهبون؟»

فقال سائق العربة: «ستدفع عن كل فرد شاهيًا([11]).»

فقال أبي: «خفض الأجرة، ولك الأجر عند الله.»

فما كان من سائق العربة إلا أن جعل يحرك سير اللجام إشارة منه إلى تأهبه للرحيل، وقال: «هذا هو السعر المحدد للأجرة، حتى أوصلك إلى جعفر آباد تدفع شاهيًا عن الفرد الواحد.»

حينئذٍ قال أبي: «انتظر، سوف نركب.»

كان قد جلس في مؤخرة العربة على الأكياس الخاصة بالمنقولات البريدية سوانا أربعة أشخاص آخرين. رفعني والدي في البداية ووضعني داخل العربة، ثم بعد ذلك رفع أمي، ومن بعدها أيضًا أمسك أبي بالقائم الخشبي الجانبي للعربة وصعد. كان قد جلس في مقدمة العربة جنديان من قوات الأمن يرتديان زيًا عسكريًا وخوذة بلون أزرق، أحدهما يجلس بالجهة اليُمنى والآخر بالجهة اليُسرى، وكلاهما بحوزته بندقية، وقد ثبت كل منهما مقبض بندقيته على أرضية العربة، وأسند رأسه إلى سبطانتها، ونعس. أما نحن فقد أزحنا بعض الأكياس داخل العربة، وجلسنا في الجانب الأيمن من العربة. في حين قد جلس قبالتنا رجلان، كان أحدهما بدينًا وذا شارب كثيف، والآخر نحيفًا وملتحيًا، وكانت عيونهما مفنجلة، ويحدقان إلينا. بادرنا سائق العربة قائلًا: «لا تضعوا أقدامكم على الطرود القابلة للكسر، توخوا الحذر، فكلها ودائع ملك لأصحابها.»

فرد أبي: «اطمئن.»

وعندما ارتجت العربة بقوة، وانطلقت في طريقها محدثة صخب عالٍ، أصبح جسدي هامدًا ومرهقًا، وجفناي ملتهبين، فنظرت إلى أبي الذي كان هو الآخر ينظر إليّ، ولما رآني أنظر إليه سألني: «هل داهمك النعاس؟»

فأجبته: «أجل.»

حينها مدت أمي يدها من خلف رأسي ووضعتها على جبهتي، واجتذبت رأسي نحوها وقالت: «نم الآن»

فمددت ساقيّ، ووضعت رأسي على ركبة أمي، وأغمضت عينيّ والعربة لا تزال تهتز. ولما كان اهتزازها يشبه اهتزاز المهد، هيأني ذلك للنوم. ولقد آنست بدفء ركبة أمي، فأطبقت جفنيّ. ثم من بعد ذلك شعرت بأمي وهي تداعب وجهي بيديها الخشنتين، فأخذت نفسًا عميقًا، واستسلمت لنوم عميق. حلمت بأننا قد ذهبنا إلى منزل خالتي، حيث كانت خالتي تبدو فاتنة للغاية وترتدي فستانًا مطرزًا بالورود، ووشاحًا أبيض اللون، وكان وجهها مستديرًا ووجنتاها مشربتين بحمرة، وراحت تبتسم لنا. وكان جميع من في منزلها يرتدي ثيابًا رائعة، وتصدح الأبواق وتدوي الطبول. أما الأرض فكانت زاخرة بشتى أصناف الفواكه من كل الألوان، من تفاح، وعنب، ودراق، فواكه لم أكن قد رأيتها من قبل قط. ثم ما لبثت خالتي أن احتضنتني وقبلت وجهي، وقالت: «هلا أحضرت لك بعضًا من البُلو؟»

فأجبتها: «أجل، كما أريد أن أدخر بعضًا منه لأجل عطية ومرضية.»

وبعد ذلك ذهبت إلى غرفة كانت مزدحمة الأرجاء بأناس متحلقين حول صوان نحاسية دائرية كبيرة ملأى بالبُلو. وكان السيد قاسم خان يجلس في صدر هذا المجلس ويتناول البُلو. وفور أن دخلت، دعاني قائلًا: «أقبل يا رضا، أقبل يا رضا، لتشاركنا تناول الطعام.»

فهممت بالجلوس بجانبه. بيد أن خالتي اجتذبتني من يدي، وقالت: «تعال لتشهد حفل الزفاف أولًا، ثم بعد ذلك كل ما تشتهي من البُلو.»

ثم خرجنا معًا، ومضينا إلى مكان فسيح يفيض بالزهور والفاكهة. جلت ببصري في أنحاء المكان، حيث لم تكن أمي هناك ولا أبي بل كانت خالتي، وارتسمت على محياها ابتسامة وهي تقول: «تفضل كل، وأي شيء تشتهيه نفسك تناوله.» ولكن النوم راح يكبس عليّ، فقلت لها: «أريد أن أنام.»

فقالت خالتي: «تعال، ونم في حجري.»

فاستلقيت ووضعت رأسي على ركبتها. وجعلت خالتي تهزهز ركبتها، حتى غلبني النوم. فنمت ورحت في سبات عميق، ثم هببت من نومي فزعًا على وقع الاهتزاز الشديد للعربة. بدأ يتناهى إلى سمعي صوت مضي العربة، وصوت شخصين يتحدثان عند رأسي. كنت أجد صعوبة شديدة في فتح عينيّ، كما لو أن جفنيَّ قد التصقا ببعضهما، وددت لو أنام مرة أخرى، لكنني فتحت جفني بصعوبة. كان الجو مضيئًا تمامًا والشمس ساطعة. وبينما كنت مستلقيًا، ووجهي ملامسًا لسطح أرضية العربة الخشبية، أدرت رأسي، حيث كانت الشمس التي قد بلغت تقريبًا كبد السماء، قد ألقت أشعتها الساطعة علي عيني، فأغمضت جفنيّ، ونهضت من مكاني وأنا أشعر بدوار شديد. جلست، وفكرت للحظة أين أكون. وجدت العربة ليست هي نفسها عربة البريد التي كنت فيها قبلًا، وقد اختفت تمامًا أكياس البريد الكتانية تلك. ولما نظرت من حولي، لم يعد أمي هناك ولا أبي.

وعوضًا عنهما كانت ثمة امرأتان عجوزان تلتحفان بالشادور([12]) وتجلسان قبالتي، ويجلس إلى جوارهما أيضًا رجل هرم يسحب الدخان من قصبة الجبق إلى صدره. أخذت أحملق إلى إحدى العجوزين التي كان وجهها مستديرًا غير أن شامة سوداء كانت تغطي نصفه تقريبًا. ولما رأتني العجوز أتأمل وجهها، أدارته نحو العجوز الأخرى التي كانت قد جلست بجانبها، وهمست إليها بكلام لم أفهم منه شيئًا. ثم إني نظرت إلى جواري، فرأيت رجلًا نحيفًا يرتدي قباءً أسود اللون، ويعتمر على رأسه قبعة من الفرو الأسود، وكان ينظر إليّ. هكذا نظرت حولي مذهولًا مبهوتًا، إذ كان كل شيء قد تغير تمامًا من العربة إلى سائق العربة وحتى الركاب أنفسهم، كما لم يعد هنالك أي أثر لجنديّ الأمن المزودين بالسلاح، وبدلًا من ذلك كان يجلس قبالتي هؤلاء الغرباء. فزرت من مكاني مذعورًا، وقلت: «أين أمي؟ وأين أبي؟»

في تلك اللحظة التفت رجل ضئيل الحجم والبنية كان يجلس بجانبي إلى ذاك الهرم الذي كان لا يزال يسحب دخان الجبق([13])، وقال بصوت رفيع رقيق: «ها هو ذا قد شرع في الصياح.»

أطلق الرجل الهرم نفثًا من دخان الجبق، وتمتم بكلام، ودون أن ينظر إليّ أو إلى الرجل بجانبي، وضع مبسم الجبق مرة أخرى بفمه. حينئذٍ جعلت أنظر إلى الرجل الذي يعتمر قبعة من الفراء، وأقول: «ماذا حدث لأمي وأبي؟ إنني لم أكن هنا.»

رفع الرجل ذو القبعة يده، ونكزني خلف كتفي، وقال: «أيها الصبي، اجلس يا ولد في مكانك، أنا

هنا عوضًا عن والديك.»

فرحت أسأل الرجل وأنا في أوج ذهولي واضطرابي: «أين أمي وأبي؟ لقد كنا معًا، كنا في طريقنا إلى جعفر آباد.»

وبعد ذلك انفجرت في بكاء مرير. وحالما كانت دموعي تنهمر، قلت: «لقد بقيت في مكاني لم أبرحه، لقد غلبني النوم وأنا في مكاني.»

حينئذٍ التفت الرجل ذو القبعة المصنوعة من الفراء مرة أخرى تجاه الرجل الهرم، وقال: «ألم أقل لك؟ ها قد بدأ.»

ثم أمسك بيدي وشدني، وقال: «اجلس أيها الصبي، قلت لك اجلس، لقد ذهب والداك.»

جلست مُرغمًا، وقلت باكيًا: «أين؟ أين ذهبا؟!»

فرد الرجل ذو القبعة قائلًا: «ليذهبا إلى الجحيم، ما الذي أدراني؟!»

في أول الأمر رحت أتوسل إلى الرجل الهرم، ثم نظرت إلى المرأتين العجوزين، وقلت: «أين ذهبت أمي وأبي؟ أسألكما بالله أن تخبراني.»

فما كان من الرجل الهرم إلا أن أزاح قصبة الجبق عن فمه، وزفر تنهيدة عميقة، وجعل يتأمل الطريق دون أن ينبس ببنت شفة. كما لم تنطق أي من العجوزين بكلمة، وأسدلتا نقابيهما الأبيضين اللذين كانتا قد رفعتاهما على رأسيهما، ثم دنت إحداهما فاها من أذن الأخرى، وأخذتا تتوشوشان. فما كان مني حينها إلا أن قمت مرة أخرى وأوصلت نفسي بصعوبة مع هذا الارتجاج الشديد للعربة إلى السائق، فلكزته في صدره، وناشدته: «أين والداي؟... سيدي... سيدي، سألتك بالله أن تخبرني أين قد نزلا؟»

لم يجبني سائق العربة بشيء، وبدلًا من ذلك طفق يجلد حصانيّ العربة بالسوط، ويصرخ فيهما كي يعدوا أسرع. فبكيت منتحبًا وناشده أن يتوقف، لأتمكن من النزول من العربة، لكن سائق العربة لم يأبه بي وواصل طريقه. وفي الوقت ذاته هوت يد ما على كتفي، وشدتني إليها شدًا. ولما استدرت، ونظرت، رأيت أنه كان الرجل الذي يعتمر قبعة من الفِراء. طفقت أتأمله من وراء دموعي الغزيرة المنسكبة. كان غير ذي لحية، وأملس الوجه، بحيث لم تكن شعرة واحدة تنبت في وجهه، ولكن في الوقت ذاته كانت بعض الخطوط والتجاعيد ترتسم على صفحة وجهه، بطريقة تجعلك لا تفهم أهو هرم أم أنه لا يزال شابًا بعد. طرق كتفي وقال: «كفاك صياحًا يا ولد، لقد رحل أبواك، لقد باعاك لي، وقد دفعت لهم خمسة تومانات([14]) ورقية، وابتعتك لي. ومن الآن فصاعدًا سأتولى أمرك بنفسي، وستنصت لما أقول، وتنفذ ما آمرك به، هل فهمت؟»

لم أجبه، بكيت فحسب. فصفعني مرة أخرى، وقال: «هل فهمت؟»

ولم أكد أهم بالنهوض، حتى طفق الرجل الأملس الذقن يوجه إليّ سيلًا محكمًا من الصفعات،ثم قال: «اقبع في مكانك، واخرس.»

فجلست في مكاني، واستندت إلى القائم الخشبي للعربة، ثم ضممت ركبتي إلى صدري، وبكيت بهدوء. لم أستطع تصديق أن أبي وأمي اللذين أحبهما حبًا جمًا يبيعاني هكذا فجأة إلى أحد الغرباء. ولم تكد تمضي فترة وجيزة، حتى انحنت إحدى العجوزين من الناحية الأخرى للعربة

تجاهي، فلمحتها بطرف عيني وهي تخرج يدها من تحت العباءة، وتدس برفق شيئًا ما في جيب قميصي. ولما نظرت داخل جيبي، رأيت أنها قد وضعت في جيبي حبتين من حلوى السكر.

وبعد مضي وقت قصير، فهمت من حوار الرجل الذي يعتمر قبعة فرائية مع سائق العربة أننا كنا في طريقنا إلى مدينة طِهران. وبالنسبة لي لم تكن طهران تعدو عن كونها مجرد اسم لطالما سمعته يتردد على الألسنة. كنت أخال طهران مكانًا بعيدًا قصيًا لا تصل إليه قدم إنسان. فهنالك لا يعيش إلا الشاه فحسب، ولا يمكن لأشخاص مثلنا الذهاب إلى طهران أبدًا، لذا فالذهاب إلى مثل هذا المكان المنعزل كان بالنسبة لي أمرًا مروعًا. ضممت ركبتيّ إلى صدري ووضعت جبهتي على رضفة ركبتي، ثم أغمضت عينيّ، حتى داهمني النوم، وسرعان ما أطبقت جفنيّ. وما جعل الأمر يبدو غريبًا هو أنني مع كل تلك الفوضى التي تسكن قلبي، أخذ النوم يهجم عليّ بهذا الشكل. إذ كان النوم يغلبني بين الحين والآخر، فترتطم رأسي بركبتي، فأستيقظ. وفي آخر الأمر تهالكت على أرضية العربة، واستغرقت في النوم. وعندما استيقظت قبل الغروب بنحو ساعة، أدركت أننا قد بلغنا بوابة مدينة طهران. حيث كانت عربتنا قد اصطفت إلى جوار عربات نقل البضائع الأخرى، وعربات الكالياسكا([15])، والدليجانس([16]) التي تجرها الخيل.

وحتى ذلك الوقت لم أكن قد رأيت عربات الكالياسكا والدليجانس التي تجرها الخيل. لذا فوقتما وقعت عيني عليها، صوبت نظري تجاهها محدقًا في حين كان محصلو رسوم الطريق يعاينون كل عربات نقل البضائع، ونقل الركاب واحدة إثر الأخرى، و يصرحون لها بالدخول. كان اسم طهران من هول هيبته يقع في نفسي موقع خوف، لدرجة أنني لم أفكر بتاتًا في أن أذهب إلى طهران على هذا النحو. ورحت آنذاك أتأمل بوابة المدينة التي كانت بمنزلة مدخل كبير مزود بمدخلين صغيرين على كلا الجانبين يبدوان كما لو أنهما قرطان يزينان أذنيّ وجه كبير مستدير. وكانت هنالك أيضًا منارتان دقيقتان وقصيرتان ترتفعان خلف هذين القرطين. وعلى جانبي البوابة كل على حدة كان ثمة خندق عميق محفور، بحيث لم يكن يستطيع أحد اجتيازه، ولهذا السبب كان على الجميع المرور عبر البوابة الكبيرة فحسب. أما جدران البوابة فقد زُينت بالقيشاني ذي اللونين الأزرق والأحمر المنقوش، وقد رُسم أعلاه صورة للملك الضحاك ماردوش([17]) الذي لم أكن قد رأيته في عمري قط. بدا كرجل قبيح الطلعة يطل من منكبيه حيتان ضخمتان، وقد هالني منظره حد الموت، إذ كنت لا أزال طفلًا صغيرًا. وكلما كانت العربة تتقدم شيئًا فشيئًا في دورها بين صفوف العربات، كنا نقترب أكثر من صورة الضحاك ماردوش.

ولما حان دورنا، أخذ اثنان من المحصلين يعاينان العربة من الداخل، ففتشا صُرَّر أمتعة الرجل الهرم والعجوزين، ثم سألا الرجل الأملس هل يحمل متاعه معه، فأجاب بأنه لا يحمل معه أي شيء. وبعد ذلك استفسر المحصلان عن اسم الرجل الهرم واسم الرجل الأملس، فقدم الرجل الأملس نفسه على أنه يدعي فَرُّوخًا. فأردف أحد المحصلين هل أنا بصحبته، فأجابه نعم، وقال إنني صبي من صبيانه وأعمل لديه في ورشة للنجارة. حينئذٍ قال المحصلان إنه يجب على كل فرد منا أن يدفع قِرانًا([18]) واحدًا رسم الدخول. فطفق فَرُّوخ يفاوضهما على أساس أنني ما زلت طفلًا، من أجل أن يُحصلا منه مبلغًا أقل، غير أن المحصلين رفضا تمامًا. وفي نهاية الأمر دفع فرُّوخ قِرانين، ثم مرت العربة أسفل طاق بوابة الدخول المقوس، وصورة الضحاك ماردوش، ودخلنا مدينة طهران.

كانت مشاهدة طهران بالنسبة لي أمرًا مدهشًا للغاية، إذ لم أكن قد رأيت من قبل مثل هذا

القدر من الناس ذوي الثياب المتنوعة الألوان في أي مكان قط. كنت مفتونًا مبهورًا من رؤية صفوف دكاكين الخضر والفاكهة، والبقالات، وغير ذلك من الدكاكين التي تبيع شتى الأصناف الأخرى من البضائع. وإلى جانبهم كان يصطف هؤلاء الذين يبيعون سلعهم على الحمير، أو على صوانٍ نحاسية مستديرة يضعونها على رؤوسهم وهم يدللون على بضائعهم. وكانت حالة من الصمت قد خيمت عليّ، نسيت معها كل شيء. وراح يتناهى إلى سمعي أصوات هتافات البائعين من كل صوب وحدب، في حين كان الناس رجالًا ونساءً و صغارًا وكبارًا يسيرون إزائهم جيئة وذهابًا، وقد التهوا جميعًا بالشراء. كانت النساء يرتدين الشوادر السوداء المقواة بالتنشية([19]) ويغطين وجوههن بنقب بيضاء اللون. أما الرجال فكانوا يرتدون ثيابًا عليها أقبية ملونة، ويعقدون على خواصرهم أوشحة ذات لون أبيض أو أسود، ويعتمرون قبعات طويلة تتنوع ألوانها ما بين البني والأبيض والأسود، لكنما بياض أحذية الكيوة([20]) التي ينتعلونها كان حقًا لافتًا للنظر.

أما العربة التي دخلت بنا من بوابة باغشاه([21]) فقد مضت بنا حتى البازار، وتوقفت هنالك، فنزل فرُّوخ برفق، وأمرني أيضًا بالنزول. حينها كنت مشدوهًا كما لو أنني في حلم، وفور أن وصلت إلى مقدمة العربة، أسندني، وساعدني على النزول. لما نزلت، بادرني فرُّوخ بصوته الرفيع قائلًا: «أترى كم هي جميلة طهران؟ لتبتهج، لأنك ستعيش هنا من الآن فصاعدًا، شتان ما بين هنا والجحيم الذي كنت تعيش فيه هنالك. لنذهب الآن و نركب الترام الذي تجره الخيل([22]) الذي تشتهر بها طهران، كي تدرك ماذا يعني أن تعيش في مدينة بحجم طهران؟»

بمجرد أن قال: «الجحيم الذي كنت تعيش فيه هنالك.» باغتتني الصدمة واعتصر الحزن قلبي؛ تذكرت حينها مأساتي وحظي العاثر. وهممت بأن ألتمس من فرُّوخ أن يمسك يدي، ويصحبني معه. ولكننا لم نكد نمضي بضع خطوات، حتى أدركت أنه يعرج في مشيته، إذ كانت قدمه اليسرى تبدو وكأنها أقصر من قدمه اليمنى مما جعله يعرج في أثناء سيره. وفي حين كان الجو آخذًا في الإظلام اجتزنا طريقنا بين الحشود، ومررنا بجانب فرش البائعين، حتى وصلنا إلى محطة الترام الذي تجره الخيل. وهناك رأيت حجيرة حديدية سوداء كبيرة، وبدلًا من وجود جدار حولها كانت محاطة من كلتا جانبيها بأعمدة دقيقة، وترتكز على مجموعة من العَجَل يوجد أسفلها، وكان هنالك أيضًا حصانان أسودان فاحمان مربوطان بمقدمة العربة. أمسك فرُّوخ بيدي، ومضي بي قُدمًا نحو العربة. وهنالك دفع عملتين معدنيتين إلى رجل يرتدي معطفًا طويلًا أزرق اللون، ثم أمرني أن أركب. كانت ثمة درجتان حديديتان صغيرتا الحجم، فقال فرُّوخ: «ضع قدمك ها هنا، واركب.»

وطئت تينك الدرجتين، وصعدت إلى العربة. كانت العربة من الداخل مثيرة للدهشة، إذ كان ما يقرب من عشرين شخص كانوا قد جلسوا واحدًا يقفو الآخر على مقاعد مكسوة بالقطيفة الحمراء ذات مساند خلفية. وبمجرد أن صعدنا إلى العربة، طفقوا يحدقون إلينا. قال فرُّوخ: «اجلس هنا أمامًا.» وأشار إلى المقعد الذي كان شاغرًا، فجلست على المقعد، حيث كان وثيرًا ومريحًا. ولما استندت إليه، وجدت أن ظهره كان لينًا ومريحًا هو الآخر. جلس فرُّوخ بجانبي، وقد جلسنا ساكنين، ولم ننبس ببنت شفة. ثم ركب في إثرنا بضعة أشخاص آخرين. ولما لم يعد هنالك مكان متاح للجلوس وقفوا إلى جوارنا. وبعد ذلك صعد إلى العربة الرجل نفسه الذي كان مرتديًا معطفًا طويلًا أزرق اللون، وأضاء السراجين المعلقين في جانبي العربة. وجاء في إثره شخص آخر، وجلس على المقعد الأمامي للعربة، وأمسك بزمام الحصانين، وهتف قائلًا:

«لننطلق الآن.»

ثم من بعد ذلك حرك لجام الحصانين، و بدأت العربة تسير في طريقها. حينئذٍ كان الظلام قد حل، فطفقت أتأمل المشهد من حولي في الدُجى. كانت العربة تتحرك في مرونة ويسر، ولم تكن تهتز بتاتًا، كما لو أنها لم تكن تسير أصلًا. وظلت تقطع طريقها دون أي ارتجاج. ثم فجأة سمعت صوت بوق كان قادمًا من مقدمة العربة، وأتبعه صوت شخص ظل يهتف قائلًا: «افسحوا الطريق، افسحوا الطريق»

قمت من مكاني تلقائيًا، فرأيت الرجل الذي كان قد أمسك بالبوق يركض أمام ترام الخيل، وينفخ في البوق من حين لآخر، ويهتف قائلًا: «ابتعدوا عن الطريق، لئلا تصدمكم العربة. ابتعدوا عن الطريق، لئلا تُدهسوا.» فباتت الناس بالتزامن مع هتافه التحذيري تنتحي جانبًا، وتفسح الطريق ليتقدم الحصانان تتبعهما العربة. ولم يكد يمضي وقت، حتى رأيت في ضوء السراجين خطين حديديين بجانب الطريق كانا يظهران أينما تقدمت العربة، ويلمعان. فيما بعد أدركت أنهما كانا قضيبي السكة الحديدية، وأن عَجل العربة يدور عليهما، وهي تتحرك للأمام. وفي الواقع كان سبب عدم اهتزاز العربة، وحركتها الانسيابية السريعة، هو دوران عجلها على تينك القضيبين نفسهما. لم يستغرق ركوب العربة وقتًا طويلًا، حتى وصلنا بالعربة في حلكة الليل إلى ميدان فسيح زاخر بالأشجار والعشب، حيث كان البائعون وأصحاب المحال في محيطه يمارسون عملهم تحت أضواء المصابيح. وعلى العكس تمامًا من قريتنا التي كانت بمجرد أن يحل الظلام، لا تلمح أثرًا لمخلوق في الأزقة، لم يكن الزحام والضجيج الذي رأيته هنالك في الميدان ليلًا مختلفًا عما شاهدته في وضح النهار، حيث كانت كل الأماكن مُضاءة بمصابيح متنوعة الأحجام بين كبيرة وصغيرة. ومع وصول العربة إلى ذلك الميدان، توقفت، وهتف الرجل نفسه الذي كان يرتدي معطفًا أزرق قائلًا: «ساحة سبزه ميدان([23]).»

حينئذٍ أمسك فرُّوخ بيدي، وأنهضني من مكاني، وقال: «هيا انزل.»

ارتجل هو أولًا، ثم وطئت من بعده الدرجتين الحديديتين، ونزلت. كانت أرضية ساحة سبزه ميدان مرصوفة معبدة، وكانت نظيفة، بحيث لم يكن فيها ذرة غبار واحدة. فانغمست مرة أخرى فيما كنت أشاهده من سحر وجمال، في حين كان فرُّوخ يسحبني من يدي، ويتقدم بي وسط الحشود، حتى خفت وطأة الزحام والضجيج في الأرجاء، وكادت الشوارع تخلو من المارة. كان ثمة صبي في مثل سني تقريبًا يقف عند ناصية أحد الأزقة ممسكًا بسراج منطفئ، فدفع فرُّوخ للصبي عملة معدنية، وقال: «أنره.»

وسرعان ما أنار الصبي السراج، وسار أمامنا. وفي ضوء سراج الصبي اجتزنا تلك الأزقة الضيقة ومنعطفاتها المتفرعة، إلى أن وصلنا إلى باحة مفتوحة. ولاح أمام أعيننا مبنى كبير لم أكن قد رأيت له مثيلًا حتى ذلك الوقت، مبنى أبيض اللون يبدو وكأنه مارد أبيض رابض في ليل دامس. حينئذٍ استدار الفتى الممسك بالسراج من أمام المبنى وغادر. وما لبث فرُّوخ أن قال: «حسنًا، ها قد وصلنا.»

--٤

كانت قصة حياة رضا قُلي ميرزا قد استحوذت على ذهني تمامًا. فمنذ ذلك اليوم الذي أخذت فيه هذه المخطوطات من أبي، وذهبت بها إلى غرفتي كي أقرأها، فكأنني نبذت ما بيدي من أوراق وقد أدخلتني عالمًا لم أعد أستطيع الخروج منه. ورغم أن قصة رضا قلي ميرزا لم يكن فيها ما يستدعي القراءة، ويثير الشغف والانتباه، كان ما جعل الأحداث التي قد تناوبت عليه مثيرة وجذابة بهذا القدر هو خط يد رضا قلي ميرزا الدقيق والمُكسَّر الذي قد سطره على تلك الأوراق الصفراء، أو تلك الكلمات والمصطلحات القديمة فيها والتي لم أفهم معانيها، لكنها لم تكن لتثنيني عن قراءة المخطوطات. فرحت أتفحص كل كلمة فيها من كثب، لأفطن إلى مغزى الكلمات ذات الحروف المعقوفة التي قد خُطت بيد رضا ميرزا، وأشرع في القراءة. وعندما شعرت أن عيني قد بدأتا تؤلماني، تذكرت فجأة العدسة المكبرة التي أهملتها داخل خزانتي، تلك العدسة المكبرة التي كانت أمي قد اشترها لي قبل سنوات حينما كنت أدرس في المرحلة الابتدائية، وكنت لا أزال احتفظ بها داخل صندوق الهدايا التذكارية الخاص بها. فذهبت والتقطت العدسة المكبرة، و قربتها من مخطوطات رضا قلي ميرزا، فألفيت أن قراءتها ستكون أسهل لا سيما هذه الكلمات التي كانت حروفها قد كتبت معقوفة بعض الشيء، أو هاتيك التي كانت قد تداخلت والتبست في آخر كل سطر لعدم توافر مساحة كافية في الورقة، أو تلك التي لم أكن أفقه معناها من الأساس، ولم أستطع قراءتها جيدًا. كما تناولت مجلدين من المعاجم اللغوية التي كانت في المكتبة التي تتوسط غرفة الجلوس في المنزل، ووضعتهما في متناول يدي، حتى أنظر فيهما لاستيضاح معاني الكلمات التي أجهلها. وبعد ذلك رحت أقرأ الكلمات بتأن وتؤدة، بحيث كلما كان يستعصي عليّ معنى لغوي، أبحث عنه في المعجم أمامي. ولكنني لم أكد أحرز تقدمًا في قراءة بضع صفحات، حتى تذكرت أن أبي قد عزم على أن يلصق هذه الأوراق بلوحته الجديدة، وينثر عليها الطلاء الملون، وبتلك الطريقة كانت هذه الأوراق ستُبلى وتتلف، في حين لم أكن أريد أن أفقد مذكرات رضا قلي ميرزا، وتضيع من يدي. وتبعًا لذلك فإن أول شيء جال بفكري هو أن أصور نسخة من تلك الأوراق عبر ماكينة تصوير الورق، لكنما ليلى التي كانت قد باتت هي الأخرى شغوفة بتلك المذكرات أخبرتني أن هذا الأمر ليس مناسبًا، لأنني إن حاولت أن أقرأها مرة أخرى بعد مرور فترة من الوقت، فلا بد أن أمسك العدسة المكبرة لأكابد عناء قراءة تلك الكلمات مجددًا. لذلك اقترحت عليّ أن أنسخ النص كاملًا، أي أن أقرأ الكلمات، ثم أعيد تدوينها بخط يدي مرة ثانية، وبهذه الطريقة أصبحت مخطوطات رضا قلي ميرزا شغلي الشاغل ليل نهار ونوعًا ما ليلى.

لقد باتت ليلى شغوفًا بأمر هذه المخطوطات منذ اليوم الأول، فحينما كنت مستلقيًا على الفراش، وأقلب الأوراق، حينئذٍ وصلت ليلى. سمعت صوتها في البداية قادمًا من غرفة المعيشة، ثم ما لبثت أن تفقدت غرفتي، وقالت ساخرة : «هنيئا لك الراحة، أما نحن طلاب الفنون فعلينا أن نذهب إلى الصف حتى يوم الجمعة، وجناب الأستاذ يستلقي على فراشه هانئ البال. لنبدو في الظاهر وكأننا نحن من ندرس الفن السهل الممتع وجنابه يعاني الأمرين.»

ثم ولجت الغرفة. ولما رأت الأوراق في يدي، قالت: «ما أجملها!... ما تلك الأوراق؟»

فقلت: «لقد أحضرها أبي، ابتاعها من أجل أن يلصقها بلوحته.»

فقالت ليلى: «دعني أراها...»

ومدت ليلى يدها، وقلبت حواف الأوراق تجاهها، حينئذٍ قلت: «انتبهي، لئلا تتمزق.»

فسألتني ليلي مستغربة: «أهذه حقًا أوراق قديمة؟!»

فقلت: «أجل، لقد أوصى أبي أحدهم ليحضرها له.»

فقالت: «وماذا تفعل بها؟»

فقلت: «كنت أقرأها فحسب.»

ألقت على الأوراق نظرة خاطفة، وقالت: «أي شيء هذا؟!»

فقلت: «قد تكون هذه الأوراق سيرة ذاتية أو مذكرات أو ما شابه ذلك، ماذا يمكنني أن أقول؟... ربما تكون قصة.»

قالت ليلى ساخرة: «بالطبع أيها الأستاذ، صحيح أنني منهمكة في عالم الألوان والرسم منذ الصباح، ولكن سألتك بالله، سواء أن ما قرأته كان قصة أم مذكرات، فلا داعي لأن تتحفنا بآرائك.»

ثم جعلت تقلدني، فقالت متهكمة: «ماذا يمكنني أن أقول...ربما تكون قصة.»

فرفعت الأوراق أمام وجهي، وقلت: «أردت أن أجتهد، ليس هنالك ما يستدعي السخرية!»

ثم رحت أبحث عن آخر كلمة كنت قد توقفت في القراءة عندها. لكن ليلى لم تسمح لي بذلك، وراحت تُنزل يدي، وقالت: «أخبرني أي شيء مكتوب؟ أريد أن أعرف.»

فقلت: «إنها مذكرات رجل يزعم أنه قد عاد من عالم الموتى.»

قالت ليلى مندهشة: «أحقًا؟! ومن يكون ذاك الشخص؟»

فقلت: «إنه أمين مكتبة مدرسة دار الفنون.»

فضحكت ليلى وقالت: «يا له من أمر طريف! لا بد أنه كان يعكف هنالك على قراءة كتب تُروى فيها أحداث مرعبة، حتى تملكه الخوف، فأخذ يهلوس.»

فقلت: «لا يبدو من أسلوب كلامه أنه يهلوس.»

فقالت ليلى: «أيعني هذا أنك تعتقد أنه محق فيما يقول؟»

فقلت بصبر نافد: «كنت أقرأ لتوي لأفهم أكان محقًا أم لا.»

فقالت ليلى بامتعاض: «حسنًا، اقرأ... تعتقد الآن أنك قمت بمعجزة في حين لم تقرأ سوى بضع صفحات.»

ثم بدلت نبرة صوتها، وقالت: «لكنه أمر غريب، إن هذه المخطوطات تعود لشخص من العصر القاجاري، هل قلت إنها من العصر القاجاري؟»

فقلت: «أجل.»

فقالت: «شخص ما يدون في ذلك الوقت بنفسه مثل هذه الأمور الخاصة به، واليوم بعد مضي نحو ثلاث مئة سنة... كم مضى على كتابتها؟»

فقلت: «لا أعرف تحديدًا، لكنها قديمة بالفعل؛ لقد قيد أحد التواريخ في بدايتها، غير أنه لم يقيد التاريخ الشمسي([24]). كان أبي يقول إنها ربما تعود إلى نحو مئة وخمسين عامًا.»

وكما لو كانت ليلى تحدث نفسها، قالت: «ألم يعتقد هذا الشخص أنه بعد مضي مئة وخمسين عامًا، سوف يأتي أحدهم ويطلع على مذكراته؟!»

منذ ذلك الحين بدأ اهتمام ليلى بمذكرات رضا قلي ميرزا، وفيما بعد تحدثنا أكثر بشأنها. لقد عكفت ليلى على قراءة المذكرات أيضًا، فكانت أحيانًا تطالع النسخ التي دونتها بخط يدي، وأحيانًا أخرى تطالع النص الأصلي المدون في المخطوطات. وبالنسبة لأبي، فقد كان مندهشًا للغاية لكوننا منجذبين إلى تلك المذكرات على هذا النحو. أحيانًا في أثناء تناول العشاء كنت أنا وليلى نتجاذب معه أطراف الحديث حول رضا قلي ميرزا وقصة حياته، فكان أبي يستمع إلينا بتوقٍ ولهفة. وذات مرة وبعد أن دار نقاش مطول بيننا، صمت أبي فجأة، وأخذ يحدق إلى طبقه، ثم ما لبث أن رفع رأسه، وقال: «لم نتحدث إلى بعضنا بمثل هذه الحميمية منذ وقت طويل.»

وبعد أن احمرَّت عيناه، ولكيلا يجهش أمامنا بالبكاء، قام، وجمع أطباق الطعام الفارغة، وأخذها إلى المطبخ. كان واضحًا للغاية أنه قد تذكر أمي، كما تذكرتها أنا وليلى أيضًا، إذ كنا على وشك الانفجار في البكاء، حتى خرج أبي من المطبخ، وبدأ يتحدث عن لوحته الجديدة بحماس متقد، فأخبرنا أنه قد رسم بعض الرسوم التخطيطية الرائعة، وسوف يعرضها علينا في حينها. ومرة أخرى طلب منا أن نحرص على عدم تمزق الأوراق. وكان هذا الكلام يعني أنه لن يشرع في تنفيذ المرحلة الأخيرة لرسم اللوحة في الوقت الراهن، وسوف أتمكن أنا وليلى من قراءة هذه الأوراق لاحقًا.

كانت قراءة مذكرات رضا قلي ميرزا عدة مرات ونسخها كتابة أمرًا جعلني أشعر بأنني قد كتبت هذه المذكرات بنفسي، فرحت أعبر عن هذه الكلمات وتلك الجمل تلقائيًا بلغتي الخاصة. وفي بعض الأحيان كنت ألغي لا شعوريًا المفردات الصعبة غير المفهومة، وأستبدلها بمعانيها التي قد وجدتها في قاموس المفردات. وراحت مذكرات رضا قلي ميرزا تبدو لي شيئًا فشيئًا وكأنها مذكرات حديثة عصرية، تلك المذكرات التي لطالما آنست قربها من نفسي، كما لو أنها كتبت لتوها مؤخرًا. كانت مشاهد القصة تحتشد أمام ناظري وكأنها فيلم سينمائي، ثم ما تلبث أن تتحول إلى صور محفورة في ذاكرتي، لا يمكنني نسيانها أبدًا. فقصة صبي صغير انفصل بغتة عن والديه، وقدم إلى عالم لم يكن قد اختبره من قبل قط كانت بالنسبة لي مثيرة للغاية، لدرجة أنني لزمت قراءة بعض الأجزاء في المذكرات أكثر من غيرها. مثلًا ذلك الجزء الذي قدم فيه رضا قُلي لأول مرة إلى قصر نُويان خان، إذ كانت ليلته الأولى تلك في ذلك المكان، هي الليلة نفسها التي كان قد وصل فيها بصحبة فَرُّوخ، ودخلا فيها قصر نُويان خان بعد أن تجاوزا معًا تلك الحشود بصخبها في سوق طهران. ولما وصل رضا قلي وفرُّوخ قصرا نُويان خان، فتح فرُّوخ باب القصر من الخارج، وبعد أن اجتاز دهليزًا([25]) مظلمًا صار رضا قلي أخيرًا داخل فناء القصر.

لم تكن ثمة بقعة مضيئة في المكان، كانت هنالك دار كبيرة فحسب، تبدو في حلكة الليل

مخيفة ومَهيبة. وكانت جدران الدار ذات الطلاء الأبيض تجلو للعين في نور القمر تمامًا كالبياض الشاحب لبشرة الموتى. أما تلك الغرف التي كانت تحيط بالدار فبدت معتمة يخيم عليها السكون. ولقد استقر في وسط الفناء حوض([26]) كبير طافح بالماء على صفحته انعكس الهلال منكسرًا، وأضفت الموجات المائية الرقيقة عليه مظهرًا مرعبًا للغاية. بمجرد أن دخلنا الفناء، أفلت فرُّوخ يدي، وما لبث أن تقدم مسرعًا، فأتبعته دون أن أنطق بكلمة. مررنا معًا بجانب الحوض، فنظرت إلى مياه الحوض الداكنة، وفجأة داهمني شعور أن ثمة أشخاصًا يتحركون تحت الماء، فاجتاحني الخوف، وأشحت بنظري عن مياه ذاك الحوض.

كان رضا قلي يجول ببصره في أنحاء المكان، ربما يرى أحدًا، ولكن لم يكن هنالك أحد في أي مكان، بل حتى لم يكن يُسمع أي صوت في الأرجاء. راح فرُّوخ يستحث خطاه، حتى اتجه إلى الدرج في نهاية الفناء، وكان رضا قلي لا يزال أيضًا يمضي في إثره. وبينما كان فرُّوخ يرتقي درجات السلم، شاهد رضا قلي ظل فرُّوخ يمتد إلى جدار الإيوان([27]) في الطابق العلوي. وكلما كانا يرتقيان درجة، يسمعان أصواتًا:

كانت أصواتًا غامضة، كما لو كان عدة أشخاص يتهامسون مع بعضهم، ويضحكون بين الفينة والأخرى. أما فرُّوخ الذي كان يتقدمني فما لبث أن صرخ قائلًا : «أين اختفى هؤلاء الموتى الأوغاد؟»

كان لا يزال يمضي قُدمًا، وأنا في إثره. مررنا أمام عدة غرف، حيث كانت الأصوات ترتفع تدريجيًا، بيد أن صوت أحد الأشخاص مرتفع عن الآخرين، كان ذاك صوت الشخص الذي قال: «ذئب!»

وفي تلك اللحظة عينها، فتح فرُّوخ باب إحدى هذه الغرف.

كان فرُّوخ يقف في إطار الباب، ورضا قلي يقف إلى جواره يقلب النظر في غرفة كبيرة وشبه مظلمة:

كان هنالك عشرون، أو ربما نحو خمسة وعشرين صبيًا قد تحلقوا ملتصقين بغير فراغ بينهم حول مصباح ذي فتيلة.

كان أحد الصبية قد جلس خلف المصباح، وراح يمط أصابعه ويحركها تجاه الضوء المنبعث منه. وبينما كان فرُّوخ يقف صامتًا، وإذ بجمع الصبية يتبلبل عند رؤيته، ويرحبون به جميعًا. بعضهم هم بالقيام من مكانه، وبعضهم الآخر ظل جالسًا ينظر إلى فرُّوخ الذي كان لا يزال بعد واقفًا لدى الباب. استفهم فرُّوخ مستغربًا ماذا تفعلون، فأجابه بعض هؤلاء الصبية قائلين:

«إن رمضان يقدم لنا عرضًا.»

فأردف فرُّوخ: «كفاكم تجمعًا، لقد تأخر الوقت كثيرًا، هيا، اخلدوا إلى النوم.» فقال أحد الصبية اللذين كانوا في الغرفة: «بالله يا سيد فرُّوخ، لا يزال الليل في أوله، دعه يقدم لنا عرضًا آخر.»

وضع فرُّوخ يده خلفي، ودفعني داخل الغرفة، ثم قال: «افسحوا لهذا الصبي مكانًا، ليجلس بينكم.»

وإذما دخلت الغرفة، طفق كل الصبية يحملقون إليّ، ورطن نحو شخصين منهم بكلام مبهم لم

تدركه أذناي لكنني رأيت أن بقية من في الغرفة كانوا يضحكون، فشعرت بالخجل. عندئذٍ هتف فرُّوخ قائلًا: «اجلس يا رضا.»

ثم أردف: «اسمه رضا، علموه أصول هذه الحرفة، ساعدوه ليتعلم طريقة النسج، لا أريد أن أرى أيًا منكم يتشاجر معه، أو يضايقه؛ إنه صبي قروي، ولقد كنتم جميعًا قرويين سُذجًا من قبل، حتى جئتم إلى هنا فأصبحتم بشرًا.»

لزم الصبية كلهم الصمت، حتى إن أحدًا لم ينبس ببنت شفة. أما أنا فقد كنت مشوشًا ولا أزال أقف في مكاني متسمرًا، فهتف بي فرُّوخ: «قلت لك اجلس.»

جلست مرغمًا، وما لبث أحد الصبية أن هتف: «قدم لنا عرضًا، يا رمضان.»

فأعقبه فرُّوخ قائلًا: «بشرط ألا يستغرق الأمر وقتًا طويلًا.»

راح الصبي الذي كان يحرك أصابعه تجاه ضوء المصباح قبل ذاك يستأنف عمله. في أول الأمر لم يكن رضا قلي يفهم شيئًا مما يدور من حوله، ويرى فقط أن رمضان كان ينطق اسم بعض الحيوانات مثل الكلب، والثعلب، والديك، والذئب، ومن بعد ذلك يتنهد الصبية مندهشين، و يضحكون. ولكن لم يكد يمضي وقت طويل، حتى وقعت عيني رضا قلي على الجدار المقابل،ولاحظ أن رمضان كان يشبك أصابعه ببعض، حتى يظهر ظلها على الجدار المقابل على شكل حيوان ما، فيتعجب الصبية عند رؤيته، ويضحكون:

كان في كل مرة يشكِّل بيده المنعكس ظلها على الجدار بطريقة مختلفة صورًا لحيوانات أليفة أو برية، مما جعل الصبية الموجودين في الغرفة يحارون، ويطلقون الصرخات تباعًا من فرط ذهولهم. وواصل الأمر على هذا المنوال، حتى ما لبث أن شكَّل على الجدار بيده صورة فوضوية غير محددة المعالم، بقامة طويلة، ورأس ضخم، ويدين عريضتين طويلتين. حينئذٍ قال بصوت مبحوح ومخيف: «جني.»

ومع سماع الصبية اسم الجن، ورؤيتهم للصورة الخيالية التي كان رمضان قد صنعها من وحيه، هاجوا وماجوا، وطفقوا يولولون فيما بينهم ويصرخون، وحينئذٍ:

قال صبي منهم كان حليق الرأس و يُرى على جبهته أثر جرح قديم لفرُّوخ: «يا سيد فرُّوخ، ارو لنا حكاية الجن.»

وكان رد فرُّوخ بأن أنغض رأسه وهز كتفيه مستهجنًا، ثم قال: «أيها التنابل، اذهبوا، لتنطرحوا في أماكنكم، لكيلا تلتصقوا بالأرض كالجثث الهامدة عند الاستيقاظ في الصباح.»

لكن هذا الصبي إلى جانب الصبية الآخرين راحوا يلحون، ويستحلفون فرُّوخًا، ليروي لهم حكايته. فقبل فرُّوخ بشرط أن يخلدوا جميعًا إلى النوم بعد أن يروي لهم الحكاية.

جلس فرُّوخ بهدوء بجانب إطار الباب، وقال: «لا أعرف أكان هذا قبل خمس سنوات أم يزيد، في صباح باكر من أحد الأيام، في وقت كان الجو لا يزال مظلمًا، حزمت أغراض الحمام، وأخذتها، وسلكت طريقي إلى حمام نواب.([28]) لكنني عندما دخلت من باب الحمام، لم أر هنالك أي حمام، أي لم يكن أحد فيه. فقلت في سريرتي ربما نُقل الحمام إلى مكان آخر، لكنني ما لبثت أن سمعت صوت تدفق ماء قادمًا من الأحواض المائية الصغيرة في حجرة خلع

الملابس. فقلت في سريرتي يبدو إذن أن الحمام كما هو في مكانه، والأمور تسير على ما يرام. خلعت ملابسي، ولففت مئزري حول خصري، ودخلت الحمام. ولما ولجت نحو الداخل، رأيت شخصين قد توقفا وسط الحمام المظلم، وأخذا يتجادلان مع بعضهما، أحدهما كان يقول للآخر أنا أطول منك قامة، وذلك الآخر يرد قائلًا كلا إنني أنا الأطول. جل ما أردته حينها أن أتجاوزهما، وأجلس على المصطبة، لأغتسل. بيد أن أحدهما قال إنني سوف أسأل حتى هذا الرجل، ثم أشار إلي، فقال الآخر أيضًا وإنني سأقبل بأي شيء يقول.

حينئذٍ توقفت وتأملتهما، إذ لم يكن وجهاهما يبدوان في ظلمة حمام، لكنهما كانا أصلعين، وأملسين لا ينبت فيهما أي شعر على الإطلاق، كما لم يكن لديهما حواجب، وكانا نحيفين وضعيفين كذلك. قال أولهما أيها الفتوة، قل الحقيقة أينا أطول من الآخر أنا أم هذا؟فلم أكد أفتح فمي لأجيبه، حتى قال ثانيهما اصدق القول أي واحد فينا أطول من الآخر أنا من هذا؟ ثم وضع يده على صدري ودفعني إلى الوراء قليلًا، وقال ارجع قليلًا إلى الخلف، كي ترى جيدًا. كانت يده ثقيلة للغاية، وتزامنًا مع دفعته الصغيرة تلك عدت لا إراديًا نحو ثلاث أو أربع خطوات إلى الوراء. وبعد ذلك طفقت أنظر إلى كلاهما. بدا لي في أول الأمر أن هذا الرجل الذي كان واقفًا عن يميني أطول بمقدار شبر واحد عن ذاك، فأشرت إلى جهة اليمين وقلت هذا أطول، فاستاء الرجل الثاني، وما لبث أن قال انظر جيدًا، لا تكذب. لم أكد أمعن النظر مرة أخرى، حتى فوجئت برؤية الرجل الثاني الذي يقف عن يساري يبدو وكأنه أطول بنحو شبرين من الرجل الأول. فقلت إن هذا لأمر عُجاب! يبدو أنني أخطأت، لأن الحمام مظلمٌ، فلم أر بوضوح، وأشرت إلى الرجل الثاني، وقلت أنت أكثر منه طولًا. هذه المرة استشاط الرجل الأول غضبًا وقال دعك من هذا الهراء، انظر مباشرة هكذا لترى أينا أطول قامة.

أما هذه المرة فقد فنجلت عيني، وأمعنت النظر أكثر، فوجدت أنه كان محقًا، وإنني قد أخطأت أيضًا مرة أخرى، إذ كان الرجل الأول أطول من الثاني، حينها أشرت إلى أولهما وقلت بل إن هذا أطول. لم أكد أقول هذا، حتى صرخ ثانيهما وقال لا أدري هل أنت أعمى، انظر جيدًا، ترَ أنني أنا الأطول. فلما رأيت أنه محق، وأنه قد صار بالفعل أطول بمقدار بضعة أشبار، تملكني الخوف. ووقتما هممت لأن أقول شيئًا، رأيت أن الرجل الأول قد ازداد طولًا مرة أخرى ليصير أطول قامة من الثاني، فشعرت بالفزع الشديد، وانعقد لساني. وبعد ذلك ازداد الرجل الثاني طولًا، وتسامق هو الآخر. ثم من بعدها الأول فالثاني على هذا النحو في الارتفاع حتى بلغت رأساهما سقف الحمام المقوس. وهنالك بالأعلى شرع كلاهما في الضحك، فخفضت رأسي للحظة، ونظرت إلى أقدامهما، فرأيت أنها ذات حوافر. عندئذٍ أدركت أنهما ليسا ببشر، وأنهما من معشر الجن. حاولت أن أقول بسم الله، غير أن لساني كان قد انعقد من شدة الخوف. وسرعان ما استدرت، وركضت، لأخرج من الحمام. ومن شدة الخوف ارتديت ملابسي خارج الحمام، وعدت على الفور إلى البيت، غير أنني لم أكد أصل إلى المنزل، حتى ألفيت أذان الفجر يصدح، ففطنت إلى أن خطأي هو أنني قد ذهبت إلى الحمام قبيل أذان الفجر، ولهذا السبب حل بي هذا البلاء.»

ولما فرغ فرُّوخ من رواية قصته، سأله أحد الصبية قائلًا: «ألا يجب أن يذهب المرء منا إلى الحمام قبل أذان الفجر؟»

فأجابه فرُّوخ: «بلى، فدائمًا ما يختلي الجن بالحمامات قبل أذان الفجر، حيث هنالك جن يعقدون حفل زفاف، أو يقيمون مراسم العزاء، أو يقيمون حفلة، أو يغتسلون. فإذا ما أخطأ شخص وذهب إلى الحمام قبل أذان الفجر، فربما يصيبونه بأذى، كأن يلفحونه بالنار، لا أعرف

ربما يدفعون به إلى الجنون، خلاصة القول سوف يصيبونه بشتى صنوف الأذى.»

لم يكد ينتهي حديث فرُّوخ، حتى أطرق الصبية، كما لو أن على رؤوسهم الطير وبدا أن الخوف قد تملكهم جميعًا. ثم بغتة تناهى إلى الأسماع صوت ما من داخل جدار الغرفة، الجدار نفسه الذي كان رمضان يعرض عليه رسوم الظل:

كان يبدو كما لو أن شخصًا ما يرتطم بالجدار. كان الطرق في أول الأمر مرتان ثم أكثر، حيث كان صوت دق الجدار يتكرر عدة مرات، في إثره صوت خشخشة. كما لو أن شخصًا ما قد أنشب أظفاره في الجدار وأخذ يحكها فيه. كان صوتًا باردًا، ومخيفًا، ومفزعًا للغاية يجعلك تخال أن أحدًا محشورًا في الجدار، لكنه يحاول جاهدًا الخروج منه.

وتزامنًا مع سماع الأصوات القادمة من داخل الجدار، فزع الصبية، وفزوا جميعًا من أماكنهم مذعورين. كانت تلك المرة الأولى التي يشاهد فيها رضا قُلي الوجوه النحيلة والشاحبة للصبية الذين يسكنون دار نُويان خان لنسج السجاد:

كانوا جميعًا نحفاء، بعضهم حليق الرأس، والآخر بشعر قصير أشعث. يُرى على وجهوهم كثير من الندوب، والحبوب، والبثور. وكان كل هؤلاء الخائفين، يهرعون إلى الخروج من الغرفة.

لقد تدافعوا تلقائيًا نحو الباب، لدرجة أنني انحرفت عن إطاره، ورحت أطالع وجوههم. كما أنهم في أثناء خروجهم راحوا ينظرون إليّ، وكأنهم أرادوا أن يستوضحوا كيف يبدو شكلي. وعند خروج الصبية، أوقف فرُّوخ صبيًا ذا قامة قصيرة عريض المنكبين، وأوصاه قائلًا: «اصطحب معك هذا الفتى، ووفر له مكانًا لينام فيه. إنه لم يأكل أيضًا، فانظر إذا كان هنالك شيء في المطبخ، وقدمه له، ليسد به رمقه.»

ثم وضع يده خلف ظهري، وقال: «امض الآن مع هذا الصبي، إلى أن أخبرك غدًا ماذا ستفعل.»

كان اسم ذلك الصبي شكورًا. كان قصير القامة وعريض الكتفين وذا جسد قوي مفتول، ووفقًا لوصف رضا قلي ميرزا له:

كان وجهه مستديرًا، ورأسه حليقًا. وكانت عيناه سوداوين نجلاوين، وتلمعان بطريقة توحي إليك أبدًا بأنه قد بكى للتو.

اصطحب شكور رضا قلي معه إلى أسفل، حيث الفناء المجاور للمطبخ، ثم التمس منه أن يجلس على مصطبة السلم، وينتظره. جلس رضا، وطفق يتأمل مياه الحوض الداكنة اللجية التي كانت تعلوها بعض المويجات ترتعش تحت نور القمر، وتلوح من داخلها أشكال عجيبة وغريبة. ولم تكد تمضي فترة من الوقت، حتى عاد شكور وقد جلب معه قطعة من الخبز وبعض الزبدة.

قال إن هذه الزبدة من بقايا طعام نُويان خان التي قد وجدها في المطبخ. وفي الوقت الذي لم أكن قد تناولت الزبد إلا مرة أو مرتين طوال حياتي، قال لي كُل، حتى نذهب وأريك مهجعك.

دهنت الخبز بالزبدة، وتناولته، كان شهيًا للغاية. أما الزبدة التي قد ملستها عليه، فقد كانت مثلها مثل الخبز الذي لم أكن قد تناولته في حياتي أيضًا. كان خبزنا يصنع من الكمية المتوافرة من الطحين الذي يُخلط بالنخالة والتراب ونشارة الخشب، ثم يُعجن جيدًا، ويُخبز في الفرن. أما خبز طهران فقد كان خبزًا آخر؛ كان طريًا ولينًا بجانب أنه شهي. هكذا تناولت الخبز والزبدة

على مهل. وفي أثناء تناولي الطعام، كان شكور قد ارتقى السور الرفيع الخفيض الذي يحيط بالحوض وقد فتح ذراعيه على مصراعيهما، وأنشأ يسير بحذر على حافة الحوض. لكنني لم أكد أتناول بضع لقميات، حتى فجأة شعرت بشيء يتحرك وسط معدتي، شيء مثل مسمار أو شفرة سكين يفترش في معدتي كلها. هكذا استشرى الألم الحاد في معدتي، ثم انتقل عبر حلقي إلى فمي، وعلقت اللقمة التي قد ابتلعتها في المنتصف. انحبست أنفاسي، واغرورقت عيني بالدموع، وكدت أختنق، فضغطت على حلقي، لكي أتمكن من التنفس. وضغطت بما أوتيت من قوة، وإذ فجأة انطلق من حنجرتي صوت يشبه صرخة مدوية هكذا دفعة واحدة، تقيأت عقبها مباشرة كل ما كنت قد تناولته، فاستفرغت على قميصي وبنطالي. وبمجرد أن التقطت أنفاسي، انفجرت في بكاء مرير من أعماق قلبي، وبكيت بصوت عالٍ. فقفز شكور من حافة الحوض، و توجه صوبي مباشرة. وما لبث أن وضع يديه على كتفي، وسألني: «ماذا دهاك؟»

فأخذت أتأوه باكيًا: «أريد أمي، أريد أبي.»

ربت شكور على كتفيّ، وقال: «لا تبك... لا تبك. »

لكنني كنت لا أنفك عن البكاء. فجلس شكور إلى جواري، وطوق كتفيّ بيده، وقال: «لا تبك... لا تبك... سوف تعتاد الأمر، جميع من هنا مثلك... لا تبك.»

لكنني تأوهت مرة أخرى: «أريد العودة إلى بيتي... »

فربت شكور على كتفي مرة أخرى، وقال: «لا تبك. »

وحينئذٍ تناهى إلى سمعي صوت فرُّوخ من أعلى الدرج وهو يصرخ: «اخرس... كفاك صياحًا.»

وبمجرد أن سمعت فرُّوخًا، صرعني صوته، وعلى الفور خفضت من حدة بكائي. أسندني شكور، وساعدني على القيام من المكان، وذهبنا إلى الحوض. وفي مكان هناك أخذ حفنة من الماء من داخل دلو ملأى، وغسل وجهي. وعندما انسكب الماء على وجهي، شعرت بحال أفضل، وزفرت تنهيدة ارتجف لها كل جسدي، ومن بعد ذلك شعرت أخيرًا بالخفة. نظف شكور بماء الدلو آثار القيء العالقة بثيابي. غير أنني لما تفحصت ثيابه، وجدت أنها قد اتسخت هي الأخرى وتلطخت من جراء احتكاكه بي. لذلك ففور أن انتهى شكور من أمر ثيابي، راح ينظف ثيابه أيضًا. ثم من بعد ذلك أسندني مرة ثانية، وأعادني إلى المكان الأول على الدرج. وهناك برك على ركبتيه إزائي، وقال: «الكل هنا بمجرد أن يقدم إلى هذا المكان يثقل الهم قلبه، ويغالب شعوره بالحنين، لكن بعد مرور فترة من الوقت ما يلبث أن يألف الأمر، ويهدأ روعه.»

ثم سألني: «ما اسمك؟»

فقلت: «رضا.»

فقال: «متى احتجت شيئًا، أخبرني يا رضا.»

لم أقل شيئًا، ومرة ثانية قال شكور: «اتفقنا؟... لقد جئت أنا إلى هنا قبل الجميع... اتفقنا؟»

فأومأت له رأسي بالموافقة، وقلت: «اتفقنا.»

فقال شكور: «جيد، علينا الآن أن نعود إلى الطابق العلوي لننام، لئلا يستشيط فرُّوخ غضبًا، حسنًا؟»

فهززت رأسي موافقًا، وقلت: «حسنًا.»

أردف شكور: «كلنا ننام في الطابق العلوي في الغرفة الكبيرة في الإيوان ذات النوافذ الخمس([29]). وفي الصباح الباكر، قبل أن تشرق الشمس يجب أن نستيقظ، ونمضي في إثر عملنا. أما إذا ظل أحدنا نائمًا، فسوف يعاقب على ما اقترفه بالعصا والفلقة. هل فهمت؟ لذلك عدما تسمع راضيًا يهتف قائلًا قم، عليك أن تنهض من نومك فورًا، وإلا فسوف ينهال عليك ضربًا بالسوط.»

فهمست إليه: «ومن راضي هذا؟»

فقال: «كبيرنا، إنه عامل مثل بقية العمال هنا، ولكن لأنه يكبرنا جميعًا سنًا، ولأنه حاد ومُتسلط، صار كبيرنا. إنه ليس هنا الليلة، لقد ذهب إلى بيت نُويان خان ليعتني بجياده، وسوف يصل قبل طلوع الشمس. يجب أن تنصت إلى ما يقول وتنفذ أوامره، وإلا فإن العصا، والفلقة والحبس، والجوع في انتظارك. هل فهمت؟»

فقلت: «أجل.»

صعدنا السلم معًا، ودخلنا الإيوان. لم يكن فرُوخ هناك، فتقدمنا وولجنا غرفة كبيرة. كانت غرفة مظلمة، و لم يكن يضيء هذا الفضاء إلا نور القمر الذي كان يشع عبر النافذة. كانت أرضية الغرفة تزدحم بالصبية من كل حدب، وكان كل واحد منهم يلف نفسه في بساط من الصوف، وكانوا جميعًا مستغرقين في النوم. طلب مني شكور أن أقف منتظرًا بجانب الباب، ثم بعد ذلك توجه صوب نهاية الغرفة، وهنالك أزاح ستار المخزن، وعما قليل عاد ومعه بساطان قديمان من الصوف، أعطاني واحدًا، وأخذ واحدًا لنفسه. همس إلي بطريقة بدت وكأنه لا يريد أن يوقظ أحدًا بصوته، كي نتقدم. فمشينا، حتى وصلنا إلى مكان ما عند أحد الجدران، حينئذٍ قال شكور: «نم هنا.»

فرشت البساط، ثم فركت عيني، وتمددت مستسلمًا إلى جانب الجدار، كما تمدد شكور بجواري أيضًا. تغطيت بالبساط. وحينما هممت بأن أمده إلى صدري، اعترض يدي بروز في جيب قميصي، فدسست يدي في جيبي وأخرجت ذلك الشيء الذي كنت قد لمسته، كانتا حبتي حلوى السكر، الحبتين نفسهما اللتين وضعتهما عجوز العربة داخل جيبي. فوضعت واحدة في فمي، وأطبقت راحة يدي على الأخرى. ويكأن المذاق الحلو للسكر كان يغسل ملوحة الدموع العالقة بشفتي وفمي. عندما رآني شكور أتناول شيئًا، سألني: «ماذا تأكل؟»

فقلت: «حلوى السكر.»

وأعطيته حبة الحلوى التي كنت مطبقًا عليها، ليتناولها.

٥--

كانت الليلة الأولى التي قضيتها في قصر نُويان خان ليلة غريبة حقًا. فمن ناحية كانت مأساة بُعدي وانقطاعي عن بيتي ووالديّ وأُختيّ تحز في نفسي، ومن ناحية أخرى كان مجرد تصور قسوة والديّ وأنهما هكذا فجأة ومن دون أي مقدمات قد باعاني، أنا ولدهما الذي طالما أحببتهما من صميم فؤادي، للغرباء أبد الدهر مقابل خمسة تومانات كان يثير فيّ كوامن الحزن والشجن. هكذا أمسى الألم يعتصر قلبي، ومن فرط الدموع الساكنة في الأحداق باتت عيناي رطبتين من لحظة لأخرى. ولكن بجانب كل هذا الغم والحزن والمعاناة الشديدة التي كابدتها كانت محبة شكور قد رسخت في قلبي، يكفي أنه قد أحضر لي الطعام الذي لم أكن قد أكلته بعد. وعندما داهمتني حالة من الاضطراب والقلق من فرط ما جاشت به نفسي من أحزان، راح هو بمنتهى العطف والمحبة يسند رأسي إلى كتفه، ويخبرني أنه بجانبي.

كانت مأساة البعد والانقطاع عن بيتي وأسرتي، مثلما كان الخوف والقلق مما هو قادم، هو ما سلب من عيني النوم تلك الليلة. لم أكن أدري بعد أي شيء ينتظرني في هذا القصر، كما لم أكن أعرف كيف سأعيش من الآن فصاعدًا، وما الذي يتوقعه مني أولئك الذين قد اشتروني. ومع هجوم هذه الأفكار المزعجة ظللت حتى قرب الفجر أتقلب تحت هذا الفراش البالي القديم الذي قد لففت نفسي فيه، وداهمتني سلسلة من الكوابيس المضطربة. ولم أكد أغرق في نوم هادئ قبيل بزوغ الصباح، حتى أيقظني صوت نهوض الصبية و تحركهم وصخبهم. مع ذلك كانت عيناي لا تنفكان تنعسان، وجفناي مغمضين، وبقيت جاثمًا على الأرض. لقد أنهكني عناء الطريق أمس، والضغوط الشديدة التي كابدتها إلى حد عدم القدرة على النهوض عن الأرض. وفي حين ظلت كلمات من قبيل هيا، تحرك، قم، أسرِع، عجّل، ترن في أذني، لم أكن أستطيع إلى النهوض سبيلًا. إلى أن شعرت برفسة محكمة مسددة إلى جنبي، ضربة نشرت الألم المبرح في أنحاء جسدي، فرحت أتأوه لا إراديًا، وهببت من رقادي فزعًا. استغرق الأمر مني بعض الوقت لأتذكر أنني في دار غريبة، وأنني بعيد كل البعد عن بيتي. تطلعت فوقي، فرأيت فتى رشيقًا كالغُصَيْن في القوام طويل القامة، وبشعر أصفر ذهبي وحالما كان يهز وجهه كانت بعض الشعرات الذهبية تغطيه كان قد وقف على رأسي([30]). وبمجرد أن نظرت إليه، أخذ يوبخني قائلًا: «انهض أيها الحمار، ألا تسمع أيها الأطرش؟! انهض لئلا أحدِثَ لك عاهة مستديمة.»

نهضت على الفور. وبينما كنت مرتبكًا مبهوتًا ولا يزال جنبي يؤلمني من أثر ركلته، انطلقت لأخرج برفقة الصبية الذين كان يهمون بمغادرة الغرفة. بيد أن هذا الفتى فارع الطول النحيف ضربني على كتفي، وقال: «إلى أين؟ رتب الفراش.»

وأشار إلى البساط الذي كنت قد تغطيت به ليلًا. فانحنيت، وتناولت البساط، وطويته. لكنني بقيت واقفًا في مكاني حائرًا أين يجب أن أضعه، حتى ضرب الفتى صدري بظهر يده، وأشار إلى المخزن في نهاية الغرفة. وبينما رفع يده، رأيت سوطه الجلدي الرفيع الذي كان قد لفه حول أصابعه، ثم قال بحدة: «خذه وضعه هناك، أسرع.»

هرعت سريعًا إلى نهاية الغرفة، ووضعت البساط على البُسط الأخرى التي كان الصبية قد رتبوها بعضها يعلو بعضًا. وبعد ذلك عدت تجاه باب الغرفة، حيث كان الفتى الفارع الطول، الذي خمنت أنه لا بد أنه هو نفسه راضي الذي كان شكور قد تحدث عنه ليلة أمس لا يزال واقفًا

وسط الغرفة. وعندما حاولت أن أتجاوزه وأمضي، هتف بي قائلًا: «انتظر.»

سألني: «هل قدمت إلى هنا ليلة أمس؟»

فقلت: «نعم.»

فقال: «عندما آمرك بشيء، تنفذه فورًا. إن قلت اجلس تجلس، إن قلت قم تقم، إن قلت مت تمت.... هل فهمت؟»

فقلت: «نعم.»

ثم أردف: «وإن اقترفت أي ذنب كان، فسوف أمزقك إربًا إربًا.»

ومع تحريك يده، فك السوط الملفوف حول أصابعه، ولاح به في الهواء أمامي، ثم قال: «هل فهمت ما قلته؟»

وبصوت مرتعش من شدة الخوف، أجبته قائلًا: «أجل»

فقال: «ستكون تلك المرة الأخيرة التي لا تستيقظ فيها فجرًا.»

فقلت: «أمرك، سيدي.»

فقال: «الآن انزل إلى الآخرين.»

فقلت: «أمرك.»

وسرعان ما ركضت، حتى خرجت من الغرفة. كان جسدي كله قد صار محمومًا من شدة الخوف. نظرت حولي، حيث لم يكن ثمة أحد في الإيوان، فلبث عليّ الأمر، ولم أعد أدري إلى أي مكان يجب أن أذهب. مكثت مبهوتًا هكذا، وتملكني الخوف من أن يباغتني راضي من خلفي، حتى اتجهت إلى السلم، ورأيت هنالك من الأعلى بعض الصبية في زاوية الفناء كانوا مصطفين أمام المرحاض، في حين كان البعض الآخر منهم يشطف وجهه بمياه الدلو الكبير الذي كان بجانب الجدار. حينئذٍ هبط الدرج على عجل. ومخافة أن يستغرق الأمر وقتًا طويلًا، فوَّت على نفسي فرصة الذهاب إلى المرحاض، فتناولت ملء كف من ماء الدلو غسلت به وجهي، وبعد ذلك مباشرة ارتقيت السلم مرة أخرى في إثر الصبية الذين كانوا قد غسلوا وجوههم. ولما دخلت الإيوان، رأيت أن هؤلاء الصبية يلجون غرفة أبعد من تلك التي قد نمت فيها ليلة أمس، فتوجهت نحو الغرفة برفقة الصبية. وبمجرد أن دخلت فهمت أنها كانت الغرفة ذاتها التي قد تجمع فيها الصبية الليلة الماضية، ليشاهدوا عروض رسوم الظل التي كان رمضان يقدمها لهم بيديه. كانت ثمة مائدة كبيرة للطعام قد بُسطت على الأرض، وقد جلس الصبية حولها. دعاني شكور من بين الصبية، وطلب مني أن أتقدم لأجلس بجانبه، فغمرتني السعادة لأنه كان لا يزال يتذكر اسمي، ويوليني اهتمامًا. وعلى الفور ذهبت وجلست بجانبه إزاء المائدة. ولكني عندما جلست انتبهت إلى أن كل الصبية حول سفرة الطعام يحملقون إليّ، فداخلني الخجل الشديد، ونكست رأسي، إذ كان بوسعي أن أفهم دون أن أنظر أنهم يتهامسون في آذان بعضهم، ومن آن لآخر يضحكون ملء أشداقهم. لكن لم يكد يمضي وقت طويل حتى قال الصبي الأصلع ذو الوجه المبثور الذي كان قد جلس قبالتي من الناحية الأخرى للمائدة: «أنت، ما اسمك؟»

فما هممت أن أجيبه، حتى ابتدرني شكور بالإجابة، وقال: «اسمه رضا.»

هكذا بدأ الهمس والثرثرة مرة أخرى. سألني ذاك الصبي الذي يجلس إزائي: «هل أنت أجير؟»

لم أدر بم يجب عليّ أن أجيب، إذ إنني لم أفهم أصلًا معنى سؤاله، فطأطأت رأسي خجلًا مرة ثانية. وكما لو أن شكورًا أراد أن يغير موضوع الحديث، قال: «من أين أنت، يا رضا؟»

فقلت: «من قرية سلطان آباد، مدينة ساوة.»

ومرة أخرى سألني ذاك الصبي الذي يجلس إزائي: «هل أنت تركي؟»

فقلت: «كلا، إنني فارسي.»

فأردف متسائلًا: «هل أنت مَبيِع؟»

وحالما رفعت رأسي لأقول شيئًا، دخل فجأة من الباب صبيان، كان أحدها يحمل بكلتا يديه الكثير من أرغفة الخبز، والآخر يحمل بإحدى يديه صحنًا صغيرًا مملوءًا بالجبن، وممسكًا باليد الأخرى جرة ماء. وتزامنًا مع مجيئهما، ارتفع ضجيج الصبية حول المائدة. أما هذا الذي كان يحمل الخبز فقد مشى وسط المائدة، وطفق يضع أرغفة الخبز أمام الصبية بالترتيب واحدًا فواحدًا. وأما الآخر فترك أولًا جرة الماء في منتصف المائدة، ثم ما لبث أن وضع قطع الجبن الصغيرة على الأرغفة تباعًا. كما قدم لي أنا وشكور الخبز والجبن. حينئذٍ أشار شكور إلى الخبز، وقال: «كل بسرعة، يجب أن نمضي إلى العمل.»

اقتطعت بشهية قطعة من رغيف الخبز ووضعتها في فمي مغموسة بالجبن. في أثناء تناول الطعام همس شكور في أذني، وقال: «إن إسماعيل هذا شخص فضولي، دعك منه. فجميع من هنا إما أجير أو مَبيع. وبحكم أنه أُتخذ أجيرًا للعمل هنا راح يعتقد أنه أعلى مقامًا من الآخرين.»

ابتلعت لقمتي، وسألت شكور: «وأنت ماذا تكون؟»

فقال شكور: «لا أدري. منذ أن فتحت عيني على الدنيا، وأنا هنا. تارة يقولون إنني كنت معروضًا للبيع فابتاعوني، وتارة أخرى يزعمون أنهم وجدوني ملقى بجانب الطريق. لا أحد يعرف الحقيقة.»

تناولت لقمة بعد، ووضعتها بفمي، ومرة أخرى تذوقت نكهة الخبز والجبن. غير أنني لم أكد أبتلع اللقمة الثانية، حتى شعرت بألم في معدتي، كان ألمًا حادًا يلف معدتي من جنبي إلى جنبي الآخر، وأفقدني لذة الاستمتاع بتناول وجبتي من الخبز والجبن. لكنني رغم ذاك تجاهلت وجوده، وقضمت لقمة أخرى، فصارت تقلصات معدتي تشتد. أدركت حينئذٍ أن السبب في ذلك يعود إلى الطعام الذي قد تناولته ليلة أمس. فبالنسبة لشخص مثلي معدته فارغة على الدوام لم يكن يملؤها بين الحين والآخر سوى ببضع لقيمات خبز أو بشيء يسير من الخضر والبقل، فإن الخبز والزبدة يعدان طعامًا ثقيلًا، ولهذا فإن دسامة الزبدة كانت هي ما قد هيجت معدتي، فانتابتني تلك الآلام والتقلصات مع تناول الخبز والجبن صباحًا. توقفت عن تناول الطعام، ونظرت حولي، فرأيت أن الصبية لا يكادون يفرغون من تناول أرغفتهم واحدًا واحدًا، حتى يتناولوا جرة الماء من وسط المائدة، ويتجرعوا الماء وإنه لينسكب علي جانبي أفواههم. هكذا احتشدوا تدريجيًا حول جرة الماء، إذ كان الجميع ينتظر أن يحين دوره، ليتجرع بعض الماء. كذلك فإنني طويت ما تبقى من خبزي ووضعته في جيبي، وذهبت إلى حيث جرة الماء منتظرًا أن يأتي دوري أنا الآخر. وإذ براضي وقتئذٍ يغشى الغرفة، وفي أثناء تلويحه بسوطه، أنشأ يقول: «هيا

إلى العمل، أسرعوا.»

فتركوا جميعًا على الفور المائدة وجرة الماء، وتدافعوا ناحية الباب. وفي الوقت نفسه كان الصبيان اللذان قد أحضرا الخبز والجبن يقومان بجمع المائدة. لقد تخليت أيضًا عن فكرة تجرع الماء، وخوفًا من أن ينهال عليّ سوط راضي دسست نفسي وسط حشد الصبية المهرولين نحو الخارج. غير أن راضيًا دعاني من خلفي قائلًا: «ألست الصبي الغريب؟ انتظر.»

استدرت، ونظرت إليه، فقال راضي: «بلى... انتظر أنت.»

توقفت، حتى انصرف الصبية من حولي. حينئذٍ تقدم راضي نحو الباب، ودعا شكورًا، فما كانت إلا لحظات حتى عاد شكور ووقف عند الباب. أشار راضي بيده التي كان السوط ملتفًا حولها إليّ، وقال لشكور: «هذا الصبي موكل أمره إليك. يجب أن يتعلم أصول هذه الحرفة خلال ثلاثة أيام، وإلا فسوف أمرغ أنفك بالتراب.»

فقال شكور مستغربًا: «وماذا بشأن غلام علي؟»

فقال راضي: «سوف أرسله ليعمل على أي نول آخر، يمكنه الآن أن يعمل بمفرده.»

نظر شكور إليّ، وقال: «لنذهب الآن.»

ثم عقب راضي مؤازرًا له، والتفت إلي قائلًا: «أي شيء يطلبه منك تنفذه. انتبه جيدًا، يجب أن تتقن الحرفة خلال ثلاثة أيام. نُويان خان لا يمنح أحدًا خبزًا بالمجان.»

فقلت بدافع الخوف أمرك، ومضيت خلف شكور. مررنا أمام بضعة غرف، وفي أثناء مرورنا، استرقت النظر إلى داخل بعض هذه الغرف، إذ كان قد نُصب في بعضها نحو ثلاثة أنوال صغيرة الحجم تستخدم لنسج السجاد يجلس أسفل كل نول منها نحو صبيين، وكانوا جميعًا منهمكين في العمل. كما رأيت في غرفتين أخريين أنوالًا كبيرة يجلس أسفلها عدد من الصبية. وكان يبلغ أسماعنا صوت يتردد في الغرف الكبيرة لأحد من الصبية يفسر ويشرح للبقية الرسمة التخطيطية للسجاد، لينسجوا السجاد وفقًا لها. عندما رآني شكور أراقب ما يحدث داخل الغرف من كثب أمسكني من يدي، وسار بي قائلًا: «هيا أسرع، إن رآنا راضي من خلفنا ونحن نتلكأ في مشيتنا، فسوف يجلدنا بالسوط.»

مضينا إلى نهاية الإيوان. وبعد أن نزلنا السلم ولجنا إلى غرفة كبيرة تقع تحت السلم في زاوية الفناء ومثلثة الشكل تقريبًا. كان هنالك نولان في طرفي الغرفة على حدة، أسفل أحدهما كان قد جلس صبيان كانت ملامحهما متشابهة وفي العمر نفسه تقريبًا، أما خلف النول الآخر فكان قد جلس أسفله صبي صغير حليق الرأس يضع على رأسه طاقية صغيرة بيضاء، ويعمل بمفرده. اتجه شكور إلى هذا الصبي الذي يعمل وحده، والتفت إليه قائلًا: «اصعد فوقًا يا غلام علي، واذهب إلى راضي. لقد أخبرني أنك منذ اليوم ستعمل بمفردك. هيا أسرع.»

ودون أن ينطق بكلمة أسرع غلام علي بالنزول عن الدكة الخشبية أمام النول، وغادر الغرفة. عندئذٍ قال لي شكور: «اخلع حذاءك، وأقبل لتجلس على الدكة.»

خلعت حذاء الكيوة الذي أنتعل، ووضعته على بساط قطني صغير قديم كان مبسوطًا على أرضية الغرفة. وبمساعدة شكور تمكنت من الصعود إلى الدكة الخشبية أمام النول، وجلست

عليها. كما صعد شكور أيضًا وجلس إلى جانبي. أشار شكور إلى سجادة غير مكتملة النسج مثبتة على النول، وقال: «هذا هو النول الذي ينسج عليه السجاد، هل سبق أن شاهدت مثله؟»

فقلت: «نعم، كانت أمي وشقيقتيّ ينسجن السجاد.»

فقال: «استنادًا إلى أنك قد رأيته إذن، هل تعرف كيف يُنسج السجاد؟»

فأجبته: «كلا.»

ولشدة ما حرص شكور على أن أتقن أصول هذه الحرفة، بدأ يعرفني أسماء الأدوات من حوله، فأشار إلى الخيوط الملونة المتدلية من النول، وقال: «هذه خيوط الغزل.»

ثم عرض عليّ الأدوات الموضوعة بجانب السجاد، فقال: «هذه الرسمة التخطيطية للسجادة التي هي بمنزلة خطة نعمل بمقتضاها، هذا مقص، وهذه شفرة للقطع، وهذه هي الدفة وهذا المشط لدق وضم خيوط النسيج...»

وبعد أن مكث قليلًا، سألني عن اسم كل أداة من الأدوات التي كان قد أطلعني عليها. ولما جاوبته، قال شكور وقد ارتسمت على محياه علامات الرضا والسرور: «حسنًا، الآن بمجرد أن أطلب منك أيًا من هذه الأدوات، ناولنيها بسرعة، اتفقنا؟»

فقلت: «اتفقنا.»

ثم أضاف قائلًا: «اليوم ستلتقط الوبر فقط، وتراقب يدي في أثناء العمل. انظر وانتبه جيدًا لما سأقوم به.»

ثم شرع في العمل، إذ كان يعقد الخيوط الملونة بين خيوط السَّدى([31])، ثم يدقها بالمشط لتنضم الخيوط إلى بعضها، ويتقدم في عمله. وبينما كنت أرقبه وهو يعمل، تذكرت أمي وهي جالسة أسفل النول تنسج السجاد. وتذكرت شقيقتيّ وهما تجلسان بجانبها، وتعملان. وتذكرت تلك الأبيات الشعرية التي كانت أمي تنشدها هامسة في أثناء نسجها السجادة. وتذكرت معاناة أمي وهي تكد و تكدح في أرض السيد الإقطاعي خلال موسمي الزراعة والحصاد، فما تكاد تصل إلى البيت وقد نال منها التعب ما نال، حتى تتوجه مباشرة صوب النول، لتواصل عملها. وتذكرت كم كانت تتجشم عناءً مضنيًا ليل نهار، لكي تتم نسج السجادة، وتعطيها للسيد صاحب الأرض، فلا يدفع إلا نزرًا يسيرًا من المال لا يكاد يسد حاجتنا من الخبز. كنت سارحًا مع هذه الأفكار قاطبة، حتى أدركت أذناي صوتًا غير مألوف بالنسبة لي آتيًا من خلفي يتساءل: «أهذا هو؟!»

استدرت نحو الباب عفويًا، فرأيت فرُّوخًا واقفًا أمام الباب بجانب رجل طويل القامة يرتدي قباءً مُكَشكشًا رمادي اللون، ويعتمر قبعة فرائية ذات لون أسود، وكان ذلك الرجل الغريب يحدق إليّ. أجابه فرُّوخ قائلًا: «أجل نُويان خان، إنه هو.»

أدركت حينها أن هذا الرجل الغريب هو نفسه نُويان خان الذي كان الجميع هنا يتحدث عنه. وحينما كان نُويان خان يتفرس ملامحي بعينيه الضيقتين، قال: «مُره أن يتقدم.»

حينئذٍ دعاني فرُّوخ قائلًا: «أنت، تقدم، ليراك نُويان خان من قرب.»

كنت قد تيبست في مكاني لبضع لحظات. ودون أن يلتفت شكور برأسه، همس إليّ: «هيا اذهب... أسرع.»

نزلت عن دكة النول خائفًا ببطء، واتجهت صوب الباب. أما الصبيان الآخران اللذان كانا يواصلان عملها على النول الآخر في الغرفة، ويعقدان خيوط النسيج سريعًا سريعًا ويدقانها بمشطيهما. فإن صوت دقهما الخيوط طفق يشوش رأسي، ويربكني. مضيت إلى الباب، ووقفت على بُعد خطوة منه. فما كان من فرُّوخ إلا أن قال بحزم: «لا تقف هكذا... تقدم... أقبل، وألقِ على نُويان خان التحية.»

تقدمت أكثر، وتأملت سحنة نُويان خان. كانت عيناه الضيقتان حمراوين ودمويتين، وشاربه الخفيف مسترسلًا إلى جانبي شفتيه الرفيعتين الداكنتين، وكان ذا حاجبين دقيقين بارزين. هكذا رحت أتفحصه بعناية، وبالكاد حركت شفتي، وألقيت عليه التحية. أما نُويان خان فحدق إليّ فحسب، ثم إنه بعد فترة وجيزة من الصمت، قال: «قل له أن يريني يديه.»

فقال فرُّوخ: «أظهر يديك، ليراهما الخان.»

كان صوت المشطين في يديّ الصبيين لا يزال يدق في رأسي، فلم أفهم معنى لكلامه، ووقفت جامدًا في مكاني كلوح خشب. فقال فرُّوخ مرة أخرى: «أأصم أنت؟ ارفع يديك، وبينهما.»

حينئذٍ استعدت وعيي وانتبهت لما يقوله، ورفعت كفيّ، فقال فرُّوخ: «افتح يديك.»

فتحت كفيّ على وسعيهما. وبينما كان نُويان خان يتفحص أصابعي، لطم وجهي على حين غرة. كانت الصفعة قوية، لدرجة أنني سقط أرضًا، ودار بي رأسي، وصفرت أذناي. وبينما كنت متهالكًا على الأرض أتلوى من شدة الألم، سمعت نُويان خان يقول: «ليُهال على رأسك التراب، أهاتان هما يداك؟!»

ثم التفت إلى فرُّوخ، وقال: «يا لخسارة خمسة تومانات أضعتها أنت هباءً! امنحه فرصة لبضعة أيام فحسب، حتى يتعلم. إن أبدى تقدمًا، فأبقِه، وإلا فجُد به، ليصبح صبيًا لدى أحد مُغسلي الموتى.»

وبعدئذٍ سمعت صوت فرُّوخ الذي راح يوبخني قائلًا: «انهض أيها التنبل غير المجدي نفعًا، لقد أهدرت ماء وجهي أمام الخان، اغرب عن وجهي وعد إلى عملك.»

نهضت بصعوبة. وعندما صوبت نظري مرة أخرى تجاه إطار الباب، لم يكن هنالك أي أثر لفرُّوخ ونُويان خان. كنت لا أنفك أشعر بوخز في وجهي على أثر تلك الصفعة القوية، وكانت الدموع تنهمر من عينيّ.كان شكور والصبيان الآخران قد توقفا عن عملهم، وراحوا ينظرون إلي بعين الشفقة. وفي تلك اللحظة عينها افتقدت أبي وأمي بشدة وتحرّقت شوقًا إليهما. فجلست على الأرض وانفجرت في بكاء مرير. فوقف شكور على رأسي يساندني، وربت على كتفي، وجعل يواسيني قائلًا: «لا تبك، لا عليك. لقد اعتاد نُويان خان أن يروع ويتوعد كل صبي جديد فور مجيئه إلى هنا.»

وبينما كنت لا أزال أبكي، نظرت إلى يدي، وقلت مستنكرًا: «أثمة خطب في يدي؟!»

فقال شكور: «لا بد أن تكون أصابع الشخص الذي ينسج السجاد نحيلة، أما أصابعك

فعريضة.»

فاشتد بكائي أكثر.

٦--

كان نُويان خان أحد أفراد الأسرة القاجارية، ووفقًا لما أورده رضا قلي خان في مذكراته، فهو ابن شقيق معتمد الدولة، رئيس الداروغات([32]) في طهران في عهد ناصر الدين شاه. أما قصر نُويان خان الذي كان قد حوله لدار لنسج السجاد فكان في الأصل أحد قصور معتمد الدولة. كان قصرًا كبيرًا فسيحًا مصممًا على طراز القصور الإيرانية القديمة، ويتوسط فناءه حوض كبير كان يفوق الأحواض الأخرى عمقًا. كان معتمد الدولة امرءًا فظًا غليظ القلب. فقد كتب رضا قلي ميرزا:

"كانت ألسنة الناس قد تناقلت أن معتمد الدولة في أثناء بناء هذا القصر قد دفن بعض الرعية، والخدم، واثنين من خصومه أحياءً في جدرانه."

وعلى هذا النحو فإنه كان قد بنى مقبرة عمودية خاصة به. وظل معتمد الدولة يعيش بضع سنوات في هذا القصر، بين جثث ضحاياه، إلى أن سافر الملك ناصر الدين إلى بلاد الغرب، وعاد. وعند عودته نقل عن الغرب بناء تلك القصور ذات القبة المخروطية التي كان يحيط بها فناء، ومزودة بسقف جملوني محدب كما كان شائعًا آنذاك. وكان معتمد الدولة شأنه شأن معظم نبلاء عصره مولعًا ببناء مثل هذا النوع الجديد من القصور، وتزامنًا مع بنائه أحد القصور في محيط ميدان أرك بطهران نقل أثاثه ومتاعه إلى القصر الجديد، ليعيش فيه.

ومع انتقال معتمد الدولة إلى القصر الجديد، ظل القصر الواقع في حي عود لاجان شاغرًا فترة إلى أن اشترى عضد الدولة أخو معتمد الدولة هذا القصر من أخيه. أما عضد الدولة الموكل إليه بجمع الضرائب فقد كان شخصًا مميزًا واستثنائيًا، إذ لم تحظ تلك الأساليب المعمارية المواكبة للعصر الحديث بإعجابه، لأنه كان ينتمي لتلك الجماعة من قبيلة قاجار التي تؤمن بأن نسب القاجاريين يعود إلى زعماء المغول، ولذلك اختار لأبنائه أسماء مغولية الأصل: جُغتاي، وأوكتاي، ونُويان. كان عضد الدولة هو الآخر مثل أخيه رجلًا قاسي القلب بلا رحمة، بل وربما كان يفوقه قسوة. فعندما سمع بالطريقة الوحشية التي كان أخوه قد دفن بها هؤلاء الناس في الجدران، ما لبث أن وضع بعض أعدائه في أكياس، ثم ألقاهم في قعر حوض عميق وسط الفناء، ليخلف هو الآخر تذكارًا منه في القصر. قال رضا قلي ميرزا واصفًا مياه هذا الحوض:

"كان يغلب عليه اللون الأسود دائمًا طوال اليوم ليلًا كان أم نهارًا، وكانت الأسوار الرمادية التي تحيط بالحوض قد ضمت بين جوانبها كمية هائلة من المياه الداكنة اللامعة كحجر العقيق الأسود. وفي وقت الغروب عندما كانت أشعة الشمس تنحسر عن الحوض، تفوح رائحة مياه الحوض العفنة في أرجاء القصر. كانوا يقولون إن مياه هذا الحوض لم تتغير منذ سنوات، ففي فصل الصيف تتبخر مياهه بواسطة أشعة الشمس الساطعة، ومع هطول الأمطار والثلوج في فصلي الخريف والشتاء كان الحوض يطفح بالماء مرة أخرى. وعلى هذا لم يكن نُويان خان ليسمح بتبديل مياه الحوض قط من فرط ما حيك حول هذا الحوض من روايات، وكأنه كان يخشى من أن تنكشف جملة من الأسرار والخبايا على الملأ مع تبديل مياهه."

لم يمض الوقت حتى حل غضب الملك على معتمد الدولة، فعُزل معتمد الدولة عن منصبه، وصودرت معظم أمواله ومقتنياته، ثم زُجَّ به في السجن مدة من الزمان. ورغم أن معتمد الدولة كان قد أُطلق سراحه بعد فترة قضاها بالسجن، أضناه الألم ومات مفطور القلب. وبعد وفاته أهمل الملك حاشية معتمد الدولة وأقاربه ولم يقم لهم وزنًا، فلم يعودوا يتقلدون المراكز

والمناصب الرفيعة في الدولة. وبعد مرور فترة على وفاة معتمد الدولة لحق به عضد الدولة، فورث أكبر أبنائه أي نُويان خان هذا القصر. أما نُويان خان الذي لم يكن يعقد آماله على نيل منصب في الدولة، أنشأ في قصره هذا دارًا لنسج السجاد. ومع تسخيره لعدد من الصبية، بدؤوا بنسج السجاجيد كبيرة وصغيرة من مختلف الأحجام على أن يُباع نتاج هذا العمل إلى تجار بازار طهران أو إلى بعض الأجانب.

ليس واضحًا لماذا قد اقتصر العمل في منسَج نُويان خان على الأولاد فقط. فلم يكتب رضا ميرزا شيئًا بشأن هذا الأمر الغريب. سوى أنني أعتقد أن نُويان خان كان يملك دارًا أخرى لنسج السجاد تعمل بها فتيات، أو ربما كانت طباعه حادة لدرجة أن الفتيات لم يتمكن من الاستمرار في العمل تحت إمرته، فراح يفضل استعمال الصبية الصغار ذوِي الأصابع النحيلة عن البنات. على أي حال كان لا يعمل في دار نسج السجاد في القصر الذي يقع في حي عود لاجان سوى الصبية فقط. وكان الصبية يباشرون عملهم قبل انبلاج الصباح، ويستمرون حتى غروب الشمس، وأحيانًا ما يكون ضغط العمل عليهم شديدًا، ومع حلول الغروب تمسي أقدامهم متيبسة فلا يستطيعون النزول عن دكة النول.

لقد فرغت من قراءة ونقل مذكرات رضا قلي ميرزا خلال أسبوع. ومنذ أواسط هذا الأمر صار ذهني يعج بالأفكار الغريبة، إذ ظلت بعض أجزاء مذكراته عالقة بذهني لساعات طوال. ورحت أقوم مرات عديدة في أثناء مطالعة المخطوطات تلك، وأذهب تجاه النافذة، وأقف بجانب صورة أمي، أتأمل المشهد من الخارج، وأفكر في كل شيء؛ في رضا، في شكور، في أمي، في حوض المياه، في عالم الموتى. وددت أحيانًا لو أصدق أن ما أقرأه ما هو إلا مجرد قصة من وحي الخيال لا تمت إلى الحقيقة بصلة. لكنما هذه الأوراق كانت حقيقية، وخط اليد الذي دُونت به كان حقيقيًا هو الآخر، كما أن الكاتب منذ أمد بعيد لم ينفك يكرر مرات ومرات في أجزاء متفرقة من قصته أن كل الأحداث التي يرويها قد وقعت بالفعل. ولئن كان مُحقًا، فسوف يتحتم عليّ حينها أن أفعل شيئًا حيال هذا الأمر.

عندما أتممت عملي، نظرت إلى مجموعة أوراق رضا قلي ميرزا الصفراء، وتأثرت بشدة. ففكرة أنه خلال بضعة أيام سوف تُلصق هذه المخطوطات الورقية مثل ورق الحائط بخلفية لوحة كبيرة، ثم تُنثر عليها الألوان الزيتية كانت تبعث في نفسي الحزن. إذ كان من المقرر أن تكون قصة الحياة المريرة لأحد الأشخاص مجرد زينة تضفي مظهرًا جماليًا على لوحة غير معروف إلى من ستصل في النهاية، وفي أي مكان ستُوضع. أعدت الأوراق إلى الظرف البلاستيكي، ثم أخذت الظرف وخرجت من الغرفة. كان أبي قد جلس إلى طاولة الطعام في الصالة، وعلى قطعة ورق أمامه يقوم بعمليات جمع حسابية. كان كعادته يحسب مصاريف الشهر، كم لديه من المال، كم ينبغي له أن ينفق، كم نفد وكيف، وماذا عليه أن يفعل ليعوض العجز في ميزانيته. ذهبت وجلست حذاءه. كان أبي قد طأطأ رأسه وأخذ يجمع الأعداد في حين كانت فروة الجزء الأصلع من رأسه قد صارت حمراء اللون. ففي كل مرة كان أبي يتوتر فيها، أو يزعجه شيء تصير فروة رأسه إلى اللون الأحمر. وضعت الظرف على المائدة، ودفعته نحوه برفق، حينئذٍ رفع أبي رأسه، وقال: «مرحبًا، ما الأمر؟»

كانت بشرة وجهه قد خالطتها الحمرة أيضًا، ثم ابتسم مشيرًا إلى الظرف البني، وقال: «أما زلت منخرطًا في قراءة هذه الأوراق؟»

فقلت: «لقد انتهيت من قراءتها.»

فحملق بعينيه، وقال مندهشًا: «كلها، كلها كلها؟!»

فقلت: «كلها كلها كلها.»

فهز رأسه، وقال: «أحسنت، أتمنى حقًا أن تستمر في المطالعة على هذا النحو تمامًا. الآن أخبرني ما الذي حدث مع السيد رضا هذا في النهاية؟»

فقلت: «ينبغي أن تقرأها بنفسك، فروايتها ليست ممتعة بقدر قراءتها.»

حينها ضحك أبي، وقال: «منذ أسبوع وأنت وليلى ترويان لي كل شيء في مذكراته حرفيًا، والآن إذ وصلت لنهايتها تقول ينبغي لك أن تقرأها بنفسك؟!»

فقلت: «يجب أن تقرأها بنفسك، لتخبرني أيمكن أن تكون تلك الأحداث حقيقية بالفعل أم لا.»

فأزاح أبي الورقة والقلم من أمامه، وفكر هنيهة، فقال: «أي جزء فيها حقيقي؟»

فقلت: «في غير موضع فيها ثمة أحداث تبدو حقيقية بالفعل.»

فقال أبي: «حسنًا، إن مسألة بيع وشراء الأطفال كان في ذلك الوقت شيئًا عاديًا...»

قاطعت كلامه قائلًا: «كلا، ليس ذلك ما أعنيه، هنالك أحداث أُخر.»

ولما خفض أبي رأسه، كانت فروة صلعته قد باتت أشد حمرة. مكث قليلًا قبل أن يتنهد، ويقول: «بصراحة يا مجيد، لو كنت على دراية كافية بطبيعة الأحداث المسرودة في هذا الورق، لما سمحت لك بقراءتها مطلقًا. كانت حالتك النفسية آخذة في التحسن ...»

لم أدع أبي يكمل حديثه، وقلت: «إنني بخير وعلى ما يرام. وهذه الأوراق لم تجعل أي شيء يزداد سوءًا.»

عقد أبي كلتا يديه على المائدة، وقال: «أتمنى هذا.»

ثم هز رأسه قليلًا، وجذب الظرف البلاستيكي تجاهه، وقال: «والآن إذ قد أنجزتما أنت وليلى مهمتكما، يمكنني أن أشرع في مهمتي.»

فسألته: «أتريد حقًا أن تلصق هذه الأوراق بلوحتك؟»

فأجاب أبي: «أجل، لماذا؟»

فسألته مستنكرًا: «أليس هذا مؤسفًا؟!»

فقال أبي كما لو أنه شعر بامتعاض: «مؤسفًا! من المفترض أنها جزء لا يتجزأ من عمل فني، سوف يُخلَّد للأبد.»

فقلت: «ولكنك للأسف تريد أن تنثر عليها الألوان، تريد أن ترسم عليها.»

أجاب أبي: «حسنًا، إن دمج هذه المذكرات في خلفية اللوحة، سيجعلها رائعة للغاية. سبق أن

قلت إن قِدم هذه الأوراق في حد ذاته هو ما سيضفي طابع الأصالة على اللوحة، حتى إنني متيقن من أن ذلك سيُعلي من سعرها عندما تُباع»

فقلت: «وبهذه الطريقة سوف تبلى مذكرات رضا قلي ميرزا.»

فأردف أبي: «إنها لن تبلى. ستصير شيئًا آخر فحسب، تتحول من شكلها الحالي إلى شكل آخر، تمامًا مثل الطاقة، فقانون بقاء الطاقة ينص على أن الطاقة لا تُفنى ولا تُستحدث من العدم ولكن يمكن تحويلها من صورة لأخرى، ألم تقرأ ذلك من قبل؟»

ثم ضحك أبي. تأملت وجهه، وقلت: «ولكن مخطوطات رضا قلي ميرزا تبدو على هذا النحو رائعة، يجب ألا يتغير شكلها.»

نظر أبي إلى حافة المائدة، ومكث قليلًا قبل أن يرفع رأسه، ويقول: «انظر، أعلم جيدًا أنك مهتم ومولع بهذه الكتابات إلى حد كبير، وأعلم أن قراءتها كانت أمرًا مثيرًا وممتعًا بالنسبة لك. فلما رأيت كيف أنك تستعين بالعدسة المكبرة، لتقرأ مفرداتها الصعبة، ثم تعيد تدوينها مرة أخرى، أدركت حينها أنها قد أثرت بك بشدة. وفي اعتقادي أن جزءًا مهمًا من شغفك بهذه الأوراق كان بسبب المتاعب التي واجهتها. ولكن الآن كل شيء قد انتهى، وقد أديت مهمتك على أكمل وجه، وفرغت من قراءة المذكرات، ولديك نسخة كتابية منها. إذا كانت ذا أهمية بالغة بالنسبة لك، يمكنك أن تمسحها ضوئيًا، وتحتفظ بنسخة منها لديك في حاسوبك الخاص.»

فقلت متململًا: «صحيح أنني أعدت تدوين هذا الورق، كما هو صحيح أن بإمكاني أن أحتفظ بنسخة من تلك الأوراق، وما أدراني ربما يمكنني أن أمسحه ضوئيًا أيضًا. لكنني لا أريد أن يبلى أصل هذه الأوراق، ويتلف.»

فقال أبي باستياء: «مرة أخرى تقول يبلى!»

فقلت: «معذرة، أقصد أن يتغير شكله.»

فقال أبي بنبرة حادة أشد من ذي قبل: «انظر يا مجيد، لقد بحثت كثيرًا عن هذا الورق، كان هنالك الكثير من الورق القديم غير أنه لم يكن بمثل هذا الشكل، وهذا التناسق من حيث كتابته بواسطة الشخص ذاته. ومن أجل أن أقتنيه، بذلت الكثير من المال. ومن ناحية أخرى يجب أن أبدأ برسم لوحتي، وأسلمها في الوقت المحدد. وليس لدي وقت كي أبحث مجددًا عن أوراق كهذه، وأجد أوراقًا بمثل هذا التناسق، كما ليس لدي المزيد من المال، كي أقدم على شرائها مرة أخرى.» فقلت: «ولكن...»

فقاطعني أبي، وقال: «في الحقيقة لقد أرجأت بالفعل البدء بعملي خلال اليومين الماضيين، ولم أخبرك، لأنك كنت منغمسًا لذروتك في قراءة تلك المذكرات. وإلا فإنني قد أتممت الرسومات التخطيطية منذ يومين، وجاهز الآن للعمل على اللوحة. اذهب بنفسك، وانظر، لقد هيأت سطح اللوحة أيضًا، كل ما كنت انتظره أن تفرغ من مهمتك، لأباشر مهمتي.»

خفضت رأسي، ولزمت الصمت، كما صمت أبي. غير أنه بعد فترة وجيزة، دفع تجاهي الورقة التي كان يجمع عليها الأعداد، وقال: «إنني واثق بأنك قد كبرت ونضجت بالقدر الذي يخول لك أن تدرك جيدًا معنى توفير المصاريف اللازمة، والعمل من أجل تأمين نفقات الحياة. لطالما وددت أن أحتفظ لنا بهذه الأوراق مع كثير من الأشياء الأخرى القديمة، ولكن هذا غير ممكن بأي

حال.»

أردت حقًا أن أتحدث إلى أبي مجددًا، ليس فقط بشأن الاحتفاظ بالأوراق، بل إنني أحببت أن أتجاذب معه أطراف الحديث حول كثير من الأشياء والأفكار الأخرى التي قد جالت بخاطري في أثناء قراءة مذكرات رضا قلي ميرزا. غير أن هذا لم يحدث، فلا أبي كان في مزاج يسمح له بأن يصغي إلى سائر حديثي، ولا أنا كنت أستطيع البوح بكل ما يدور في خُلدي. هكذا ودون أن أنبس ببنت شفة قمت، وسرت باتجاه غرفتي. ومع أنني لم ألتفت ورائي، كان بوسعي أن أتصور أبي بعد مغادرتي وهو يتناول ورقة الحساب، وفي حين قد صارت فروة رأسه حمراء، كحبة بنجر، يشرع في جمع الأعداد مرة أخرى. وفي طريقي إلى الغرفة وقعت عيني على غرفة أمي وأبي، فاستدرت تلقائيًا، ودخلت الغرفة. ولما لم يكن أبي قد أزاح الستائر، بدت من خلف تلك الستائر السميكة مساحة من الغرفة شبه معتمة. كانت صورة أمي موضوعة داخل إطار كبير، ومعلقة فوق الفراش. وإلى جوار الفراش ناحية الجانب الذي اعتادت أمي النوم فيه كانت أسطوانة الأكسجين الكبيرة لا تزال مستندة إلى الجدار. فمنذ رحيل أمي لم يغير أبي أي شيء في الغرفة، ففرشاة شعر أمي كانت لا تزال في مكانها على التسريحة، مثلما أن معطفها ذا اللون الكريمي لا يزال معلقًا على علّاقة الثياب في زاوية الغرفة. تقدمت وجلست على حافة السرير، حيثما كانت تنام أمي. وعندما نظرت إلى الحائط المجاور لي، وجدت فوق أسطوانة الأكسجين جدول مواقيت الأدوية الخاصة بأمي مُدونًا على ورقة ملتصقة بالجدار:

الصباح:

- أقراص ميتوبرولول -قرص واحد ٨\٥ صباحًا.

- كبسولات نيورونتين - كبسولة واحدة١٠ صباحًا.

- أقراص لوزارتان - قرص واحد٥\ ١١ صباحًا.

بعد الظهر:

أقراص أتورفاستاتين - قرص واحد بين الساعة ٦ إلى ٨ مساءً.

الليل:

- نصف قرص ميتوبرولول.

- قرص واحد لوزارتان.

- قرص واحد فالسارتان.

-حقنة آلفن إيكس.

وقتئذٍ غص البكاء في حلقي. ولما خفضت رأسي، رأيت نعل أمي في مكانه بجانب السرير، فتلألأت جفوني بمائها، ورحت للمرة الألف أقول في سريرتي: «ليتنا كنا تودعنا!»

--٧

لم تكد تحين ظهيرة أول يوم لي في العمل، حتى توجه راضي صوب باب الغرفة، ودعا شكورًا. وسرعان ما قفز شكور من النول، وتقدم نحو الباب. حينئذٍ أعطاه راضي بضع قطع نقدية، وقال: «لا تتأخر، واصطحب معك صبيك.»

ثم التفت شكور إليّ، وقال: «هيا لنذهب، يا رضا.»

وحين نزلت عن النول كنت أشعر بمغص شديد. فطيلة ما كنت جالسًا بجانب شاكور، كنت أريد أن أذهب إلى المرحاض. ولكن لم تواتني الجرأة خوفًا من راضي ونُويان خان وفرُّوخ، فلم أفصح عن رغبتي بالذهاب إلى المرحاض. كنت قد تمالكت نفسي بالكاد، ورحت أنهض بالمهام التي يكلفني شكور بها. بيد أني وقتما وقفت، اشتدت آلام معدتي. سألت شكورًا مستغربًا: «إلى أين؟»

فقال شكور: «لنذهب، كي نحضر الطعام.»

فقلت: «هل قلت طعام؟!»

فقال: «نعم، من أجل نُويان خان، وفرُّوخ.»

خرجنا معًا من الغرفة تحت السلم، ومضينا إلى المطبخ. قال شكور: «ابق أنت هنا.»

ودخل هو، وعاد بعد قليل ومعه قِدرين صغيرين. ناولني واحدًا، وأمسك هو القِدر الآخر، وقال: «لنذهب الآن.»

اجتزنا الحوض، ومضينا، حتى خرجنا من القصر. وفي طريقنا أخبرني شكور أنه للقيام بهذا الأمر يذهب كل يوم الأُسطى برفقة صبيه إلى بازار طهران الكبير([33])، ويشتريان الطعام لنُويان خان وفرُّوخ من دكان منصور للبُلو. هكذا اجتزنا الأزقة الترابية غير المرصوفة في حي عود لاجان، حتى دخلنا شارعًا فسيحًا، ومنه توجهنا إلى البازار. حينئذٍ اشتد بي المغص مرة أخرى، وكان شديدًا هذه المرة لدرجة أنني لم يعد بوسعي كتمانه. كنت خائفًا من أن أفسد ثيابي فجأة، وأجلب لنفسي المعرَّة والفضيحة منذ اليوم الأول لي في العمل. وعندما بُحت لشكور بمشكلتي العويصة قال: «ولمَ لم تذهب إلى المرحاض؟»

فقلت: «كنت خائفًا.»

ثم صمت شكور كما لو أنه تفهم جيدًا ما قد قلته، فقلت: «يجب أن أقضي حاجتي في مكان ما وإلا...»

فقاطعني، وقال: «لنمد خطانا إلى مرحاض الرئيس.»

فقلت: «أين مرحاض الرئيس هذا هو الآخر؟»

فقال: «أسرع، كي أقول لك.»

كان الشارع من كلتا جانبيه يعج بالدكاكين الصغيرة والبائعين الذين كانوا يصطفون على طول الشارع، ويبيعون شتى أنواع البضائع سواء على عرباتهم، أم على حميرهم، أم على الصينيات التي

كانوا يحملونها على رؤوسهم، من قِند وشاي وخضر وفاكهة، وصولًا إلى الأقمشة، والأواني الخزفية، والنحاسية، أو تلك المصنوعة من الزجاج. كاد الألم يمزق معدتي تمزيقًا، وكنت أكابد السير بمشقة. ولولا ألم معدتي هذا، لأحببت أن أبطئ في مشيتي أكثر، ليتسنى لي رؤية ما حولي أكثر وأفضل. وفي المقابل كان شكور لا ينفك يلح، لنهم في السير: «إذا كنت تريد الذهاب إلى المرحاض، فعليك أن تسرع.»

ولما رآني ما زلت أسير ببطء، أردف قائلًا: «إن مرحاض الرئيس بعيدٌ من هنا. سيطول بنا الوقت ونتأخر في الذهاب والعودة، وحينئذٍ سيوبخنا راضي، ويسلقنا بلسانه الحاد.»

همَّ شكور بالركض، كما ركضت خلفه بالكاد، حتى أضحينا على مشارف ساحة كبيرة كانت ثمة أشجار وأجمات مزروعة في وسطها. كانت هي الساحة نفسها الذي قد مررت بها بصحبة فرُّوخ الليلة الماضية. لكننا لم نكد نصل إلى تلك الساحة، حتى أشار شكور إلى أحد الأزقة وطلب أن نتجه إلى هناك، وسلكنا الزقاق. ومنذ أن دخلت الزقاق للوهلة الأولى باغتتني رائحة كريهة اخترقت مشامي. تقدمنا، حتى وصلنا إلى أرض خلاء في جانبها توجد بعض الحجيرات المزودة بأبواب صغيرة، وبجانب تلك الحجيرات اصطفت أباريق نحاسية كثيرة، وكان شخص ما يسكب في هذه الأباريق النحاسية الماء بواسطة دلو يحمله. وبينما كانت الرائحة الكريهة قد فاحت في أرجاء المكان، قال شكور: «ها هو ذا مرحاض الرئيس. هيا تناول إبريقًا، واذهب إلى أحد هذه المراحيض.»

حينها فطنت إلى أن هذه الحجيرات هي في الأصل مراحيض، فركضت تجاه الأباريق. وبينما هممت لألتقط أحدها، إذ بشخص ما يصرخ عليّ مستنكرًا: «يا هذا، ما الذي تفعله هنا؟!»

استدرت تجاه الصوت، ورأيت رجلًا ضخم الجثة قد جلس على مقعد بغير ذي مسند في مكان ليس ببعيد عن الأباريق، وكان يحدجني ببصره. فأجبته: «أريد أن أذهب إلى المرحاض.»

فأردف: «بأي حق تصرفت هكذا من تلقاء نفسك؟! تقدم هنا، لأراك.»

نظرت إلى شكور، فقال شكور: «إنه هو، إنه الرئيس نفسه، تقدم، سوف آتي معك أيضًا.»

تقدمنا معًا نحو الرجل الذي كان جالسًا على المقعد. كان ذا وجه ممتلئ، وشارب عريض قد برم كلتا طرفيه للأعلى. وقد جلس على مقعد مادًا إحدى ساقيه إلى صخرة أمامه، في حين كان يسند مرفقه إلي ركبته، ويلوي شاربه برفق. وفور أن وقفنا إزاءه، قال: «ما الذي تفعله هنا يا هذا؟»

فقلت: «أريد أن أذهب إلى المرحاض؟»

فأردف ساخرًا: «أهكذا عشوائيًا؟! أتظنها زريبة للحيوانات؟!»

كانت آلام معدتي قد تفاقمت، حتى إنني لم أعد أطيق صبرًا. فضممت ساقيّ إلى بعضهما، وقلت: «لدي مغص شديد.»

فقال: «لديك ما لديك، هنا كل شيء بحساب، ما هكذا تمضي الأمور.»

وقفت مبهوتًا حائرًا أي شيء أفعل، وماذا أقول، حتى قال شكور: «وما الذي يجب عليه أن يفعله سيدي الرئيس؟»

وكما لو أن الرجل قد راقه سماع كلمة الرئيس، إذ حاد بنظره عني وصوبه إلى شكور، وقال: «هل

هو صاحبك؟»

فأجابه شكور: «أجل، سيدي الرئيس.»

فقال الرئيس: «أفهمه أن لدي هنا لا يُختلط الحابل بالنابل. يجب أن يدفع شاهيًا، كي يدخل.»

كان الجو المعبأ بالرائحة السيئة وألم معدتي قد تكاتفا، وتثاقلا عليّ، فنظرت إلى شكور، وقلت:«ولكنني لا أملك مالًا.»

أما شكور الذي بدا وكأنه قد فهم لتوه أنه يجب أن ندفع المال مقابل أن أدخل المرحاض وقف مرتبكًا مترددًا، ثم ألقى إليّ نظرة في وقت كنت أنهار فيه أمامه وأكاد أفقد وعيي. ففتح قبضة يده، وأخذ عملة معدنية صغيرة من بين العملات المعدنية التي كان مطبقًا عليها، وأعطاها للرئيس. أما الرئيس فقد أخذ يقلب النظر في العملة، ثم دسها برفق في جيبه الأيمن. بعد ذلك أخرج حفنة من النقود المعدنية من جيبه الأيسر، وانتقى من بينها بضع قطع من النقود، وأعطاها لشكور. ثم من بعد ذلك ودون أن ينظر إليّ، قال لشكور: «قل له أن يذهب، ويتناول إبريقًا، ويدخل المرحاض، ليقضي حاجته بسرعة.»

ودون أن أنتظر كلمة من شكور، ركضت صوب الأباريق، وانتشلت أول إبريق كان في متناول يدي. لكنني ما إن هممت بالركض إلى المراحيض، حتى صرخ الرئيس: «ليس هذا، ليس هذا!»

وبينما كادت دموع عيني تنهمر من شدة المغص، استدرت، ونظرت إليه، فسألته: «ماذا؟»

فقال الرئيس: «ليس هذا الإبريق، تناول الإبريق الثالث المربوط بيده خيط.»

لم يكن باليد حيلة، وضعت الإبريق على الأرض، وبحثت عن الإبريق الذي قد رُبط خيط بيده، وأخذته، ثم ركضت مسرعًا صوب المراحيض، وفتحت أول باب مرحاض صادفني، ودخلت. غير أنني بمجرد أن دخلت، هاجم فوج من الذباب الكبير وجهي، فذببته عني. نظرت إلى الأرض، حيث كانت أرضية المرحاض مغطاة بألواح خشبية مفككة، ووسط هذه الألواح توجد حفرة ذات فتحة، حيث يجب أن أجلس، وأقضي حاجتي. وسرعان ما حللت بنطالي، وجلست، وبدأت أقضي حاجتي. ولكنني لم أكد أفرغ ما اختزنته أمعائي، حتى صرخ أحد ما فيّ قائلًا: «أنت، ماذا تفعل، تنح إلى الجانب الآخر.»

باغتتني الصدمة، إذ لم أكن أدري من أين قد جاء هذا الصوت. ومرة أخرى صرخ الشخص الذي لم أره قائلًا: «تنح إلى الجانب الآخر، أيها الأحمق المقرف.»

نظرت إلى أسفل، ورأيت أن الصوت قادم من تلك الفتحة نفسها وسط الحفرة، حيث كان هنالك شخص ما يقف أسفل الفتحة، لا ينفك يصرخ. تزحزحت من مكاني قليلًا، وقمت بقضاء حاجتي. ثم ما لبثت أن شطفت نفسي بماء الإبريق. وفي حين كنت لا أزال غير مدرك لما يجري من تحتي خرجت من المرحاض، وأعدت الإبريق إلى مكانه، وركضت سريعًا تجاه شكور الذي كان ينتظرني بالخارج وهو يتلكأ مضطربًا، فقلت له: «دعنا نذهب.»

ومن الزقاق نفسه الذي كنا قد جئنا منه عدنا معًا إلى الشارع والساحة التي كانت مُزدانة بالنباتات الخضراء، إذ كنت قد فهمت للتو أنه يُطلق عليها اسم ساحة سبزه ميدان. وفي طريقنا، قال شكور: «هل فهمت الآن لم يُدعى الرئيس؟ يُقال أنه كان قد شغل منصب

الداروغة([34]) من قبل، وكان أمره نافذًا على الجميع. ولا أدري ما الذي حدث بعد ذلك، حتى يُفصل من عمله. لكنه ما لبث أن عاد مرة أخرى وبنى هذا المراحيض العمومية بأموال زوجته، ليتمكن من أن يُعطي أوامره للجميع مجددًا.»

فقلت: «كان هنالك أحد بالأسفل.»

فقال: «أجل، اسمه حشمت، وهو يعمل كناسًا.»

سألته مستغربًا: «ماذا تعني بكناس؟»

قال: «إنه يفرغ مِخزن المرحاض من الفضلات. فمتى يقضي أحدهم حاجته في المرحاض، فإنه يتقاضى أجره ويذهب، ليزيل هذه الفضلات من المكان، وينظفه.»

ومن أجل الوصول في ذلك اليوم إلى دكان منصور للبلو قطعنا طريقًا، سلكناه فيما بعد مرارًا وتكرارًا. لقد أصبح شراء طعام الغذاء لنُويان خان وفرُّوخ مهمتنا اليومية. فكل يوم نخرج من القصر، ثم نصل إلي زقاق اسمه زقاق صاحب الديوان، ثم عبر شارع فسيح نمضي إلى ساحة سبزه ميدان، ومن هناك نلج بازار طهران المسقوف، ونمر بصف محال العطارين وبائعي الأقمشة، ثم بعد أن نجتاز تيمجة([35]) معين التجار، نصل أخيرًا إلى دكان منصور للبلو. وهذا نفسه ما فعلناه في ذلك اليوم. فعندما وصلنا أمام الدكان، رأينا طابورًا من الصبية الذين كانوا قد وقفوا أمام المحل ممسكين بقدور صغيرة. كانوا كلهم صبيانًا يعملون في الدكاكين والورش المختلفة، ويبتاعون لأربابهم في العمل طعام الغذاء. وفي الوقت الذي راحت الرائحة الزاكية للبُلو والكباب المشوي تفوح من داخل الدكان، قال شكور: «لقد تأخرنا في الوصول، فازدحم المكان.»

وقفنا خلف الصبي الذي كان يقف آخر الصف. وأخذت أقلب النظر في المكان من حولي، فأبصرت أشياء لم أكن قد رأيتها من ذي قبل. ثم بعد ذلك وجدت أنها فرصة جيدة لأقطع حبل الصمت مع شكور، وأستهل حديثًا معه. التفت إليه، وبادرته: «ما سبب عدم معرفتك حتى الآن كيف وصلت إلى ذلك المكان؟»

فقال شكور: «لا أدري، لقد أخبرتك أنني منذ أن فتحت عيني وأنا أعمل تحت إمرة فرُّوخ ونُويان خان.»

فقلت: «إذن لمَ لم تسأل فرُّوخًا أو حتى نُويان خان؟»

فقال: «لم تواتني الجرأة لأسأل نُويان خان. ولكنني كلما سألت فرُّوخ، يقول كنت صغيرًا جدًا حينما حللت علينا في هذا القصر مثل البلِيَّة. إنه لا يخبرني بالحقيقة أبدًا.»

تنهدت، وقلت: «لقد ابتاعني فرُّوخ من أبواي، قالا لي إننا ذاهبين إلى حفل زفاف، ثم بمجرد أن غلبني النوم، باعاني لفرُّوخ مقابل خمسة تومانات ورقية.»

فقال شكور: «معظم الصبية في القصر مباعون أيضًا. أما هؤلاء الذين قد استأجروهم للعمل فدائمًا ما يتباهون بأنهم ليسوا كالآخرين بلا أصل ولا أهل، بل سوف يعودون يومًا ما إلى بيوتهم، ويستأنفون حيواتهم.»

حينئذٍ غيرت موضوع الحديث، فقلت: «إذن أنت أول من جاء إلى هنا، أليس كذلك؟»

فقال شكور: «ربما، لا أعلم، لكنهم دائمًا ما يرسلون لي الوافدين الجدد من الصبية، كيما أعلمهم أصول حرفة النسج، إضافة إلى أن شراء الطعام هو جزء من مهامي أيضًا. يود الصبية الآخرون لو كانوا مكاني، لا لشيء إلا ليتمكنوا من الخروج يوميًا، واستنشاق الهواء العليل، ولكن فرُّوخ يكلفني أنا بتلك المهمة.»

سألته: «إلى متى سأبقى معك؟»

فقال شكور: «حتى تتعلم أصول الحرفة، أو يأتينا وافد آخر جديد. حينها مثل غلام علي سيكون عليك أن تمضي لشأنك، وتعمل بمفردك.»

فقلت: «ولكنني أود أن أعمل معك دائمًا.»

فقال شكور: «هذا الأمر ليس بيدي أو بيدك، علينا أن نرى ما ستؤول إليه الأمور.»

وشيئًا فشيئًا اقترب دورنا. ولما وصلنا إلى واجهة الدكان، رأيناه من الداخل. كانت قد نُصبت في مؤخرته بعض المقاعد الكبيرة التي تسع الكثير وقد جلس عليها الناس، ليتناولوا طعامهم. كان منصور بائع البُلو نفسه يتربع على مصطبة أمام الدكان. وبين الفينة والأخرى يسحب الدخان من الشيشة، ويأخذ من الصبية الواقفين في الطابور القدور الصغيرة التي يحملونها وحساب الوجبات كل على حدة. وبعد أن يعُد النقود، يعطي العامل الواقف بجواره القدر، فيبدأ العامل بدوره بوضع أصابع الكباب المشوي وسط القدور، ثم يغرف فوقها الرز، ثم يصب فوقها مغرفة من الزيت، و يسلمها للصبي صاحب القدر. ومع رؤية هذا المشهد أمامي، وتنسم مشامي لتلك الرائحة الطيبة للرز والكباب المشوي، جرى ريقي. صوبت نظري إلى المقاعد والزبائن الجالسين عليها يتناولون طعامهم، حيث كان أحد العاملين في الدكان يطوف متنقلًا بين المقاعد، ويضيف مزيدًا من الرز و الكباب في أطباق هؤلاء الذين نفد ما لديهم من البُلو أو الكباب.

وبمجرد أن حان دورنا، سلم شكور قِدره أولًا ثم قِدري إلى منصور بائع البُلو، وبعد ذلك ألقى العملات المعدنية التي كانت بيده في كف منصور، فأحصى منصور النقود بدقة، ثم ما لبث أن رفع رأسه، وقال: «هنالك شاهي ناقص.»

فرد شكور وقد بدا على ملامحه التوتر: «عدهم مرة أخرى.»

فعدهم منصور مرة أخرى، ثم قال: «هنالك شاهي ناقص.»

فقال شكور: «أعطني الطعام، وسوف أحضره لك غدًا.»

فرفع منصور رأسه، وزمجر قليلًا، ثم ما لبث أن قال: «لا يمكن، سبق أن نقص من حسابك المدفوع ذات مرة شاهيان، ومرة ثانية شاهي، وهذا المرة هنالك شاهي ناقص أيضًا، وبجمعهم يصبح عليك دين مقداره خمسة شاهيات. إنني لا أملك كنزًا أغترف منه لأعطيك بالمجان»

ثم تناول القدرين بكلتا يديه، ودفع بهما نحو شكور، وقال: «لا يمكن، اذهب واحضر شاهيًا آخر، ثم عد لتأخذ الطعام.»

كان ذلك الشاهي الذي دفعه شكور مقابل دخولي المرحاض هو ما أفسدت الأمر. عندئذٍ غصت مآقي شكور بالدمع، وقال: «الآن أعطني طعام اليوم، وسوف أحضر لك غدًا خمسة شاهيات، والله سوف أحضرهم.»

أما منصور فقد زمجر مرة أخرى من تحت شواربه البيضاء مستنكرًا، وقال: «هيا انصرف، انصرف. دع الناس يصلون إلى أدوارهم، لينصرفوا إلى أعمالهم.»

ثم وضع مبسم قصبة الشيشة بين شفتيه، وسحب نفثًا، وقال: «التالي.»

وفي تلك اللحظة لم يعد يستطع شكور أن يكتم عبرته، فقال باكيًا: «استحلفك بالله منصور خان أن تعطيني الوجبتين، وإلا فسيمدني الأُسطى على الفلقة.»

ودون أن يلتفت منصور إليّ أو إلى شكور مد يده إلى الصبي الذي كان قد وقف خلفنا، وقال: «أعطني القدر يا ولد.»

فناول الصبي خلفنا منصورًا قدره، في حين عاد شكور يتوسل إليه ويناشده مرة أخرى: «أرجوك يا منصور خان.»

فرد منصور قائلًا: «لن أعطيك شيئًا، حتى وإن بقيت تتوسل إلى أن يحل الليل. اذهب واحضر مالك، تأخذ الطعام.»

حينئذٍ شعرت بظل طويل يمتد إلى فوق رأسينا، وأن ثمة يدًا في كم قباء أسود قد ألقت بلطف من فوق رأسينا عملة معدنية كبيرة، فوقعت أمام قدم منصور، حتى إن منصور رفع رأسه ذاهلًا، ليطالع الشخص الذي كان واقفًا خلفنا، ثم قال مندهشًا: «ما الأمر؟! من الذي ألقى هذه العملة؟!»

استدرت أنا وشكور، ورفعنا رأسينا وطالعنا ذلك الشخص الذي كان قد وقف خلفنا. كان رجلًا طويل القامة، يرتدي قباءً أسود اللون وطربوشًا أبيض, أما وجهه فكان بيضاويًا طويلًا، وذا بشرة بيضاء، وله لحية كتانية اللون مهذبة تدور حول وجهه. لم ينظر إلينا الرجل، كان موجهًا نظره صوب منصور فحسب. ولما انتبه منصور إليه، خاطبه الرجل بلهجة تركية قائلًا: «هذا القِران الفضي من فئة ألفي الدينار، لسداد دين هذين الواقفين قبل هذا الولد، ولسداد ديون من بعده من الصبية الآخرين الواقفين في الصف. عندما تفرغ، أخبرني كي أبعث إليك بالمال مرة أخرى.»

تسمر منصور في مكانه، وبعد أن مكثت قليلًا، قال: «مرحبًا بالميرزا حسن خان([36])، متى جئت إذ لم أرك؟!»

فقال الرجل ذو القامة الفرعاء: «أعط هذين الصبيين الطعام، كي يذهبا.»

فأردف منصور: «أمرك.»

وتناول القدرين، وأعطاهما للعمال ليعبئوهما بالطعام. وبعد ذلك التفت إلى الميرزا حسن خان، وقال: «الطفل الذي يصيح باكيًا اليوم، سيصبح في الغد رجلًا غِرًا لا تجربة له ولا خبرة. يجب ألا تكترث بأي منهم. إنما أردت من هذا بالطبع أن يتعلم الدرس ويتحمل المسؤولية منذ الصغر، فيفهم أن هذه الدنيا لا تقدم لأحد الخبز بالمجان. »

لم يجب الميرزا حسن خان منصورًا. انتظر قليلًا، حتى عبأوا قدرينا بالطعام، وأعطونا إياهما. ثم ربت بكلتا يديه على كتفينا أنا وشكور من الخلف، وبادرنا قائلًا: «لنخرج من هنا.»

اجتزنا طريقنا بين الصبية المحتشدين الممسكين قدورهم، والناس الذين كانوا يدخلون

ويخرجون، حتى انصرفنا خارج الدكان. وعندما خرجنا، رفعنا رأسينا وطالعنا الميرزا حسن خان، فشكره شكور قائلًا: «بارك الله فيك أيها الميرزا. لولاك، لكان مصيري اليوم الضرب على القَلَقة.»

كما قلت أيضًا: «جزاك لله خيرًا يا سيدي.»

ابتسم الميرزا حسن خان، ثم ما لبث أن قال لشكور: «أعطني قِدرك هذا.»

انتظر شكور قليلًا، ثم رفع قِدره إلى الميرزا بارتياب، فتناول منه الميرزا حسن خان القدر، ثم جثا على ركبتيه برفق أمام شكور. في البداية وضع القدر على الأرض، ثم أمسك بكف شكور اليمنى ورفعها وقال: «افتح يدك.»

بسط شكور أصابعه، فأمسك الميرزا حسن خان إصبع شكور الصغير، وثناه إلى الداخل، وقال: «هذا واحد، أليس كذلك؟»

أما شكور الذي كان قد بدا عليه الاندهاش سكت تمامًا، ولم ينبس بكلمة. وحينها كرر الميرزا ما قد قاله مرة أخرى: «قلت هذا واحد، أليس كذلك؟ أجبني، أليس كذلك؟»

فهز شكور رأسه، وقال: «بلى.»

فقام الميرزا حسن خان أيضًا بثني الإصبع المجاور للإصبع الصغير، وقال: «وهذا واحد أيضًا، أليس كذلك؟»

فأجابه شكور: «بلى.»

فوضع الميرزا حسن خان طرف سبابة يد شكور الأخرى فوق إصبعيه اللذين ثناهما، وقال: «هذا واحد، وهذا اثنان، أليس كذلك؟»

فقال شكور: «بلى.»

فثنى الميرزا إصبع شكور الآخر أيضًا، ثم قال: «إذا أُضيف هذا أيضًا إلى هذين، فسيصيرون ثلاثة، أليس كذلك؟»

فقال شكور: «بلى.»

فقال الميرزا: «هذه الأصابع هي الدين القديم عليك، وواحد أيضًا دين اليوم. الآن أحصهم، وانظر كم عددهم؟»

فأخذ شكور يعد أصابعه المغلقة: «واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة...عددهم أربعة.»

فقال الرجل: «أحسنت، عددهم أربعة، هكذا أنت مدين لمنصور بأربعة شاهيات، لا خمسة، هل فهمت؟»

فهز شكور رأسه موافقًا، وقال: «أجل.»

عندئذٍ ربت الميرزا على كتف شكور من الخلف، وقال: «بارك الله فيك.»

ثم رفع قِدر شكور عن الأرض، وناوله إياه. وبعد ذلك طفق يتفحصني من قمة رأسي إلى أخمص

قدمي، وقال: «ماذا بشأنك؟ يبدو أنك لست من طهران، من أين أنت؟»

فقلت: «من سلطان آباد، ساوه.»

فأردف: «هل جئت مع والديك؟»

تقلقل فكري، ولُجم لساني. فلما أدرك الميرزا حالي، لم ينتظر مني جوابًا. ومن الخلف ربت على كتفي، وقام، ثم ما لبث أن قال: «إلى الأمام قليلًا بعد تيمجة حاجب الدولة، هنالك يوجد دكان أبي الفضل بائع البُلو، إنه أكثر إنصافًا من منصور هذا. فمتى جاءه شخص لا يملك أي نقود ليدفعها، منحه طعامًا بالمجان. فلتذهبا إليه فيما بعد.»

ثم أشار إلى مدخل البازار، وأردف: «عند بوابة قزوين إذا سألتما أي أحد عن حسن رشدية، فسوف يدلكما على عنوان بيتي. أيان عرضت لكما حاجة، فلا ترددا في المجيء إليّ.»

--٨

رحلت أمي عن هذه الحياة دونما سابق إنذار، فجأة، وعلى حين غفلة. وكان رحيلها سريعًا، لدرجة أن أحدًا لم يتصوره. لم تكد أمي تتم عامها الخامس والأربعين، حتى ذات يوم باغتتها نوبة قلبية في أثناء عملها في الفصل، وسقطت مغشيًا عليها في الحال. وعندما نقلوها إلى المستشفى، اكتشفوا أنها كانت تعاني من قصور في القلب. المشكلة التي اتضح فيما بعد من خلال الفحوصات والتحاليل الطبية أنها داء خلقي في القلب، مرض نادر تحمله منذ أن وُلدت يضعف عضلات القلب لديها. وقد يبلغ الوهن بالقلب حد أنه لا يعود بإمكانه أن ينبض بعد، ويتوقف عن العمل بهذه البساطة!

منذ ذلك اليوم غدت أمي يومًا بعد يوم أكثر وهنًا. في البداية كان صعود السلم وهبوطه يعد بالنسبة لها مشكلة، ثم بعد ذلك المشي وحتى الجلوس. وقد أتى عليها حين من الدهر كانت لا بد أن تستخدم أسطوانة الأكسجين عند النوم أيضًا. كانت تمامًا مثل المصباح الذي أخذ ضوؤه يذوي تدريجيًا، حتى أوشك أن ينطفئ. لم تعد أساليب المعالجة الطبية تجدي نفعًا. وكل ما كان يذكره الأطباء من أن آخر حل متاح هو عملية زرع القلب، اتضح فيما بعد أنه لن يجدي مع مثل هذه الحالة المرضية، إذ قالوا إن المرض يتسبب في رفض الجسم للقلب المزروع. هكذا لم يعد هنالك خيار سوى أن تخضع أمي للعلاج بالأدوية، أملًا أن يزول المرض، أو حتى على الأقل يحد من ضرره على القلب.

منذ أن مرضت أمي تغير الجو العام في البيت، كما لو أن شيئًا ما قد سُلب من كل ركن فيه هكذا دفعة واحدة. أما أبي فقد أخذ إجازة طويلة مفتوحة من عمله، وقد تخلفت أنا وليلى عن الانتظام في صفينا الدراسيين. وكنا نتناول طعام العشاء أو الغذاء واجمين في أجواء من الصمت الدامس، ونادرًا ما كنا نتحدث، اللهم إلا في الوقت الذي نجتمع فيه حول فراش أمي. لقد حمل أبي على عاتقه مسؤولية العناية بأمي، إذ كان يقدم لأمي الطعام والدواء في الوقت المحدد، كما شرع في تعلم كيفية إعطاء الحقن، كي يحقن أمي بنفسه، كذلك كان يصطحبها إلى الطبيب المعالج مرة في الأسبوع. أما بقية الأعمال في المنزل فقد كانت في نطاق مسؤوليتي أنا أو ليلى. ورغم أن وجود أمي في البيت قد بات باهتًا شاحبًا، كان أثره لا يزال ملموسًا في حياة كل منا كما كان. فكيفما كانت تتحدث إلينا بين حين وآخر، يغدو ذلك مبعثًا لأن تطمئن القلوب وتتدثر بالدفء. وأحيانًا ما كانت تأتي إلى غرفة الجلوس بمساعدتنا، وتجلس إلى جوارنا، وتشاهد التلفاز. وحينئذٍ كانت تبدأ أجمل أوقاتنا على مدار اليوم، وتستمر إلى أن تشعر أمي بالتعب، وتطلب العودة مرة أخرى إلى غرفتها، لترقد في فراشها، وتخلد إلى النوم. وأحيانًا ما كان يأتي زملاؤها المعلمون وطلابها في المدرسة لزيارتها، وكانت أمي حينها تأتي على هذا النحو إلى غرفة الجلوس، وتجلس وتتجاذب مع رفقائها وطلابها الحديث.

استمر هذا الوضع نحو سبعة أشهر، منذ أن كانت أمي تستطيع المشي، حتى لزمت الفراش. وفي تلك الآونة التحقت بفريق المدرسة للكرة الطائرة. طالما كنت شغوفًا بالكرة الطائرة منذ فترة طويلة، وعندما أخبرني معلم الرياضة في الصف بأنه بإمكاني أن أصبح عضوًا في الفريق، غمرتني السعادة. مثلما فرح أبي وأمي بهذا الأمر أيضًا، إذ راحا يعتقدان أن الكآبة التي اعترتني لمرض أمي سوف تتضاءل بهذه الطريقة، هكذا اعتقدت أيضًا. كما أن ليلى شجعتني على المضي قُدمًا وقالت إنها سوف تسعى أيضًا بطريقة أو بأخرى لتحسين مزاجها. كانت تدريبات الكرة الطائرة

تُقام يومين في الأسبوع بعد الظهر. كنا نرتاد الصالة الرياضية بالقرب من المدرسة ونتدرب، حتى الساعة السابعة مساءً. إلى أن بدأت بطولة المنطقة، وامتدت حينها فترة التدريب إلى ثلاثة أيام أسبوعيًا إضافة إلى أيام الخميس. كانت المباراة ستقام يوم الجمعة، وكنا يوم الخميس، اليوم الذي قبل المباراة، مستغرقين في التدريب حتى الساعة الثامنة مساءً، بحيث وقتما عدت إلى البيت، كان الجو قد أمسى مظلمًا. كان أبي وليلى في المطبخ، فتفقدت غرفة أمي وأبي، وألقيت على أمي التحية، غير أنها كانت نائمة، ولم ترد، فتقدمت إلى المطبخ واستفسرت أبي، فقال: «فور أن تناولت العشاء، خلدت إلى النوم.»

في تلك الليلة تناولت العشاء مع أبي وليلى، وأخبرتهما عن مباراة الغد، وبأنني يجب أن استيقظ غدًا في الصباح الباكر، وأتوجه إلى المدرسة، حتى نمضي من هنالك للمشاركة في المباراة. كان من المفترض أن أستيقظ في تمام الساعة الخامسة وثلاثين دقيقة، كي أمضي الساعة السادسة في طريقي، وأكون قد وصلت إلى المدرسة الساعة السابعة، حيث كانت المباراة ستقام في تمام التاسعة. لكنني صباح يوم الجمعة بقيت مستغرقًا في نومي. وبدلًا من أن أستيقظ الساعة الخامسة وثلاثين دقيقة، استيقظت السادسة وخمس وأربعين دقيقة. هببت من فراشي بسرعة، وارتديت ثيابي، وتناولت حقيبتي الرياضية، وانطلقت خارجًا من الغرفة. كان أبي مستيقظًا يبحث عن شيء ما في أدراج المطبخ. ألقيت عليه تحية الصباح، ودون أن يلتفت صوبي رد عليّ.

فقلت: «لقد تأخرت، تأخرت جدًا.»

فقال أبي: «إذن، أسرع.»

ركضت، وفتحت باب الشقة، فدعاني أبي للحظة: «مجيد!»

استدرت، و قلت: «نعم يا أبي.»

فمكث أبي هنيهة، وقال: «لا شيء. اذهب، لئلا تتأخر.»

فسألته:«هل تحتاج شيئًا؟»

فقال أبي: «كلا.. اذهب أنت.»

خرجت، وأغلقت الباب خلفي. استمرت المباراة إلى ما بعد الظهر. وعندما عدت، رننت الجرس أولًا، لكن لم يفتح أحد الباب. فأخرجت مفتاحي، وأدرته في الباب، وفتحته. بدا المنزل ساكنًا وخاليًا. حينما ولجت إلى الداخل، لم يكن هنالك لا أبي ولا ليلى. اتجهت إلى غرفة أمي وأبي، فلم أجد أمي على فراشها، عندئذٍ دب في نفسي الخوف؛ أدركت أن أمي قد أُصيبت بمكروه. وسرعان ما اتصلت بليلى، لكنها لم ترد. فاتصلت بأبي، ورد عليّ بصوت متهدج مرتعش، وقال: «تعال إلى مستشفى شريعتي.»

خرجت من البيت، واستقللت سيارةَ أجرة. وفور أن وصلت إلى مستشفى شريعتي، اتصلت بأبي مرة أخرى، فقال: «تعال إلى وحدة العناية المركزة.»

وهنالك وجدت أبي وليلى حيث استقبلاني بعيون رطبة محمرة من فرط البكاء. كانت أمي قد دخلت غيبوبة. وعلى ما يبدو فإن الوضع الصحي لأمي قد تدهور منذ باكر ذلك الصباح، وكان أبي يبحث عن أدويتها. ولم أكد أذهب، حتى ساءت حالتها أكثر، فأخطرا نجدة الطوارئ، وجاءا

بها إلى المستشفى، وفي المستشفى دخلت أمي غيبوبة.

لا زلت أتذكر جيدًا كم تمنيت من خلف نافذة وحدة العناية الفائقة أن تظل أمي على قيد الحياة، ولو يوم واحد، ساعة واحدة، ريثما أراها مرة ثانية، وأُقبلها، وأخبرها أنني أحبها، وأودعها. ففكرة أنني لم أكن قد رأيتها البارحة، إضافة إلى أنني لم أتمكن من أن أودعها صبيحة الجمعة أيضًا، كانت تجثم على صدري كالصخرة الرابضة. بكيت خلف النافذة، وتمنيت أن تفتح أمي عينيها مرة ثانية بأي شكل، ولو بقدر يسمح لوداع قصير، لكن هذا لم يحدث. وفي صباح اليوم التالي أسلمت أمي روحها، ورحلت عن الدنيا، وبقيت وحدي والحزن يقطع نياط قلبي.

مع رحيل أمي، ازدادت حالتي سوءًا يومًا في إثر يوم. وطالما شعرت أنني قد تسببت في موت أمي. وجاشت بنفسي أفكار وهواجس شتى، فرحت أفكر في أنني ربما لو لم أخرج من البيت صباح تلك الجمعة، لظلت أمي حية. ورحت أفكر في أن أبي في صبيحة ذاك اليوم كان في أمس الحاجة إلى مساعدتي، في حين أنني تركته يواجه الأمر وحده. لدي يقين جازم بأنه في آخر لحظة قبل خروجي كان أبي قد دعاني، ليطلب مني أن أبقى وأساعده. رحت أفكر في أنني لو كنت ساعدته مثلًا في إعطاء أمي الحقنة أسرع أو في الوصول إلى المستشفى أسرع، لظلت أمي حية. داهمتني أيضًا عشرات من الأفكار السيئة الأخرى التي جعلت حالتي تسوء أكثر فأكثر. وطاردتني في الليل الكوابيس، أما بالنهار فكنت أنفجر في البكاء وحدي، إذ كنت لا أقوى على تصديق فكرة أن أمي قد رحلت للأبد. وبمجرد ما كنت ألمح كتبها، وملابسها، ومتعلقاتها الشخصية، كنت أعجز عن تصديق أن أمي لن تكون هنا بعد الآن. لقد تبدلت مسألة موت أمي في ناظري رويدًا رويدًا، حتى صارت ظُلمًا بينًا ما كان يجب أن يحدث. فتصور أن وفاة أمي قد وقعت نتيجة لمرض خلقي كان قد لازمها منذ أن وُلدت كان أمرًا عسيرًا عليّ للغاية، إذ لم يكن من العدل أن ينشأ موت أمي وحياتها معًا، وأن تلازم أمي علة وفاتها منذ اليوم الذي جاءت فيه إلى هذه الدنيا.

وفي نهاية الأمر قادتني حالتي النفسية المتدهورة إلى عيادة الطبيب النفسي. وخضعت للعلاج تحت إشراف الطبيب النفسي عدة أشهر، تجرعت خلالها الأدوية، وانخرطت في جلسات المحادثات والاستشارات النفسية. حتى تمكنت تدريجيًا من النوم دون رؤية أحلام مزعجة، وقد خفت وطأة شعوري بالاكتئاب مع الأيام. لكنما شيء لم يكن لينسيني أمنيتي الكبرى؛ أمنيتي أن أرى أمي مرة أخرى، وأودعها.

--٩

ربما تكون أعظم نعمة إلهية منحها الله للإنسان هي نعمة النسيان. إذ يغدو بإمكانك أن تنسى الذكريات المريرة. كما تكون قادرًا على محو أيام الماضي الهانئة من ذاكرتك، وتقنع بنصيبك من تلك الدنيا، وتؤمن أن أيامك ما قُدِّر لها إلا أن تمضي على هذا النحو منذ البداية. فأعظِم بالنسيان من نعمة! لقد وصلت لتلك الحال بعد عدة أيام قضيتها في قصر نُويان خان. فنسيت أيامي التي ولَّت وأدبرت، وآمنت بأن قدري ونصيبي كان أن آتي إلى ذلك القصر على النحو ذاته الذي كان، وأقضي سائر عمري بين جنبات ذلك المكان. فكرت في رفاقي في اللعب بقرية سلطان آباد الصغار منهم والكبار. وفكرت في أنهم أحيانًا ما كانوا يختفون من بيننا هكذا مرة واحدة، فيهمس بعضنا إلى بعض بأن آبائهم قد باعوهم. وفي نهاية الأمر خلُصت إلى أن مسألة البيع لدى معظم الأطفال ليست سوى علامة على بلوغهم؛ مثلها مثل الختان، ونبت الشارب، وأشياء أخرى كثيرة. وبفضل هذه التصورات في مخيلتي، كنت أهون على نفسي هول القدر.

كان شكور صديقي المقرب. فهو الشخص الذي قد ساهم منذ اليوم الأول لوجودي في القصر، في جعل الحياة في مثل هذا الفضاء المهيب تبدو أيسر بالنسبة لي. وكم كان طالعي سعيدًا، لأنني منذ أول يوم وصلت فيه إلى القصر قد عُهد بي إليه. وسرعان ما علمني شكور فن نسج السجاد. وها أنا ذا بت أجلس بجانبه، وأعقد الخيوط، وبالمشط أدقها. دائمًا ما كنت أتمنى ألا يصل صبي جديد، لكيلا يأخذ مكاني منه. ومن بين الأشياء الأخرى الطيبة التي حظيت بها في رفقتي لشكور كانت تلك النزهات اليومية لشراء الطعام، هذه النزهات كانت تسمح لي بأخذ قسط من الراحة من العمل على النول يوم بعد يوم. وتجعلني أغير الجو، وأسير، لكي لا تتصلب ركبتاي، وأعاني مثل معظم الصبية الآخرين من آلام في الركبة، وعلة في المشي.

كانت هذه النزهات اليومية نفسها هي السبيل الذي أدى بنا إلى أن نتعرف إلى الميرزا حسن خان رشدية، الرجل الذي أغدق علينا من فيض كرمه ونبله منذ أن التقينا به أول مرة في دكان منصور للبُلو، وأنقذنا من مصير العقاب بالعصا والفلقة. حتى غدونا بعدئذٍ في كل مرة نخرج فيها نطوف ببصرنا باحثين عنه في أرجاء المكان عسى أن نلمحه مرة ثانية. لكن هذا اللقاء لم يصدف قط، إلى أن كان أحد أيام الجمعة صباحًا، وخرجنا من القصر إلى جانب الصبية الآخرين، إذ كان مسموحًا لنا بأن ننطلق في صباحات أيام الجمعة من كل أسبوع لنفعل ما يحلو لنا. كان بعض الصبية يذهب للتجول في الأزقة والأسواق. أما هؤلاء المُستأجَرين الذين كانت بيوتهم في مدينة طهران، فكانوا يذهبون لزيارة أسرهم. في حين كان يفضل بعضهم أن يظلوا نيامًا منذ صباح الجمعة حتى الظهيرة عوضًا عن فعل أي شيء آخر، كي ينالوا قسطًا وافرًا من الراحة، ويحطوا عن أنفسهم إرهاق أسبوع كامل من العمل الشاق والاستيقاظ المبكر في الأيام الفائتة. وكانوا يدفعون لكل منا مرة كل شهرين شاهيين اثنين نفقة الاستحمام، لكي نذهب بها في صباح الجمعة إلى حمام نواب العمومي، لنغتسل ومن ثم نعود.

ذات يوم جمعة خرجت برفقة شكور من أجل التسلي والمرح. فذهبنا إلى ممر الماسية قرب الحصن الملكي، وهنالك شاهدنا موكب عربات الكالياسكا الملكية الفارهة التي تجرها الخيل، وشاهدنا أيضًا قوات القازاقيين([37]) الذين كانوا بثيابهم ذات اللون الأحمر يهرولون إلى جانب العربات الملكية. كنا نشاهدهم راجين أن تخرج عربة الملك أيضًا من الحصن، ونرى الملك ذاته

من قرب. امتدت مشاهدتنا العرض وترقبنا وقتًا طويلًا، من دون أن تطل العربة الملكية. وحينما شعرنا بالإرهاق، آثرنا الرجوع، وسلكنا طريقنا بالفعل نحو البازار. وإذ فجأة رأينا الناس يهرعون مذعورين إلى الناحية الأخرى، حيث كان ثمة صخب وصياح يرتفع من بعيد، من ناحية ممر الماسية. وتناهى إلى سمعنا نحو ثلاثة رجال يصرخون قائلين: «إنهم يدمرون كل شيء... يريدون أن يشعلوا النيران.»

كنت قد تسمرت في مكاني واجمًا، أتأمل الأشخاص الذين كانوا يركضون. أما شكور فقد ربت على كتفي، وقال: «لنذهب، ونستوضح ما الأمر.»

ثم بعد ذلك ركضنا أيضًا مع الأناس الآخرين إلى الجهة التي كان هؤلاء يركضون نحوها. ولم يكد يمضي وقت طويل، حتى تباطأت سرعة الراكضين، وأخذت تلك الحشود تتدافع بعضها خلف بعض، وتتوقف تدريجيًا. غير أن شيئًا لم يبد لنا ظاهرًا. كان هنالك فقط صخب وصياح، وأصوات دق فؤوس ومعاول. راح الناس يتفقدون الأمر من حولهم، ليروا ما يحدث. ولأننا كنا صغيرين، ولا تكاد رأسانا تبلغ حتى أكتاف هؤلاء الواقفين أمامنا، رأينا أن المخرج الوحيد لكي نرى الحادث هو أن ننتقل من بين سيقان الناس الواقفين أمامنا، وبهذه الطريقة نوصل نفسينا إلى الصفوف الأمامية، وهذا ما فعلناه تمامًا. وكم من قدم ركلتنا، وكم أُمطرنا بوابل من السباب، حتى تمكنا في نهاية الأمر من أن نصل إلى الصف الأول. حينئذٍ رأينا جماعة من الناس يخرجون من داخل مبنى صغير أغراضًا وأثاثًا مثل طاولات رفيعة، دكك خشبية، خزائن، كراسي غرضًا تلو الآخر، ويلقونها بقوة على الأرض، ويهشمونها. وعلى مسافة أبعد قليلًا كان قد وقف رجل بدين بمعدة بارزة تمتد أمامه، وكان لا ينفك يصرخ. كان يرتدي ثوبًا أبيض اللون طويلًا بياقة مُزَرَّرة، ويربط وشاحًا بني اللون أسفل معدته البارزة، وكان وجهه مسفوعًا من الشمس، وبشفتين غليظتين داكنتين، وقد غلب على أسنانه اللون الأصفر، بحيث عندما يصيح، تُرى بوضوح من بين شفتيه الداكنتين. كان الرجل يتصبب عرقًا، ويصرخبانفعال: «اكسروا، حطموا.... احرقوا معدات الإثم والضلال هذه... حطموا دار الكفر هذه....»

ومع سماع أولاء الذين كانوا يخرجون من البيت صوت هذا الرجل، طفقوا يلقون كل ما يخرجونه من البيت بالأرض بشدة أكثر من ذي قبل، ثم يعودون مرة أخرى داخل البيت بحماس. وفي الوقت ذاته كان بعض الأشخاص قد انقضوا بفؤوسهم ومعاولهم على جدران البيت من الداخل والخارج يقوضونها. وبعد فترة وجيزة جاء شاب فرع نحيف، يرتدي قباءً ذا ثنيات، ويعتمر قبعة سوداء وأحضر معه جذوة كبيرة من النار، فألقاها على ركام المتاع المحطم أمام البيت. ولم يكد يمضي وقت طويل، حتى أضرمت النيران في ذلك الأثاث والمتاع، وقد أتت النيران هذه المرة على كل شيء كان يخرج من البيت. أنشأ كثير من الناس يهللون تزامنًا مع تصاعد ألسنة النيران. في حين كنا لا نزال واقفين نتأمل المشهد بدهشة وقد التهبت عيوننا من رؤية ألسنة اللهب. ثم جاء رجل بدين وشق طريقه بين جموع المحتشدين، وأوصل نفسه أمام المبنى. كان يحمل بيده صندوقًا أسود، فأخرج منه أنابيب بعرض عُصيّ خشبية. ومع مجيئه راح الرجل الذي كان يصرخ يرفع من صوته قائلًا: «دمروا دار الكفر هذه...»

ثم فجأة دوى ضجيج من بين الحشود: «ديناميت... متفجرات... تراجعوا، فسوف تنفجر الآن!»

فتراجعت الحشود إلى الوراء مفزوعة هكذا دفعة واحدة ولاذت بالفرار، لدرجة أن بعض

الأشخاص قد تعثروا في طريقهم، وديسوا تحت الأقدام. وارتفع الصخب والصراخ من كل حدب. لقد هربنا نحن أيضًا، وتراجعنا إلى الوراء، حتى وقفنا على مسافة بعيدة نسبيًا، ومددنا بصرينا إلى البيت. وعما قليل، رأينا الرجل البدين الذي كان قد دخل البيت خرج مسرعًا، كما تلاه نحو ثلاثة أشخاص آخرين، واجتازوا ألسنة النيران المتقدة. ولم يكد يمضي وقت يُذكر حتى دوى انفجار مهيب، تزلزلت على إثره الأرض، وتهاوت جدران البيت تمامًا، وتقوضت بالكامل. واختلط دخان الحريق بغبار البيت المهدوم معًا، حتى غطيا سائر أنحاء المكان. ولفترة من الوقت لم يكد شيء يبين. ثم خمد الغبار قليلًا قليلًا، ومرة ثانية لاحت ألسنة النيران المتوارية خلف حجب الغبار. استدار بعض المتفرجين، ومضى كل منهم إلى شأنه. أما بعضهم الآخر فقد تقدموا آملين أن يشاهدوا حادثة أخرى، فتحلقوا مرة ثانية حول النيران التي نشبت في أكوام الكراسي والدكك المحطمة. ولكن بعد فترة من الوقت، ولما لم يحدث جديد، اتخذوا سبيلهم، وتابعوا طريقهم تدريجيًا. أما الرجل البدين الذي قد أمر بهدم البيت وإحراقه، فكان قد انصرف قبل انفجار المتفجرات. مثلما كان هؤلاء الذين يضرمون النيران في الأثاث والمتاع قد غادروا المكان. ووسط دائرة المحتشدين سمعناهم يكررون عدة مرات كلمات من قبيل المدرسة، المدرسة الجديدة، الدرس الجديد، الكُفر وغير ذلك. وعلى هذا النحو فهمنا أن ذاك المكان الذي قد استحال يبابًا لم يكن سوى مكان يتعلم فيه أولاد الناس درسًا جديدًا.

فرغت دائرة المتفرجين من الناس تدريجيًا، وقد عزمت أنا وشكور على العودة أيضًا، حتى رأينا خلفنا رجلًا طويل القامة كان يرتدي قباءً منسدلًا أسود اللون ويعتمر طربوشًا أبيض يسير بسكينة ووقار نحو أطلال المدرسة. بيد أن قامته الهيفاء وطربوشه الأبيض قد بدا كل منهما مألوفًا بالنسبة لنا. وبمجرد أن وصل أمام الخرابة، جثا بهدوء على ركبتيه، وطفق يحرك قوالب الطوب المتراكمة على بعضها، كما لو أنه ينبش عن شيء من بينها. ثم بعد فترة وجيزة من التقليب في الطوب والتراب، تناول كِسرة طوب من وسط هذه الأنقاض، وقام، والتفت إلى حشد المتفرجين الذين كانوا لا يزالون واقفين بعد، ثم رفع قطعة الطوب بيده، وهتف: «لقد هدموا تلك المدرسة التي قد أنشأتها وأعددتها بشق الأنفس. ألا فاعلموا أن كل طوبة من هذه على حِدة سوف تصير ذات يوم مدرسة في كل ركن من أركان هذه المملكة.»

ثم أنزل الطوبة، وألقاها فوق كومة الطوب الآخر المكسور. وسرعان ما عرفناه أنا وشكور، كان الميرزا حسن خان. وفطنا إلى أن هذا المبنى الخرب الذي يُعد ملكًا له هو في الأصل مدرسة؛ مدرسة كان قد بناها بكده وتعبه. نظرنا أنا وشكور بعضنا إلى بعض. إنه صديقنا، الشخص الذي سبق أن أسدى لنا معروفًا، و تصرف معنا بنبل وكرم، والآن يجب علينا ألا نتركه وحده. تقدمنا معًا. كان الميرزا حسن واقفًا أمام الناس شاردًا بنظره كما لو كان ينظر إلى أفق بعيد. وكانت تحيط بعينيه غشاوتان حمراوان. وقد انفلتت أزرار قبائه العلوية، وأخذ صدره يعلو وينخفض، نتيجة لالتقاطه أنفاسًا عميقة متلاحقة. لم يكن قد رآني بعد أنا وشكورًا، فاقتربنا منه، ووقفنا أمامه، ورفعنا رأسينا وألقينا عليه السلام. فنظر الميرزا حسن خان إلينا بهدوء، ولوهلة تبدل لون عينيه، كما لو أن نورًا أبيض قد بزغ خلف الغشاوتين الحمراوين تينك اللتين كانتا تغطيانهما. نظر إلينا، وابتسم، وقال: «لا تقلقا حيال هذا الأمر، سأبني ذات يوم واحدة أخرى.»

وبعد ذلك وكما لو أنه عرفنا فجأة تبدل مزاجه، وأخذ نفسًا عميقًا، وقال مندهشًا: «أهذان أنتما؟! أأنتما نفسكما اللذان كنتما في دكان البلو؟!»

أجبناه معًا: «أجل.»

فوضع الميرزا حسن خان كلتا يديه على كتفينا، وقال: «افتقدتكما كثيرًا. كان من المفترض أن تأتيا لزيارتي.»

نظرنا إليه فقط، ولم نقل شيئًا. لكنه في المقابل ضحك، وأشار إلى الأنقاض خلفه، وقال: «كانت هذه هي المدرسة الرابعة. لقد دُمرت ثلاث مدارس أخريات في تبريز، وتلكم كانت الأولى في طهران.»

ثم نفض عن ثيابه التراب، وقال: «لنذهب، لنتناول الفالودة([38]) على حسابي يا ضيفي العزيزين.»

ووضع يديه مرة أخرى على كتفينا، والتمس منا أن نمضي. لم أكن أدري أنا وشكور ما يقول، حينئذٍ قال الميرزا حسن خان: «هيا امضيا، لا تخافا، لن نتأخر سنعود سريعًا. فالودة جمشيد مشهورة في كل أنحاء طهران، سوف نأكل الفالودة مع بعضنا، ونتحدث قليلًا.»

فتحولنا إلى الوجهة التي أراد، ومضينا في طريقنا. وقال الميرزا حسن خان من خلفنا: «بعد ذلك سوف نستأجر عاملًا أو اثنين، ليجمع هذه الحاجات والأمتعة، وننتقي من بينها قوالب الطوب السليمة، لنستخدمها مجددًا في بناء المدرسة الجديدة.»

لم نكد نمضي بضع خطوات، حتى اعترض طريقنا فتى قادم من جانب الشارع. كان قصير القامة هزيل الجسد يرتدي قباء رمادي اللون ذا رُقع. ثم إذ به يلقي بقوة الحجر الذي كان بيده تجاه الميرزا حسن خان، وفجأة دوى صوت خبطة قوية، وصاح الميرزا حسن خان قائلًا: «آه!»

استدرنا نحو الميرزا. كان يغطي بكلتا يديه جبهته. جلس على الأرض بالتدريج، وتوجع مرة ثانية قائلًا: «آه!»

حينئذٍ هتف الفتى الذي كان قد ألقى الحجر قائلًا: «كافر!»

ثم فر هاربًا، وانصرف. وبينما كان الدم يتقطر من بين أصابع الميرزا الملتصقة بجبهته، إذ به يقول دون أن ينظر إلينا: «يوجد منديل في جيبي، أخرجاه، وأعطيانيه.»

وضعت يدي في جيبه بسرعة، فتعثرت يدي بشيء ما مثل حلوى السكر. فقال الميرزا حسن خان: «ليس هذا، بل جيبي الآخر.»

أخرجت منديلًا كبيرًا من جيب قبائه الآخر، وأعطيته إياه. فتناول الميرزا حسن خان المنديل، ووضعه على جبهته. ثم سحب نفسًا عميقًا، وقام، وقال: «سنذهب أولًا إلى صيدلية([39]) شفيرين، ثم من بعدها نذهب لنتناول الفالودة.»

وتحرك مجددًا، كذلك مشيت أنا وشكور بجانبه. بيد أننا لم نكد نمضي بضع خطوات أخر، حتى قدم نحونا رجل هرم مذعور يضع على رأسه قبعة من اللباد، وقد برز شعره الشائب الطويل من تحت القبعة. وبينما كان يتحدث إلى الميرزا حسن خان باللغة التركية، احتضنه، ومسد رأسه. وفي حين كانت الدموع تنهمر من عينيّ الرجل أمسك بيد الميرزا حسن بوجه مبلل بالدموع، واجتذبه، كي يأخذه معه. لكن الميرزا لم يذهب معه، وأجابه بكلام تركي، وبعد ذلك عرضني أنا وشكورًا أمامه. تأملنا الرجل الهرم نحن الاثنين قليلًا، ثم تحدث إلينا ببضع كلمات

تركية. ولما وجدنا لا نفهم اللغة التركية، تحدث إلينا بلغة فارسية ممزوجة بلهجة تركية حادة، قائلًا: «مهما ألح عليه، فإنه لن يقبل. يقول إنه يريد أن يذهب معكما، لذا فإنني ألتمس منكما أن تعتنيا به جيدًا.»

أمسكت بيد الميرزا حسن خان، وأمسك شكور بيده الأخرى وأخبرناه أن يطمئن قلبه، فإننا سوف نرافقه في الطريق، ولن نتركه. عندئذٍ تحدث الرجل الهرم ببضع كلمات أُخر إلى الميرزا باللغة التركية، ثم ما لبث أن عاد من حيث أتى، كما واصلنا طريقنا إلى صيدلية شفيرين. كانت صيدلة شفيرين تقع في آخر شارع الماسية، في الطريق ذاته الذي يوصل إلى الحصن الملكي. وفي أثناء الطريق وبينما كان الميرزا حسن خان لا يزال يضغط بالمنديل على جبهته، قال: «لم أركما منذ فترة طويلة، لمَ لمْ تأتيا لزيارتي؟»

فقال شكور: «لأننا كنا في العمل يا ميرزا، غير مسموح لنا بالخروج.»

فقال الميرزا: «نسج السجاد، أليس كذلك؟»

فقلت: «بلى... هذا صحيح.»

فقال الميرزا: «يجب أن تدرسا، لا أن تعملا. يجب أن تدرسا،يجب أن تدرسا.»

ومع كل كلمة كان صوته يرتفع أكثر، ووجهه يزداد احمرارًا. ثم ما لبث أن لزم الصمت، حتى وصلنا إلى صيدلية شفيرين. كانت الصيدلية دكانًا كبيرًا نظيفًا يبيع كل أنواع الدواء. وفور أن دخلنا، رأينا السيد شفيرين نفسه. كان رجلًا أجنبيًا يرتدي قميصًا أبيض اللون سادة وبنطالًا أبيض مقلمًا بخطوط سوداء، أما كمر البنطال فمزود بحمالتين سوداوين معلقتين على كتفيه. وكان وجهه نضرًا، ويلمع، ويرتدي نظارة مستديرة رقيقة. عندما دخلنا كان واقفًا خلف منضدة البيع في الصيدلية ويضع شيئًا ما في كأس. حينئذٍ ألقى عليه حسن خان التحية، فرفع رأسه، ومع رؤيته وجه حسن خان الملطخ بالدماء، قال بلهجة غريبة: «يا إلهي! أي شيء دهاك؟! ما الذي حدث؟!»

فأجابه الميرزا: «لا شيء، لقد سقط حجر من الجدار، وارتطم بجبهتي. هذان الفتيان ساعداني على المجيء إليك، فضع عليها ضمادة أو شيئًا من هذا، واربطها، حتى أمضي لشأني.»

حدق شفيرين باستغراب إلى وجه الميرزا ووجهي وشكور، ثم التفت إلى الميرزا، وقال: «اقترب، لأرى كيف تبدو حالتك؟»

تقدم الميرزا، وأزال المنديل عن جبهته. تفحص شفيرين وجهه، ثم قال: «الوضع سيئ للغاية، أي حجر هذا الذي سقط عليك؟!»

فقال الميرزا: «لا بأس، يا سيدي، ضع ضمادة و...»

ولكن شفيرين قاطعه، وقال: «إن الضمادة لا تصلح مع مثل هذا الجرح، بل يجب أن يُرتق. هنالك كسر بالجبهة، الأمر يتطلب خياطة جراحية.»

فقال الميرزا: «يا عزيزي، ألا يمكنك الآن أن تربط جبهتي سريعًا هكذا؟»

فأجابه شفيرين: «كلا... كما يبدو فإن الدم ما زال ينزف من جبهتك ميرزا حسن خان، لذا يجب أن يُخاط الجرح.»

التفت إلينا الميرز، وقال: «لقد وقعنا في مأزق!»

ثم ما لبث أن التفت إلى شفيرين قائلًا: «هل سيستغرق الأمر وقتًا طويلًا؟»

فأجابه شفرين: «كلا، لن يستغرق منك وقتًا طويلًا.»

وبمجرد أن وافق الميرزا على أن يقوم شفيرين بخياطة جرح جبهته، اصطحبه شفيرين إلى خلف منضدة البيع. في البداية أحضر طست ماء، وبمنديل طفق ينظف وجه الميرزا الملطخ بالدماء، وما حول جرحه، ثم شرع في معالجة الجرح. جلست أنا وشكور على كرسيين إلى جانب الباب الزجاجي للدكان، فتارة كنا نشاهد الدكان من الداخل ونراقب ما يفعله شفيرين، وتارة أخرى نلتفت لنشاهد تحركات الناس جيئة وذهابها خارج الدكان. وفي أثناء عمله كان شفيرين يتحدث إلى الميرزا، غير أن صوته لم يكن يصل إلى أسماعنا. ومع لهجته الغريبة في الكلام، وحركاته وتصرفاته، وظاهر هيئته بدا هذا الأمر، بالنسبة لشخص مثلي لم يكن قد رأى حتى ذلك اليوم أي شخص أجنبي قط، أمرًا مذهلًا ورائعًا للغاية. وحينما فرغ شفيرين من عمله، ربط قطعة بيضاء من القماش حول جبهة الميرزا حسن خان، وطلب منه أن يقوم، فقام الميرزا. كانت قطعة القماش البيضاء قد وصلت إلى أسفل حاجبه الأيمن حتى غطته، وهكذا كان مضطرًا إلى أن يضيق عينه اليمنى كي يتمكن من الرؤية. نظف الميرزا قبعته البيضاء، ووضعها على رأسه، ودفع لشفيرين أجرته، ثم طلب منا أن نهم بالذهاب. مضينا حتى بلغنا البازار. ولما لم يكن دكان جمشيد لبيع الفالودة ببعيد، وصلنا سريعًا.

كان قد جلس أمام الدكان صبيان كفيفا البصر يرتديان أسمالًا بالية. فما نظرت إلى وجهيهما، إلا ورأيت جفونهما ملتصقة بعضها ببعض، وقد غطت رموشهما مادة صفراء اللون. وبينما كان الصبيان يتسولان، توقف الميرزا حسن خان لديهما، ثم ما لبث أن ألقى بعملة معدنية داخل الوعاء الذي كان على الأرض أمام الصبيين. وبعد ذلك دخلنا. كان دكان الفالودة يعج بالزبائن، حيث كان أناس كثر قد جلسوا على المقاعد، ويتناولون الفالودة. ومن أمام الباب طلب الميرزا حسن خان من الرجل الذي كان يكسر الثلج في برميل خشبي كبير ثلاث سلطانيات من الفالودة. ثم مضينا، وجلسنا على أحد المقاعد. كانت رائحة الدكان تعبق بماء الورد، ومقطرات عشبية أخرى لم أعهد رائحتها من قبل. ولأنني لم يسبق لي أن تناولت الفالودة قط، فمع رؤية أولئك الذين كانوا يجلسون من حولي، ويتناولون الفالودة في سلطانيات شفافة من الزجاج، جرى ريقي. فهتف الميرزا بالرجل: «أسرع.»

وعما قليل جاء صبي في مثل سننا، ووضع ثلاث سلطانيات زجاجية من الفالودة أمامنا. نظرت داخل السلطانية، ورأيت تلك الخيوط البيضاء المتعرجة المتشابكة التي قد سُكبت بين قطع الثلج، وغمرهما شراب قرمزي اللون. عندئذٍ قال الميرزا حسن خان: «كُل.»

كان وجه الميرزا شاحبًا، ولحيته المهندمة قد صارت شعثاء، وشفتاه كانتا بيضاوين ومتيبستين. حينئذٍ رمقني ببصره من تحت المنديل الذي قد عصبت به جبهته، ثم ابتسم، وقال: «كُله.»

تناولت الملعقة التي كانت في منتصف السلطانية، وقلبت خيوط الفالودة قليلًا، ثم وضعت ملعقة منها في فمي. ولقد أعجبني حقًا مزيج الطعم الحلو والبارد للفالودة. فابتسمت عفويًا، وقلت: «إنها لذيذة.»

كما تناول شكور أيضًا ملعقة منها، وقال: «أجل.»

فأومأ الميرزا حسن رأسه موافقًا، وقال: «أجل، إنها لذيذة بالفعل. هيا كُلا.»

ثم وضع ملعقتين منها على التوالي في فمه. تناولت أيضًا ملعقة أخرى، ونظرت مجددًا إلى الميرزا حسن خان، فتناول الميرزا ملعقة ثالثة، ثم شب برأسه، وكما لو أنه يحاول أن ينظر إلى مكان ما من فوق رأسينا، قال: «إنهم يقولون أن المدرسة الجديدة ليست سوى مأوى للكفر، يقولون أن علم الجغرافيا يجعل الأطفال لا يؤمنون بوجود الله، يقولون أنني كفرت.»

ثم رفع صوته مرة واحدة، وقال: «إنني لست بكافر، فالمعرفة والعلم لا يتولد عنهما الكفر، هؤلاء الجهلة هم الكافرون. إنما الكافر هو الجاهل، من لا يحيط بالحقيقة علمًا. وإذا لم يكن الأمر كذلك، فلمَ قيل إذن إن أفضل عباد الله ذلك الذي يفوق الآخرين علمًا. لا يمكن للعالِم أن يصير كافرًا، أما الجاهل فيصير، لأنه جاهل، لأنه لا يملك المعرفة، لأنه لا يعلم شيئًا.»

ثم صمت. نظرت حولي، إذ كان بقية الجالسين من حولنا قد انتبهوا، وأخذوا يحدقون إلينا. لكن بعد فترة قصيرة أردف الميرزا حسن خان بصوت أكثر انخفاضًا: «إن الجهل يجلب الفقر، مثلما يجلب الفقر الجهل. ولإنقاذ الناس من كل هذا البؤس، لا بد أن نقضي على الجهل.»

توقفت أنا وشكور عن الأكل، وفجأة انتبه لنا الميرزا، وقال: «كُلا، تناولا الفالودة.»

ووضع نحو ثلاث ملاعق متتالية في فمه. وفي أثناء تناولنا الفالودة، تردد في نفسي أمر العودة، فمن المؤكد أن وقت الظهر قد حان. نظرت إلى شكور، وقلت: «لقد تأخر الوقت.»

فتذكر شكور فجأة أيضًا، وقال: «أجل، يجب أن نذهب.»

والتفت إلى الميرزا حسن خان، وقال: «شكرًا جزيلًا، يا ميرزا. لقد تأخرنا، فلتذهب معنا إذا سمحت، كي نوصلك إلى المنزل، ثم نمضي في إثر عملنا.»

فنظر إلينا الميرزا حسن خان من تحت المنديل حول جبهته، وقال: «تريدان أن تذهبا الآن؟»

فقلت: «سنوصلك أولًا، ثم نذهب.»

فضحك الميرزا، وقال: «لا داعي لأن توصلاني، سأذهب بنفسي. إنني بأفضل حالٍ.»

فقال شكور: «لا نقصد التقليل من شأنكم، لكن ذهابنا معك سيكون أكثر حيطة وأمانًا.»

فوضع الميرزا حسن خان يديه على ركبتيه متأهبًا للقيام، وقام من مجلسه، ثم قال: «قوما، لنذهب، أمضي لشأني، وتمضيان لشأنكما.»

قام ثلاثتنا، ونزلنا عن المقعد. ثم ألقى الميرزا حسن خان أمام باب محل الفالودة بعض العملات المعدنية في خزانة إيراد المحل، وخرجنا منصرفين. كان الطفلان الكفيفان لا يزالان جالسين أمام المحل، فنظر الميرزا حسن خان إلى الطفلين، وأخرج عملة أخرى من جيب قبائه الأسود وألقى بها في الوعاء الخزفي للطفلين، ثم ما لبث أن قال: «تراخوما.»

ولما لم نكن أنا وشكور قد فهمنا معنى هذه الكلمة، رمقنا إليه النظر. أردف الميرزا: «إن سبب إصابة معظم الأطفال في طهران بالعمى هو مرض التراخوما، والتراخوما مرض ينتج عن التلوث والقذارة، والتلوث والقذارة منشأهما الجهل والأمية. وكيفما ظلت المدارس تُحرق، فسيعمى مزيد من الأطفال و(أشار إلى جرح جبهته) ووقتئذٍ لا سبيل لنا سوى أن يرتق جرحنا الصغير

شخص قدم إلينا من الجانب الآخر للعالم من بلد تبعد عنا آلاف الفراسخ.»

ثم تنهد، ونظر إلى نهاية ممر البازار. بعد ذلك التفت إلينا، وقال: «حسنًا، اذهبا أنتما الآن. لقد أتتكما الفرصة اليوم، لرؤيتي. سوف أنشئ هذه الأيام بمشيئة الله مدرسة أخرى، وربما حينها أجيء إلى رب عملكما أستأذنه، كي تنتظما في الصف الدراسي بالمدرسة، وتدرسا.»

فقال شكور: «سوف نذهب معك...»

فقاطعه الميرزا حسن خان، وقال: «ما من داعٍ لذلك... اذهبا، اذهبا، لئلا تتأخرا.»

وما لبث أن وضع يديه خلف كتفينا. ودفع بنا نحو الطريق بكثير من الرفق، فودعناه مضطرين، ومضينا في طريقنا، كما مضى الميرزا حسن في الاتجاه المعاكس لنا. لقد كان رفقه بنا مع ما قد شهده من ظلم يثير في نفسينا كوامن الحزن والشجن. ولم نكد نمضي بضع خطوات، حتى قال شكور: «إني لأخشى أن يضربوه مرة أخرى.»

داهمني القلق أيضًا، وقلت: «يجب ألا نتركه يذهب وحده. إن ساءت حالته، فلا بد أن يكون هنالك شخص بجانبه.»

فأردف شكور: «لنعد إذن، ونسير خلفه على الأقل.»

استدرنا، ونظرنا إلى الطريق الذي جئنا منه، حيث لم يكن ثمة أثر للميرزا. ركضنا قُدمًا، وحاولنا أن نعثر على أثر له بين هؤلاء الناس الذين كانوا يذرعون السوق جيئة وذهابًا. لكننا لم نستدل عليه. دققنا النظر داخل المحال، وكذلك الحال داخل الأزقة. كان عدم رؤية الميرزا يُرْبِي فينا القلق، إلى أن رأيناه على حين غرة . رأيناه واقفًا على عتبة زقاق منعزل يعطي ظهره للناس، وقد أسند رأسه إلى الجدار، فتقدمنا بهدوء. وكلما كنا نقترب، نرى كتفيه تهتزان. وبعدئذٍ تناهى إلى أسماعنا صوت نشيج بكائه.

--١٠

قالت ليلى: «حسنًا، لم لا تذهب، وتراه من قرب؟»

فقلت: «أهذا يعني أنك تعتقدين أنه لا يزال موجودًا حتى الآن؟»

فقالت: «لن تضيرك التجربة شيئًا، اذهب، وألق بنفسك نظره فاحصة. إن كان موجودًا فخير. وإن لم يكن، فلن تخسر شيئًا.»

فقلت: «لا بد أن أبحث، لأجد مكانه.»

فأردفت ليلى: «لقد كتب بنفسه أنه يقع في حي عود لاجان، وعود لاجان بالفعل قريب من البازار، أليس كذلك؟»

فقلت: «أعتقد أننا سوف نتصفح شبكة الإنترنت، ونفهم ذلك. كان قد ذكر في مكان ما اسم الزقاق أيضًا، هذا بالطبع ما لم يكن قد تغير.»

فقالت: «أجل، كان قد ذكر اسمه، ولكنني نسيت. ألْق نظرة في الورق مرة أخرى، لترى ما اسم الزقاق. أعتقد أن هذا أمر كافٍ، لأن نهتدي إلى مكانه.»

فقلت: «أجل، لن يستغرق البحث منا وقتًا، طبعًا ما لم يكونوا قد هدموه. إذ إنهم الآن يهدمون البيوت القديمة في كل الأماكن، ليشيدوا مكانها شققًا سكنية في بنايات متعددة الطوابق.»

فأومأت ليلى برأسها، وقالت: «أنت محق، ولكنني أتمنى بالفعل ألا يكون قد هُدم.»

ثم سألتها: «هل ستأتين أيضًا؟»

ففكرت لوهلة، ثم أجابت قائلة: «ربما آتي، ولكن ليس قبل أن أفهم شيئًا ما أولًا.»

فقلت: «أي شيء هذا؟!»

فقالت: «أفهم ألهذا الموضوع علاقة بالظروف التي مررت بها خلال هذا العام ونصف العام، أم لا.»

فسألتها مستغربًا: «ماذا تقصدين؟!»

فقالت: «أنت تعلم جيدًا، هنالك أشياء كثيرة في هذه المذكرات من الممكن أن تكون مرتبطة بالأفكار التي راودتك خلال هذه الفترة، إن...»

فقاطعتها في أثناء حديثها، وقلت مستنكرًا: «وهل تعتقدين أنني طوال هذه الفترة قد تصرفت تصرفات جنونية للغاية؟!»

حاولت ليلى أن تتحلى بالحكمة والهدوء، فقالت: «لا تسميها تصرفات جنونية. إنني أيضًا لست بأفضل منك حالًا، لقد عانيت في تلك الفترة ما عانيت. ولكنني حاولت أن أحكم نفسي، لأجلي ولأجل أبي أيضًا. لقد نبذت هذا العام كل شيء جانبًا، وتشبثت بالدراسة، لأجتاز اختبارات القبول، وألتحق بالجامعة في الحال، لأنني لا أريد أن يعتقد أبي أن رحيل أمي جعلني أتخلف في الدراسة، ولا ينفك عن لوم نفسه.»

فكرت قليلًا في كلام ليلى، ثم خاطبتها بنبرة تشبه نبرتها في الحديث: «انظري، إني وإن كنت أريد أن أقتفي أثر هذا القصر، وأنساق وراء ذلك الدليل فهذا لمجرد أنني أريد أن أتحقق من مدى دقة أقوال رضا قلي ميرزا ذاك. وإذا كنت أريدك أن تأتي معي، فهذا لأنني أريد أن يرافقني شخص على علم بمجريات الأمور، وهذا كل ما في الأمر. أما هذا الموضوع فلا يمت بصلة لأي شيء آخر.»

زمت ليلى شفتيها امتعاضًا، ومكثت هنيهة، ثم قالت: «وإن كان رضا قلي ميرزا صادقًا فيما قاله، ما الذي سيحدث؟»

فقلت: «لا شيء، سوف يُجاب عن سؤال كبير يدور في خلدي فقط.»

فأردفت ليلى: «ألن تنتظر حينئذٍ أن تتكرر معك تلك الحادثة؟!»

فقلت: «لقد كبرت بما فيه الكفاية، لأدرك أنه إذما وقع أمر معين لأحد الأشخاص، فليس بالضرورة أن يتكرر مع الآخرين أيضًا.»

أخذت ليلى نفسًا عميقًا قبل أن تقول: «سوف تنتهي دروسي مبكرًا طيلة أيام الاثنين.»

فقلت وقد ارتسمت على وجهي ملامح الحبور: «حسنًا، سنذهب هذا الاثنين. وقتما تأتين، نتناول الغذاء، ثم نذهب على الفور.»

فقالت ليلى: «موافقة.»

بحثت في شبكة الإنترنت، حتى استدللت على حي عود لاجان. كانت المسافة بين تقاطع سيروس، وساحة سبزه ميدان طريقًا يمكن أن نسلكه بواسطة مترو الأنفاق. وهكذا فإنني وليلى بدأنا نتحرك بعد ظهر يوم الاثنين، فركبنا المترو، ثم بعد أن بدلنا القطار مرة واحدة فقط، نزلنا في محطة الخامس عشر من خُرداد الأقرب إلى البازار. وقرب محطة المترو كانت هناك عدة عربات تجرها الأحصنة مصممة على الطراز القديم، تنقل الناس، فقالت ليلى: «يا له من أمر ممتع!»

فقلت: «هل من الممكن أن نركب إحداها؟»

فقالت ليلى: «لنركبها إذن.»

ركبنا. ومضت بنا العربة مهتزة، حتى وصلنا إلى تلك الحشود المزدحمة أمام البازار. كانت أعداد هائلة من الناس يتنقلون في كل مكان سواء كانوا ممسكين بأغراض أم لا. وكان الحمالون هنا وهناك يحملون على العربات اليدوية أو الدراجات النارية صناديق كرتونية، وأكياسًا كبيرة، وطاقات أقمشة. حينئذٍ توقفت بنا العربة في ساحة ميدان سبزه، حيث كانت نهاية الطريق، فترجلنا من العربة. ولما سألنا المارة أي طريق ينبغي أن نسلك لنصل إلى تقاطع سيرويس، دلونا على الطريق. فواصلنا السير في الطريق ذاته الذي كنا قد قطعناه بواسطة العربة، حتى وصلنا إلى بداية شارع ناصر خسرو. وعندما مررنا من هناك بدا الزحام أخف وطأة، في حين كانت السيارات لا تزال تتحرك في الشارع. استفسرنا عن حي عود لاجان، فقالوا امضيا أمامًا، فتقدمنا، حتى وصلنا إلى مدخل بازار صغير مسقوف يبدو أنه قد جُدد حديثًا، حيث كان قد خُط على واجهته عبارة بازار عود لاجان([40]). وعندما ولجنا ممر هذا البازار الصغير، كانت المحال التجارية الواقعة على جانبي الممر تبيع شتى أنواع البضائع والسلع التي تجذب ذائقة السياح وتحظى

بقبولهم. كانت أعمالًا يدوية من مختلف المدن من أعمال خشبية مطعمة بقطع الفسيفساء، وقطع خشبية محفورة لتبدو أعمالًا نابضة بالحياة، وقطع فنية أخرى مصنوعة من النحاس، إلى الأقمشة المحلية المطبوعة والمنقوشة بالرسوم، والمفارش الحريرية للمائدة. والآن كان يجب أن نعثر على زقاق صاحب الديوان. ولما سألنا أخبرونا بأنه يجب أن نذهب إلى الحي القديم بامتداد البازار نفسه. فواصلنا السير في البازار إلى حيث انتهى بنا، فوصلنا إلى عدد من الأزقة القديمة المتشابكة مع طيقان البيوت، وأشجار الدلب السامقة التي تطل من داخل أفنيتها. كان البازار لا يزال ممتدًا إلى هنالك، حيث كنا نشاهد المتاجر الصغيرة، وورش تصنيع الأحذية والحقائب في أثناء سيرنا من مكان لآخر.

ولما وصلنا إلى زقاق كان قد كُتب فوقه حمام نواب، تحمست للغاية، وأخذ قلبي يخفق. كان هذا هو الحمام نفسه الذي كان فرُّوخًا قد ذكر أنه قد رأى بداخله الجن؛ أول دليل على أن المكان الذي سبق أن قرأت عنه كان موجودًا بالفعل. أريت ليلى لافتة الزقاق تلك. كانت ليلى هي الأخرى لا تزال تتذكر موضوع الحمام والجن، فقالت: «يا له من أمر مدهش! دعنا نذهب لنرى أهنالك حمام بالفعل أم لا.»

انعطفنا داخل الزقاق، ورأينا في نهايته باب الحمام الكبير، الحمام الذي كان لا يزال يعمل. فقالت ليلى: «انظر، إنه لا يزال يعمل!»

فقلت: «حسنًا، لنذهب إلى الداخل، ونرى.»

فقالت ليلى: «دعنا نعثر على القصر أولًا.»

بعد ذلك، سألنا رجلًا هرِمًا كان قادمًا نحونا عن مكان زقاق صاحب الديوان، فقال: «اذهبا إلى الأمام، فهنالك بضعة أزقة أمامًا، ستجدونه بعد زقاق اللبّانين.»

فاستدرنا، وواصلنا الطريق. وفي طريقنا مررنا ببعض الورش الأخرى. كما كان هنالك العديد من البيوت القديمة حولنا، لكنها ليست قديمة لدرجة أن تمتد إلى العصر القاجاري وتلك السنوات التي كان رضا قلي ميرزا قد تحدث عنها. فقط كنا نلمح من آن لآخر بعض الجدران المتهالكة التي كانت تبدو أكثر قِدمًا، وكان من خلف تلك الجدران تظهر أفنية ذات مساحات شاسعة. وربما لو دخلنا تلك الأفنية، لوجدنا مباني قديمة، قديمة لدرجة تمكننا من أن نقول أن رضا قلي ميرزا قد مر قبالتها ذات يوم. هكذا اجتزنا الأزقة زقاقًا تلو الآخر، زقاق الحلوائيين، زقاق الخبازين، زقاق أمير الجيش، زقاق اللبانين... فكرت في قرارة نفسي أنه إن كان كلام رضا قلي ميرزا صحيحًا، فإن هذا الدرب هو ذاته الذي اعتاد رضا قلي ميرزا أن يجتازه بمفرده أو بصحبة شكور يوميًا، حتى يذهب إلى السوق، ويشتري طعام الغذاء لنُويان خان والآخرين أيضًا. تلك الأوقات نفسها التي كانت وفقًا لقوله: «كانت مهلة للهروب من الأجواء المشؤومة والفاسدة لذلك القصر، والوجود في فضاء فسيح مفتوح، ورؤية الزبائن، والتجار، والمحال في البازار.»

وبينما كنت أفكر في روحات وغدوات رضا قلي ميرزا في تلكم الأزقة، إذ بليلى تتوقف فجأة. فتوقفت أيَضًا، ونظرت إلى ليلى فرأيتها تنظر محدقة إلى جدار الزقاق المقابل لنا. إذ كان قد ثُبت على الجدار أمامنا الذي كان مطليًا بالإسمنت الأبيض لافتة قديمة زرقاء ربما في أثناء القيام بأعمال سمنتة الجدار قد نالها هي الأخرى قدر من الإسمنت الأبيض فغطى جزءًا منها، ولذلك كانت الكتابة عليها غير واضحة إلى حد ما. لكنها لم تكن مبهمة لدرجة ألا تُقرأ، إذ كان مكتوبًا:

«زقاق صاحب الديوان.»

اضطربت بغتة، وابتلعت ريقي، وقلت: «إنه هو نفسه.»

فمكثت ليلى للحظة، قبل أن تقول: «إذن، فالزقاق موجود بالفعل أيضًا.»

ثم نظر كلانا داخل الزقاق. كانت هناك بعض البيوت المألوفة، وأحد ورش تصنيع الحقائب وكانت قد تدلت من أعلاها حقائب مُعلقة متباينة الألوان. لكننا لم نلمح أثرًا للقصر الذي كان رضا قلي ميرزا قد تحدث عنه. حينئذٍ قالت ليلى: «أين القصر إذن؟!»

فقلت: «ربما يكون قد هُدم، مثل البقية... لنمضي قُدمًا، ونرى.»

سلكنا طريقنا إلى زقاق هادئ ومنعزل. وعندما وصلنا إلى منتصف الزقاق، أدركنا أن نهاية الزقاق كان تنعطف جهة اليمين. استحثثنا خطانا، واجتزنا المنازل، وورش تصنيع الحقائب، حتى وصلنا إلى بداية المنعطف. ووقتما انعطفنا يمينًا، رأينا نفسينا أمام زقاق آخر هادئ ومنعزل بحيث لم يبد هناك أي بيت على الإطلاق. كانت نهاية ذلك الزقاق تنعطف يمينًا أيضًا، فأسرعنا خطانا أكثر. وحينما وصلنا إلى بداية المنعطف، ونظرنا إلى اليسار، رأينا أمامنا قصرًا لا يفصله عنا سوى ساحة فسيحة. كان القصر يتألف من دار كبيرة، تسورها جدران بيضاء اللون عالية كانت تحجبها تقريبًا بالكامل، بحيث يمكنك فقط رؤية الأجزاء العلوية من النوافذ الخشبية، والحواف الإسمنتية للسقف. كان في وسط الجدار باب حديدي صدئ كبير، وعلى جانبي الباب عمودان حجريان قديمان قد نقش أعلى كل منهما صورة كان يصعب منذ الوهلة الأولى تحديد أي صورة تكون، أما إذا أمعنت النظر، سترى صورة معطوبة لأسدين يتصارعان، وينشبان مخالبهما في بعض. أما أنا وليلى فقد رحنا نشب برأسينا ونتراجع قليلًا إلى الخلف، ثم نتقدم إلى الأمام، كي نتمكن من أن نرى مزيدًا من مشاهد هذا القصر. لكننا لم نحظ برؤية شيء ما خلا ما قد شاهدناه. فقالت ليلى: «هل تعتقد أن أحدًا يسكن هذا القصر؟!»

فقلت: «هذا ليس مستبعدًا، سنطرق الباب الآن.»

فتشنا عن الجرس المثبت على الجدار. ولكن لم يكن هنالك من جرس. فأخرجت عملة معدنية من جيبي، وطفقت أطرق بها الباب بإحكام. كنت أطرقه بقوة، حتى إن صوت الطرق راح يدوي في أرجاء الفناء الكبير للقصر، وينتقل منه ليصل إلى داخله. طرقت الباب مرة فأخرى، ومكثت منتظرًا، لكن شيئًا لم يحدث. فقرعت الباب مرة أخرى، ولم يجبني أحد. قالت ليلى: «يبدو أنه لا يوجد أحد.»

فقلت: «علينا أن نسأل أحدهم.»

لم يكن حولنا من أحد. فعدنا إلى الزقاق الرئيس، وذهبنا إلى ورشة تصنيع الحقائب. كان الباب الزجاجي للورشة أدنى من سطح الأرض بمقدار درجتين. وكان قد لُصق خلف زجاج الباب ورق ملون، حتى إنه حجب رؤية الورشة من الداخل. حينئذٍ قلت لليلى: «انتظري أنتِ هنا.» نزلت درجتي السلم، ثم طرقت الباب طرقتين قصيرتين، وبعد ذلك دفعت الباب نحو الداخل، وهممت لأفتحه. لم يكد ينفسح شق من الباب، حتى تسربت عبره الرائحة النفاذة للبلاستيك والغراء وعلقت بأنفي. ولما دفعت الباب أكثر، رأيت أمامي مساحة صغيرة بجدران ملأى بصور ملونة لمطربين، وممثلين، ولاعبي كرة القدم، وأبطال كمال أجسام. وفي جانب من الورشة كانت

الحقائب غير مكتملة التصنيع قد كُومت بعضها على بعض. وفي الجانب الآخر كان ثلاثة فتيان في سن المراهقة قد جلس كل منهم تحت نور اللمبة النيون المُركبة على الجدار خلف ماكينة خياطة، ويديرها، ليخيط شيئًا. في حين كان صوت مكينات الخياطة قد غمر كل المساحة الصغيرة للمكان. وعندما فتحت الباب كاملًا، توقف أول فتى منهم ثم تلاه الثاني عن العمل، فانقطع صوت ماكينة الخياطة المزعج، ليحل محله صوت الموسيقى التي كانت تصدح من جهاز تسجيل صغير. ألقيت عليهم التحية، فرد أحدهم التحية، في حين نظر الاثنان الآخران إليّ. كان ثلاثتهم تقريبًا في سن الرابعة عشرة. بادرتهم بالسؤال: «هذه الدار في الزقاق... تلك الدار الكبيرة...»

قال الفتى الذي رد التحية:«القصر الإقطاعي... »

قلت: «أجل... ذلك القصر ذو الجدران البيضاء، هل يسكنه أحد؟»

فقال زميله المجاور له: «هل أنت طالب؟ هل تريد التقاط الصور هنالك؟»

ففكرت قليلًا، ثم قلت: «شيء من هذا القبيل.»

فقال الفتى الأول: «ليس هنالك من أحد. لقد استولت عليه البلدية مؤخرًا، وأحيانًا ما يأتون، ليتفقدوه، إذ تُجرى فيه بعض الأعمال. يقال إنهم عازمون على تحويله إلى مركز ثقافي.»

فقلت: «أحيانًا هذه تعني متى تحديدًا؟»

فقال الثاني: «ليس معلومًا بالتحديد. عليك أن تأتي صباحًا.»

وحينها تذكرت أنه لا بد أن أذهب إلى المدرسة صباحًا، فسألته: «ماذا عن أيام الخميس؟ هل يجيئون أيام الخميس أيضًا؟»

فقال الأول: «يوم الخميس، لا أعلم.»

وإذ فجأة، قال شخص كان قد جلس في الظلام خلف كومة الحقائب المكدسة، ولم أكن قد لمحته في ظلام الورشة: «إنهم يأتون طوال أيام الخميس.»

فالتفت إليه الفتى الأول، وقال مستغربًا: «وكيف عرفت؟!»

أما ذلك الذي كان جالسًا خلف الحقائب، فما لبث أن رفع فرشاة الغراء التي كان يمسكها، وأشار بها ناحية القصر، وقال: «من ذلك الرجل عامل الجبس الذي جاء ذاك اليوم يسأل عن عنوانه، إذ قال حينها إنه سوف يأتي كل خميس للعمل فيه.»

فالتفت الفتى الأول نحوي، وقال: «إذن تعال يوم الخميس. إذا كنت تريد التقاط الصور، فعليك أن تذهب إلى البلدية أولًا. فكثير من الطلاب يجيئون إلى هذا المكان من أجل التقاط الصور، فلا يُسمح لهم بالدخول، لم يكن يسمح مالكه بالدخول من قبل، كما تفعل البلدية الآن.»

فشكرته، وودعته، وما لبثت أن خرجت، وقلت لليلى: «ليس هنالك أحد في القصر. يجب أن نأتي صباح الخميس القادم.»

قالت ليلى: «ويكأننا قطعنا كل هذه المسافة بلا جدوى!»

قلت: «لا يهم وجود فائدة أو عدمه، لقد عثرنا على القصر في النهاية. والآن سنأتي يوم الخميس، لنراه من الداخل. وحينها نذهب إن شاء الله إلى الغرفة تحت السلم، فإنني أتوق إلى معرفة آلدليل الذي قد ذكره رضا قلي في مذكراته موجود بالفعل أم لا.»

-١١-

كم من ليلة بت فيها مُستيقظًا في قصر نُويان خان من فرط الخوف حتى مطلع الفجر! إذ إن ذلك القصر الكبير الذي كانت قد دفنت جثة ما في كل ركن من أركانه، كان بالنسبة لأطفال في مثل سننا هذه مُرعبًا للغاية. فمهما عشنا بين جنباته، وقطعنا فيه من أيام وليالٍ، لم نكن لنألف الخوف والرعب اللذين يكتنفانه. ولطالما كنت أهب من رقادي في منتصف الليل فزعًا على صوت تلك الجلبة التي كانت تنبعث من داخل الجداران، أو من تلك الأفكار والتخيلات التي طاردتني في عالم الأحلام، فأبات ليلتي مُتقلبًا في مكاني متوجسًا خيفة، وأغطي رأسي بالبساط القديم البالي عسى أن أهرب من تلك الأصوات و الأفكار الغريبة. أتذكر أنني في منتصف إحدى الليالي الصيفية فززت من نومي على صوت قادم من داخل الجدار، كما لو أن شخصًا ما يضرب الجدار بقبضة يده. ولم يكد جفناي ينسدلان، حتى أتلعت أذنيّ فسمعت مرة أخرى صوت طرقة على الجدار. ثم سمعت بعد ذلك صوت وكأنما شيء ما يخدش الجدار. كان صوتًا فظًا وحادًا، كما لو أن شخصًا ينشب أظفاره في الجدار ويخمشه. ولقد هالني هذا الصوت بشدة، حد أنني فتحت عيني، ونهضت من فراشي فجأة. كان جميع الصبية العاملين في منسج السجاد يرقدون بجانب بعضهم في الغرفة الكبيرة ذات النوافذ الخم. رحت أقلب النظر في المكان من حولي، حيث لم يكن أحدًا مُستيقظًا. فخلت أنني ربما أصابتني التهيؤات، وتوهمت السمع. ولكن لم يكد يمضي الوقت، حتى أدركت أذناي صوت خدش على الجدار. فظننت أن شخصًا ما داخل الجدار يحاول أن يكحت الطوب بأظفاره، ليخرج. هالني الأمر أكثر هذه المرة، ورحت أسترق النظر إلى شكور الذي كان نائمًا بجواري. ثم تسللت نحو الباب، حيث كان راضي يستلقي بجانب الباب، وعيناه كانتا مفتوحتين ومثبتتين إلى السقف بلا طرفة رمش. اقتربت منه وتأملت لمعة عينيه اللتين تتوسطان صفحة وجهه النحيف الممتلئ ببقع البهاق، ثم رفعت قدمي برفق، وتخطيته. كان جميع من هنا يعلم أن راضيًا لم يكن يغلق عينيه وقتما ينام. وبسبب فتح عينيه في أثناء نومه، كان قد أُبتلي بجفاف في العين، فيضطر إلى شطف عينيه بالماء الساخن كل صباح. فتحت باب الغرفة برفق، وخرجت. حيث كان الليل مقمرًا، والبدر يتوسط السماء، ويضوي لامعًا. عندئذٍ سحبت نفسًا عميقًا. كان الجو خانقًا رطبًا، وصوت نباح بعض الكلاب قادمًا من بعيد. تقدمت، ووقفت إلى درابزين شرفة الإيوان، وأطللت من علو على الفناء.

كان الفناء الخالي يبدو مخيفًا في الضوء الأبيض للقمر. وكانت ظلال الألواح الخشبية المستندة إلى الجدار، تلك الألواح التي كانت تُستخدم في صناعة الأنوال، كما كانت ظلال أشجار الدلب التي تحيط بالفناء، إلى جانب سطح المياه الداكنة للحوض الذي قد انعكست عليه صورة القمر، كان كل ذلك يضفي على الفناء هيئة مريعة. ولوهلة سمعت صراخًا من بعيد، كما لو أن أحدًا يهتف مناديًا. فور سماعي لهذا الصوت سرت في جسدي قشعريرة، وجعل يرتجف، حتى إنني بت في هذا الجو الخانق الرطب أشعر بالبرودة. ألقيت بصري إلى الحوض وصورة القمر التي كانت قد انعكست في وسطه. تفحصت الحوض من كثب، فشعرت أن ضوء القمر يجلي عن عتمة ما تحت المياه الداكنة وئيدًا وئيدًا. وحالما أمعنت النظر قليلًا، لاح أمامي وجه نحيف للرجل ذي عينين متسعتين يطالعني من قلب المياه. وبعدئذٍ رأيت وجوهًا أخرى لرجال ونساء كانوا يطالعوني تارة بدهشة، وأخرى بابتسامة. اعتقدت أنني كنت متوهمًا، فأغمضت عيني، وحاولت أن أتناسى ما قد رأيته، ثم إنني ما لبثت أن فتحت عيني مرة ثانية بعد قليل، وحدقت

إلى ماء الحوض. هذه المرة رأيت أشخاصًا يسيرون في أرضية الحوض تحت الماء، كان بوسعي من فوق أن أرى رؤوسهم وأكتافهم. فرأيتهم يمرون بعضهم بجانب بعض، ويمضون، ثم يتلاشون في الجدران التي تسور الحوض. وبينما كنت أنظر مبهوتًا إلى وسط الحوض، إذ بأحدهم، وكان رجلًا بوجه أعجف ضامر وحاجبين رفيعين، يرفع رأسه، وينظر إليّ.

ولما أن رآني أنظر إليهم، ثبت عينه في عيني، بحيث لم يرفع عينيه عني، كما لو أنه كان يسحرني بعينيه تينك. فتملكني خوف عظيم، بيد أني لم أستطع أن أرفع عيني عنه. ظل الرجل ينظر إليّ هكذا، ثم ما لبث أن حرك شفتيه, وتمتم بكلام. لكنني لم أفهم مما قاله شيئًا، فرفع يده، وأشار لي بالذهاب إليه، فارتعبت رعبًا، واستدرت بالكاد، ومضيت، حتى عدت إلى داخل الغرفة، غير أنني اصطدمت على حين غفلة بشخص كان قد وقف إزائي، فصرخت مذعورًا. وما كان من الشخص الذي وقف أمامي إلا أن كتم فمي فورئذٍ بيده، وقال: «لا تخف، إنه أنا.»

ولما نظرت، وتبين لي أنه شكور، راح جسدي كاملًا ينتفض، وقد اعتقل لساني. وكلما هممت أن أتحدث، لم أستطع إلى ذلك سبيلًا. أمسك شكور بكلتا ذراعيّ، وقال: «لا تخف، لا تخف، لا بأس.»

ارتميت بين ذراعيه، وحينها جلس شكور بهدوء، مثلما أجلسني معه على الأرض، ثم سألني: «هل داهمك كابوس؟»

فأجبته بصعوبة: «حو... حو... حوض...داخل الحوض...»

فقام شكور، وتوجه صوب الإيوان، وطالع الحوض، ثم انقلب إليّ، وقال: «ماذا رأيت داخل الحوض؟!»

هززت رأسي، وسحبت نفسًا عميقًا، قبل أن أقول: «داخله... كان يوجد شخص داخله.»

ضحك شكور، وقال: «كان يهيأ إليك. يبدو أنك استغرقت في التفكير بشأن الجثث التي قيل أنها قد سقطت في قاع الحوض.»

لم أستطع تصديق فكرة أنني كنت أتخيل ذلك أو أحلم به. لكن أن أصدق أن ما رأيته لم يكن سوى حلم، كان أفضل من الاعتقاد أن ما قد رأيته حقيقة. أسندني شكور، وساعدني على القيام، وقال: «هيا، لننزل إلى الطابق السفلي، فإننا نحدث جلبة وضوضاء في المكان هنا، وسوف يستيقظ راضي، ويباغتنا.»

هبطنا معًا درج الإيوان، ودخلنا الفناء. وهناك طلب مني شكور أن أجلس على درجة السلم الأخيرة، ثم ذهب هو وأخضر معه كوب ماء من الجرة عند الحوض، وناولنيه. لما شربت الماء، شعرت بحال أفضل. ونظرت إلى الفناء من حولي، ثم زفرت تنهيدة ارتعش لها سائر جسدي، وقد أدركت لتوي أن كل جسدي صار يتصبب عرقًا. حينئذٍ سألني شكور: «أتشعر الآن بتحسن؟»

فقلت: «ما خطب هؤلاء الموتى تحت الماء؟»

فقال: «لماذا تسأل؟»

فقلت: «أريد أن أعرف.»

ففكر شكور لبعض الوقت قبل أن يقول: «فيفصل الصيف المنصرم كان نُويان خان ذاهبًا إلى نهر جاجرود. ولما لم يكن راضي حاضرًا آنذاك، صحبني معه. وهنالك رأيت شخصًا ما كان قد غرق في النهر، إذ كان كل جسده منتفخًا، ووجهه مُدمى بالجراح من كثرة ما ارتطم بصخور النهر.»

فسألته: «هل تنتفخ جثث الموتى في الماء؟!»

فقال شكور: «أجل.»

تنهدت، ثم ما لبثت أن تذكرت الأصوات داخل الجدار، فقلت: «عندما استيقظت، بدا الأمر كما لو كان شخص ما يخمش الجدار.»

فقال شكور: «في الجدران الفارغة، ربما في بعض الأحيان تنسل قطة أو ما شابه ذلك عبر شق ما داخل الجدار. ولا غرو حينها أن نسمع صوتها.»

شعرت بضيق شديد، ووددت لو أنفجر في البكاء. نظرت إلى شكور، وقلت: «إن هذا المكان يصيبني بالخوف يا شكور، أريد أن أعود إلى بيتي.»

لزم شكور الصمت، ولم يقل شيئًا، فأردفت: «أريد أن أذهب إلى أمي وأبي، وإلى شقيقتي.»

فقال شكور: «أيان ذهبت إلى أولئك الذين باعوك، فلا غرو أن يعيدوك إلى هنا مرة أخرى.»

فلما ألفيت شكورًا قد أصاب كبد الحقيقة، ما زاداني الأمر إلا ضيقًا، وشعرت أنني منبوذ قليل الحيلة.

نظرت أمامي لفترة وجيزة، ثم قلت لشكور: «لنذهب، كي ننام.»

وبينما هممت بالقيام من مكاني، قال شكور: «انتظر.»

كان يريد أن يصارحني بشيء. رمقته، وانتظرت أن يفضي بما لديه. قال شكور: «أنا أيضًا أريد الذهاب من هنا.»

جاء كلامه مباغتًا لي. كنت أعلم أنه ليس لديه مكان ليذهب إليه. كما أعلم أنه منذ أن كان طفلًا صغيرًا جدًا، أو ربما منذ أن كان رضيعًا في المهد، قدم إلى قصر نُويان خان وحيدًا بلا أهل. فسألته: «إلى أين؟»

فقال: «لا أدري، إلى أي مكان.»

فقلت: «أتعنى أنك تريد أن تفر من هنا؟»

فأجابني: «أجل.»

أردت أن أخبره أن مثل هذه الأمور لا تسير هكذا اعتباطًا. فلا بد أن يعرف إلى أين ستذهب، ولا بد أن تعرف كيف ستسعى إلى الذهاب من هنا، ولا بد أن تملك نفقة الطريق... غير أن الأمر بدا كما لو أن شكورًا قد قرأ كل هذه الأفكار التي تجول في ذهني، فما لبث أن قال: «مضى الآن ثلاث سنوات وأنا لا أرعوي عن ادخار المال. أحيانًا ما كنت أحمل سجاد نُويان خان إلى البازار، وأسلمه إلى أصحابه، فيمنحونني إكرامية. وأحيانًا أُخر كنت آخذ شاهيًا أو اثنين من النقود التي

تُعطى لي لشراء الطعام، وأضع هذه النقود جانبًا. وها هي النقود قد زادت وربت الآن، وصارت تومانين. لقد دفنت هذه النقود في الغرفة تحت السلم، بالقرب من نولي.»

لقد اكتشفت للتو ما السر وراء قصة نقص نقود طعام نُويان خان ذاك اليوم في دكان البلو. وفي حين كنت متحمسًا لمعرفة مقدار ما يملكه شكور من مال، سألته: «وما الذي تنوي فعله بهذه النقود؟»

فأجابني: «سأركب بها عربة، وأرحل إلى مدينة أخرى، قد تكون قزوين، أو ساوة، أي مكان يكون بعيدًا عن نُويان خان، بحيث لا تصل إليّ يداه.»

لم أكد أسمع اسم ساوة، حتى توارد إلى ذاكرتي دارنا، فقلت: «هل ستأخذني معك أيضًا؟»

فقال شكور: «إنما أخبرتك بكل هذا، كي تأتي معي، لا أريد أن أذهب بمفردي.»

فارتسمت على سحنتي علامات الحبور، وقلت: «سوف آتي. أينما ذهبت، فسوف آتي معك. سوف نذهب معًا، ونجد مكانًا يمكننا العيش فيه.»

فضحك شكور، وقال: «وسوف نتردد على مكان ما في البازار، لنتعلم صنعة نمارسها، ونجني من المال ما نسد به نفقاتنا.»

فأردفت: «وسوف نكبر، ونتزوج.»

فمد شكور يده تجاهي، وقال: «هات يدك في يدي وعاهدني.»

وضعت يدي في يده التي كانت وقتئذٍ شديدة السخونة كجمرة نار.

في كل مرة كنت أصل فيها إلى هذا الجزء من مذكرات رضا قلي ميرزا كانت تطرق ذهني فكرة أن أذهب بنفسي لأرى قصر نُويان خان من قرب، لأن رضا قلي ميرزا كان قد تحدث عن شيء يمكن رؤيته في حال ما إذا كان القصر لا يزال في مكانه. كما أن رؤية ذلك الشيء في حد ذاته دليل على صدق كلام رضا قلي، مثلما أن عدم رؤيته يمكن أن يكون دليلًا على كذبه وادعائه. كان رضا قلي ميرزا قد كتب أنه في صباح اليوم التالي لتلك الليلة التي قد تحدثا هو وشكور فيها بشأن الهروب كشف له شكور عن المكان الذي طمر فيه ماله.

لم نكد نفرغ بعد من تناول الإفطار صباحًا، حتى نكزني شكور في جانبي، وقال انهض، كي ننزل. فابتلعت اللقمة التي كانت في فمي، وقمت عن مائدة الطعام. ولما خرجنا معًا من الغرفة، ومضينا إلى داخل الإيوان، قال شكور: «تعال لأريك المكان الذي أخفيت فيه نقودي قبل أن يأتي الآخران.»

كان يقصد أكبر وأصغر، الأخوين التوءمين اللذين كانا يشاركنا العمل في الغرفة تحت السلم. هكذا نزلنا سريعًا معًا، وولجنا داخل الغرفة تحت السلم. حينها أغلق شكور الباب، وأزاح الكليم المفروش على أرضية الغرفة، فبدا من تحت الكليم صف من الطوب القزاقي. ثم أشار إلى أحد قوالب الطوب في زاوية الغرفة قرب الجدار، وقال: «هذا هو المكان.»

ثم قام، وتناول شفرة تقطيع الخيوط التي كانت على النول، وجلس مرة أخرى بجانب الطوب. وضع حافة الشفرة العريضة تحت الطوب، وأخذ يزحزحه، فانخلع الطوب من مكانه تدريجيًا، وظهرت تحته حفرة قليلة العمق بقدر نحو أربعة أصابع. أما وسط هذه الحفرة فكان هنالك

جراب أسود اللون مصنوع من الجلد. حينئذٍ قال شكور: «هذا كل ما لدي هنا.»

وسرعان ما وضع الطوب في مكانه، وحينئذٍ قال: «انظر، من الجدار جهة اليمين سوف تتقدم عشر خطوات، ومن جهة الجدار المقابل لك سوف تتقدم خطوتين، تذكر هذا جيدًا. »

ثم أضاف قائلًا: «لطالما وددت أن أريك مكان المال. ربما احتجته في أي وقت، فيكون بإمكانك أن تذهب، وتأخذه.»

ثم بسط الكليم في مكانه مرة أخرى، وفتح باب الغرفة.

في البداية كان الأمر برمته لا يعدو أن يكون فكرة بعيدة المنال، شيئًا يدنو من ذهني تارة، وتارة أخرى يبتعد. حتى قلت لنفسي ذات يوم ولمَ لا؟ فإن كان القصر لا يزال موجودًا، ولم تمسسه يد، فسيكون بالطبع العثور على تلك الحفرة ممكنًا. كان هذا ما قررت فعله بشكل قاطع، أن أعود إلى حي عود لاجان يوم الخميس، وعندما ينشغل عامل الجبس في العمل في القصر، ألج إلى الداخل، وأنبش عن الحفرة التي لا بد أن تكون في الغرفة تحت السلم.

كان عليّ أن أجد عذرًا مناسبًا يمكنني من دخول القصر، وأي عذر أفضل من التقاط الصور. لقد سبق أن قيل لي إنه يجب أن أحصل على تصريح بالتصوير من البلدية. ومن حسن الحظ أننا في اليوم التالي انصرفنا من المدرسة مبكرًا قبل عن الموعد المحدد للانصراف بساعتين. وهكذا بعد توقف اليوم الدراسي أوصلت نفسي بسرعة إلى بلدية المنطقة. وهناك أخبروني أن عليّ الذهاب أولًا إلي الهيئة الثقافية الفنية للبلدية. فأوصلت نفسي إلى هنالك. وهنالك أخبروني بدورهم أنني سواء كنت طالبًا في الجامعة أو تلميذًا في المدرسة فعلي أن أحضر من جامعتي أو مدرستي خطابًا يفيد أنني أريد أن ألتقط بعض الصور داخل هذا القصر، للاستفادة منها ضمن مهامي الدراسية. سألتهم والآن ماذا إن لم يكن هذا الأمر متعلقًا بدراستي، وأريد أن ألتقط بعض الصور هناك فحسب؟ فقالوا كلا، لن تتمكن من الدخول، يجب أن تحضر خطابًا يفيد ذلك. في اليوم التالي، الأربعاء، ذهبت إلى مدير المدرسة وبكل وسيلة ممكنة رحت أقنعه بالحصول على خطاب توصية، من أجل التقدم به إلى الهيئة الثقافية الفنية. وبعد ذلك وبمساعدة أبي حصلت على التصريح خلال ساعتين. توجهت أولًا إلى الهيئة الثقافية الفنية التابعة للبلدية، ثم إلى بلدية المنطقة، إلى أن حصلت أخيرًا على تصريح بالتقاط صور للقصر. وعدت إلى بيتي هانئًا راضي البال آملًا أن أذهب غدًا، وأشاهد القصر من داخله من قرب.

عندما وصلت كانت ليلى جالسة على الأريكة، وكانت تقلب كتبها الدراسية. وبينما كنت أضع حذائي داخل خزانة الأحذية، رأيت حذاء أبي، ففهمت أنه في البيت. والآن إذ أوشكت على رؤية القصر من الداخل، شعرت أنني بحاجة إلى التحدث إلى أبي بشأن هذا الأمر. سألت ليلى: «أين أبي؟»

فأجابت ليلى:«إنه في ورشته.»

كانت ورشة أبي غرفة تقع في الجانب الآخر من الفناء الذي كان فيما مضى قبوًا، غير أن أبي كان قد حوله إلى ورشة. كنا محظوظين لأننا نسكن في شقة بالطابق الأرضي، وهكذا أصبح الفناء والقبو في نهاية الأمر بحوزتنا. وقتما ذهبت إلى غرفتي، ووضعت خطاب البلدية في الدرج، ثم بدلت ثيابي، وهممت بالذهاب إلى أبي في الفناء. لكنني عندما وصلت إلى غرفة الجلوس، وبينما كانت ليلى تقلب صفحات كتبها، قالت: «إن أبي الآن يلصق أوراق رضا قلي ميرزا بسطح

لوحته.»

تيبست في مكاني. ورغم أنني كنت أعلم أن أبي سوف يقوم هذا الأمر في النهاية، باغتتني الصدمة لدى سماعي هذا الخبر، وقلت: «حقًا؟!»

فقالت ليلى دون أن ترفع رأسها: «أجل... إنه الآن يلصق الأوراق بسطح لوحته بواسطة غراء الخشب، وبعد ذلك سيطليها بطبقة رقيقة أخرى من الغراء.»

ثم رفعت رأسها، والتفتت صوبي قائلة: «كما تعلم فإن غراء الخشب عندما يجف، يصبح عديم اللون.»

ثم اتجهت برأسها مرة أخرى إلى كتابها، وقالت: «وبعد ذلك سوف يضع الألوان على الغراء الخشبي، ويرسم لوحته.»

ذهبت إلى الفناء ومنه إلى ورشة أبي. كانت ليلى محقة، إذ كان أبي يلصق مخطوطات رضا قلي ميرزا بواسطة الغراء بسطح لوحته. داخلني الحزن. ودون أن ألقي عليه السلام بادرته قائلًا: «أليس هذا مؤسفًا، يا أبي؟»

فنظر إلي أبي، وقال: «وعليكم السلام.»

فأردفت: «السلام عليكم، أليس هذا مؤسفًا؟!»

ودون أن ينظر إليّ، وضع الورقة المُغراة على سطح اللوحة، وقال: «ما الشيء المؤسف؟»

فقلت: «هذه الأوراق نفسها، المخطوطات.»

طفق أبي بأصابع كلتا يديه يحرك الورقة على سطح اللوحة، وقال: «أعتقد أننا قد تحدثنا آنفًا بشأن هذا الموضوع. »

فقلت: «لكنني أعني...»

لم يتركني أبي أكمل حديثي، وما لبث أن قاطعني قائلًا: «لا تفاتحني في هذا الأمر مجددًا. كنت أتوقع بعد أول مرة تحدثنا فيها في تلك الليلة، أنك قد استوعبت الموضوع على نحو أفضل.»

لم أقل شيئًا. وقع نظري على المنضدة قرب حامل لوحة أبي. كان على المنضدة كوب شاي يتصاعد منه البخار، كذلك كانت هنالك صفحة ورقية كبيرة بدت في الظاهر وكأنها الرسم التخطيطي للوحة التي كان من المفترض أن يرسمها؛ امرأة ذات خصر نحيل ترتدي ثيابًا من العصر القاجاري كانت تلقي تفاحة في الهواء، لتناولها لرجل يبدو تقريبًا بالهيئة والمظهر نفسهما. سألته: «أهذا هو التصميم الذي تعتزم رسم اللوحة وفقًا له؟»

وفي حين كان أبي ينظر إلى لوحته، قال: «هذا أو أي تصميم آخر. لا تشغل بالك أنت.»

ومن خلف حامل اللوحة اتجه نحو المنضدة، وطوى ورقة التصميم، ووضعها في الدرج. فقلت له: «ولكن هذا ليس صحيحًا...»

فقاطعني أبي، وقال: «منذ متى صار يجب أن تخبرني ما هو ضائب وما هو غير صائب؟»

فقلت: «إذا فكرت أنت بنفسك قليلًا، فلست بحاجة لأن أقول لك شيئًا بعد الآن.»

فاستشاط أبي غضبًا، وقال: «أفكر قليلًا؟ فقط قليلًا؟... إنني منذ الصباح وحتى الليل ليس لي شغل في هذه الحياة سوى أن أفكر. أفكر كيف أدبر شؤون هذا البيت وحدي، وأحافظ على سير الحياة فيه، وكيف أنتبه لكل شاردة وواردة، وكيف إلى جانب أنني أطبخ وأغسل، أتحصل على حفنة حقيرة من المال، لكيلا يعوزك أنت أو أختك أي شيء أبدًا، أتراك الآن جئت لتخبرني بأن أفكر قليلًا؟!..»

فقلت: «لم أكن أقصد هذا...»

لم يتركني أبي أتم كلامي، وزعق فيّ قائلًا: «وما الذي كنت تقصده؟! لماذا منذ اليوم الأول الذي عزمت فيه على أن أرسم هذه اللوحة وأنت لا تنفك عن التذمر وإثارة الاعتراضات التافهة؟! أي شيء تحاول إثباته؟! أتريد أن تثبت أنني لا أفهم شيئًا في عملي، أم أنني لا أدرك قيمة حفنة الأوراق القديمة تلك؟!»

فقلت وقد تملكني الارتباك: «والله يا أبي لم أكن أقصد ذلك إطلاقًا.»

لكن أبي لم يستمع إليّ، وظل يصرخ قائلًا: «إني وإن مضيت وراء سوق العمل، وحصلت على وظيفة متاحة، فلم أكن لأفعلها لأجلي. إنما أردت أن أجلب مالًا تدور به عجلة هذا البيت. خلافًا لذلك فإنني مثلي مثل أي فنان آخر لي عملي وأحظى بمكانتي. فلا تحطن من شأني إلى هذا الحد...»

وبينما كانت الدموع قد غصت في مقلتيّ، قلت: «لم أسع بتاتًا، للتقليل من شأنك.»

فصرخ أبي بكل كيانه قائلًا: «ولكنك قللت...»

وفي الوقت ذاته تناول كوب الشاي من على المنضدة، وألقاه بقوة تجاه الجدار المقابل. فاصطدم كوب الشاي بالجدار، وانكسر وتهشم إلى مئة قطعة، وانتثرت شظايا الزجاج وقطرات الشاي الساخن في كل مكان. وتزامنًا مع كسر الكوب، تسمر أبي في مكانه فجأة. ولبضع لحظات نظر بصمت دامس إلى الجدار الذي كان قد تلطخ ببقعة الشاي الكبيرة، ثم إلى أرضية الورشة، وأخيرًا إليّ. ثم دنا خطوة إلى الأمام وقد بدا على سحنته القلق، وقال: «هل أنت بخير؟ هل أصابتك شظايا الزجاج؟»

غالبت دموعي، وقلت: «كلا، لم يحدث شيء.»

مرة ثانية نظر أبي إلى الأرض، وقال: «يا لها من فوضى! لا بد من جمع هذه الشظايا، وتنظيف المكان.»

واتجه إلى ركن في الورشة، والتقط مقشة وجاروفًا بمقبض طويل كانا هناك، وبدأ يكنس أرضية الورشة. فتقدمت وأمسكت بمقبض الجاروف، وقلت: «دعني أقم بالكنس.»

لم يسمح لي أبي، وقال: «هذا ليس من شأنك، يجب أن اجمعها بنفسي. إذا بقيت أي من هذه الشظايا الزجاجية المتناثرة على الأرض، فسوف تنغرز في قدم أي شخص، وهذا خطر للغاية.»

فقلت: «لا تقلق، سأنظف المكان، وأجمعها.»

فقال أبي: «كلا، اذهب أنت... انصرف لشأنك، سأجمعها بنفسي.»

فقلت: «إنني فقط...»

فرفع أبي رأسه، ونظر إليّ، كما بادلته النظر. كان وجهه قد بات شاحبًا، وعيناه منديتين بالدموع، ومحمرتين. وما لبث أن قال: «اذهب، دعني أتولى الأمر بنفسي. »

فنكست رأسي، وغادرت المكان.

--١٢

كانت لا تزال هنالك ساعة قبل أن يحل الغروب عندما انتهينا من مشاهدة معاقبة غلام حسين مدًا بالعصا. كان يومئذٍ الاثنين، وكان فرُّوخ كعادته كل يوم اثنين يجب أن يعاقب نفرًا من بيننا، لئلا ننسى أين نحن، وكيف يجب أن نعمل. هكذا دأبنا جميعًا على الاستيقاظ صباح كل يوم اثنين في حالة من الذعر والخوف، ولا نفتأ حتى المساء ندعو الله ألا نكون ذلك الشخص الذي سوف يُمد على الفلقة ذلك اليوم. تلك العادة كان فرُّوخ قد أرسى قواعدها قبل مدة، إذ كان كل يوم اثنين منذ باكر الصباح يعاين كل الصبية، وقبل حلول المساء كان يُخرج أحد الأنفار من بين جماعة الصبية بأيما ذريعة، ويجعله يستلقي على ظهره وسط الفناء بجانب الحوض، ثم يأمر راضيًا أن يمده على الفقلة بغصن شجرة الكرز المتين. كان الآخرون يُجبرون أيضًا على التوقف عن العمل، والحضور لمشاهدة من حلَّ عليه العقاب. أما هذا البائس المسكين الذي كان سيُفلق فكانوا يرقدونه على الأرض، ويربطون كاحليه بخشبة عريضة وقصيرة، ثم يرفعون باطني قدميه، وما يلبث راضي الذي كان مضرب الأمثال في العنف والقسوة أن ينهال ضربًا بالعصا على باطني قدم الصبي العاثر الحظ بكل ما أوتي له من قوة. حتى إن قدميه كانتا تتورمان في البداية، ثم تنتشر في باطنيهما البثور، وإذا استمر الأمر على هذه الحال كانت هذه البثور تنفجر، وتسيل منها الدماء. وكان فرُّوخ يقدم على هذا الأمر أسبوعيًا، لا لشيء إلا لكي يبث الرعب في نفوسنا، ولكيلا يسمح، على حد قوله، بأن تتسبب تلك البشاشة التي عهدناها منه حينًا بعد حين في جعلنا كسالى ومتقاعسين عن أداء مهامنا.

وبمجرد أن حل ذلك الاثنين، صار الجميع قلقًا منذ الصباح. وبذل كل منهم قصارى جهده، لكي يفوت على فرُّوخ وراضي فرصة النيل منه، غير أن فرُّوخًا باشر مهمته قبل الغروب. هكذا عوقب غلام حسين المسكين ومُد على الفلقة حتى سالت الدماء من باطني قدميه، ولم يعد يستطيع الطفل المعصوم أن يقف على قدميه مرة أخرى. وكان ذلك كله بحجة أن سطح سجادته التي نسجها كانت معيوبة ذات نقر، مما جعل ثمنها بخسًا. كان غلام حسين من أصل كُردي من كرمنشاه، وقد قدم إلى قصر نُويان خان قبل عام، فاستأجره نُويان خان في العام مقابل تومان واحد. وعلى هذه الحال كان في بداية كل عام يدفع لغلام حسين تومانًا واحدًا، ويرسله إلى كرمنشاه، ليرى أسرته، ويعطيهم النقود، ويمكث يومين على الأكثر، ثم يعود.

في ذلك اليوم بكى غلام حسين من حرقة قلبه، كما لو أنه سحابة ربيعة تهطل مطرًا لا ينقطع، ولم يكن يستطيع الوقوف على قدميه. عانقه صبيان من الحاضرين، ثم ما لبثا أن صعدا سلم الإيوان، كي يجلسا إلى النول، ويستأنفا عملهما في هذه الساعة المتبقية من الضوء قبل أن يسربل الظلام الوجود. عدت أنا وشكور أيضًا إلى الغرفة تحت السلم في إثر عملنا. وبمجرد أن جلسنا أمام النول، قال شكور: «سنغادر من هنا يوم الجمعة.»

لقد بُغت من كلامه. فقبل ليلتين كان شكور قد قال إنه يعتزم الفرار من قصر نُويان خان، كان ذلك فقط في المرة الوحيدة التي أُتيحت لنا فيها الفرصة، لنتحدث معًا بشأن الهروب. ثم إننا قبل الخلود إلى النوم، بسبب حرارة ورطوبة الجو، أفسحنا لنفسينا مكانًا، وهيأنا فراشنا على أرضية الإيوان، وتمددنا بجانب بعضنا، وما لبثنا أن تحدثنا عن الفرار مرة أخرى. في تلك الليلة أخبرني شكور بأنه يجب أن نجد وقتًا ملائمًا للهروب. وها هو الآن فجأة ودونما سابق إنذار يتحدث بشأن هروبنا يوم الجمعة. قلت له مندهشًا: «الجمعة؟!»

فقال: «نعم، إن نُويان خان سوف يذهب غدًا إلى مدينة أستر آباد لدى جماعة من قومه، كما أن فرُّوخًا عندما يغيب نُويان خان، لا يأتي إلى هنا إلا نادرًا، خاصة يوم الجمعة فحينئذٍ سيمضي حتمًا إلى شأنه. كل ما تبقى لدينا هو راضي فحسب الذي سوف يلقي إليه فرُّوخ بزمام الأمور في القصر، لينهض بها وحده. وبهذه الطريقة لن يلاحقنا أيما أحد، ونهرب بسهولة أكثر.»

تأججت النيران في جسدي كله من شدة اضطرابي، وتصببت عرقًا، إذ لم أصدق أنني أستطيع النفاذ بجلدي، والفكاك من ذلك القصر المرّوع. وبينما كان لساني مقيدًا، ولم أعد أدري ماذا أقول، سألني شكور الذي قد بدأ يفكر في أني ربما قد ترددت: «هل أنت مستعد؟ هل ستأتي؟»

ابتلعت ريقي، وقلت: «أجل، إنني مستعد.»

وعلى غير توقع جلجل في أنحاء الغرفة صوت راضي الجاف الرنان قادمًا من عند الباب، إذ قال: «ما الذي تفعلانه هنا بحق السماء، ألا تعلمان أن الكلام في وقت العمل ممنوع؟»

ودون حتى أن ينظر كلانا إلى راضي، مددنا أيدينا إلى السجادة، وباشرنا العمل. أما راضي فلم يتزحزح من أمام الباب، لكنه هذه المرة التفت إلى شكور قائلًا: «أيا شكور، تعال، احمل هذه السجادة الصغيرة التي لا تتعدى ذراعًا ونصف ذراع إلى دكان الحاج مرتضى، وعد بسرعة.»

فقام شكور، ونزل عن النول. وحينئذٍ قال لراضي: «ذراع ونصف ذراع! هذا يعني أنها كبيرة و ثقيلة. دع رضا يأتي أيضًا، لنحملها معًا إلى هناك.»

فقال راضي: «أي عاطل بليد أنت! إنها ليست ثقيلة أبدًا، هيا خذها بنفسك، واحملها، وعد بسرعة. قبل أن يحل الظلام، يجب أن تكون هنا، وإلا...»

فقال شكور: «أمرك.»

غادر شكور الغرفة دون أن ينظر إليّ. لكنه فور أن غادر، لم يزايل قلبي القلق. لقد حدث قبل ذلك مرات ومرات أن يخرج شكور بمفرده من دوني. بل في الواقع لم نكن نخرج مع بعضنا إلا في وقت الظهيرة عند شراء طعام الغذاء، أما في سائر الأوقات الأخرى، إذا ما طرأ أمر يستعدي الخروج، فإن شكورًا كان يخرج بمفرده إلا إذا كان الحِمل ثقيلًا أو لأي سبب آخر يوجب أن يرافقه أحد، وحينئذٍ كنت أرافقه ذهابًا. أما ذلك اليوم عندما خرج شكور داهمني شعور بالقلق، وخلت أن مكروهًا سوف يقع. ولهذا السبب لم أستطع المضي في العمل. ووقتما شرعت في نسج الخيوط، لم يكن ذهني حاضرًا، ولطالما أخطأت في عقد خيوط النسيج ببعضها مما كان يضطرني بعد ذلك إلى أن أقطع هذه الخيوط. وفي إحدى المرات جرحت يدي على حين غفلة، وسالت كثير من الدماء.

التقطت قصاصة من جانب النول، وربطت بها إصبعي، واستأنفت عملي بهمتي الفاترة متوخيًا الحذر، حتى تلاشى الضوء، وأمسى الجو مظلمًا. في ذلك الوقت توقف الجميع عن العمل، كما نزلت عن النول، وتوجهت صوب الفناء. كان الجو في الخارج لا يزال مضيئًا بعض الشيء، بيد أن شكورًا لم يكن قد عاد بعد، في حين كنت أزداد قلقًا حتى إنني لم أعد أطيق صبرًا. وراح الصبية الذين كانوا يعملون في الغرف المحيطة بالفناء يرتقون الدرج. أما أنا فبقيت في الفناء، حيث جلست على درجة السلم الأخيرة، وأخذت أتأمل السور حول الحوض، إلى أن اختفى آخر بصيص ضوء من الجو، وأطبق الظلام على المكان برمته. وبينما كنت أفكر في أن ألتمس من

راضي السماح بالذهاب إلى البازار في إثر شكور، وإذ بي أسمع صوتًا قادمًا من آخر الفناء، بالقرب من باب القصر، ثم دلف إلى الفناء خيال قصير، كان خيال شكور. لقد دخل الفناء في تلك الظلمة وهو يحجل، بحيث إنه كلما كان يمشي خطوتين أو ثلاث، يقفز لأعلى ثم يهبط على قدم واحدة. ولما وصل إلى الحوض، وثب إلى حافته، وفتح ذراعيه على مصراعيهما، وفي أثناء ذلك كان يسير على حافة الحوض واضعًا إحدى قدميه أمام الأخرى يلتمس الخطى في الظلماء. فقمت، وركضت صوب شكور منفرج الأسارير. وقلت: «أجئت أخيرًا؟»

فقال والابتسامة مرسومة على محياه: «لقد جئت، ولقد استمتعت أيضًا.»

حينها أدركت أنه بخير وفي مزاج جيد، فسألته: «لقد تأخرت، أين كنت؟!»

فقال: «لقد تأخر الوقت بالفعل.»

ثم أنزل يديه، وقفز من حافة الحوض، وقال: «دعنا نصعد، كي أخبرك.»

وأمسك بيدي، واجتذبني نحو السلم. لكن أقدامنا لم تكد تطأ السلم، حتى ارتفع صوت من عتمة زاوية الفناء قائلًا: «انتظر، أين كنت؟»

كان صوت راضي الذي كان يهم بالخروج من السرداب تحت الأرض، ومن خلفه تنتشر رائحة الأفيون في الفناء. تقدم منا، ونظر إلى شكور بعينيه الغائمتين تينك، ثم قال: «أين تأخرت؟»

فأجابه شكور: «لقد طلب مني الحاج مرتضى أن أحمل السجادة إلى مكان آخر، وهذا ما فعلت.»

أمسك راضي بياقة قميص شكور في عنف، وقال: «لا تكذب، أين كنت؟»

فقال شكور وقد بدا عليه الاضطراب: «قسمًا بربي، إنني أقول الحقيقة. لقد طلب مني أن أحملها، وأسلمها هناك لدى دكان الحاج ميرزا محمود العطار، فقد أخبرني أنه سبق أن وعده بأن يمنحه هذه السجادة.»

فترك راضي ياقة شكور، وبدلًا من ذلك أخذ بمجامع ثيابه، وقال: «أعطنيه.»

فقال شكور مستغربًا: «ماذا أعطيك؟»

فقال راضي: «كل ما أخذته منه.»

فأردف شكور: «ممن؟!»

فقال راضي: «من الحاج مرتضى، فإنه لم يكن ليقول لك عبثًا هكذا اذهب إلى دكان الحاج ميرزا محمود. لا بد أنه أعطاك شيئًا في المقابل، أعطني إياه.»

فقال شكور: «الأمر ليس هكذا، لم يعطني شيئًا.»

صفع راضي شكورًا بكفه، ثم قال: «خسئت، لست بالخِبَّ، لتخدعني. هيا، أعطني المال فورًا، وإلا فعندما يأتي فرُّوخ غدًا، سأطلب منه أن تُمد على الفلقة.»

أما شكور الذي قد ارتج على وقع تلك الصفعة المحكمة طأطأ رأسه، ومد يده في الجيب الأعلى لقميصه فوق صدره، وأخرج عملتين صغيرتين، وأعطاهما لراضي.

فأخذ راضي العملتين، وقال مستنكرًا: «أكل ما دُفع لك شاهيان فحسب؟!»

فقال شكور: «أجل، هذا كل ما نالته يداي. لتفتش بنفسك. ولو وجدت شيئًا آخر فهو حلال لك.»

دس راضي يده في جيب شكور، وبعد أن خاب أمله في العثور على المال مرة أخرى صفع شكورًا صفعة محكمة، وقال: «لقد استغفلاك، وأهالا على رأسك التراب، أكدحت كل هذا الكدح من أجل أن تحصل على شاهيين فحسب؟!»

ثم أضاف قائلًا: «ليس هنالك عشاء الليلة. سوف تمكث هنا بالأسفل، إلى أن يتناول الآخرون طعامهم، أنت وصاحبك هذا أيضًا.»

ثم انطلق، وصعد الدرج. فنظر شكور خلف راضي، وبعد ذلك ما لبث أن سخر منه مخرجًا له لسانه خلسة. وبمجرد أن اختفى راضي في انعطافة السلم، ضحك شكور وقال: «أنت تحلم يا هذا، لم أكن حمارًا إلى هذا الحد لأدعك تستولي على مالي.»

ثم التفت نحوي برفق، وقال: «هذان الشاهيان، كانا إكرامية الحاج ميرزا محمود فحسب، أما الحاج مرتضى فقد كافأني هو الآخر بقِران قد وضعته هنا.»

ثم رفع قدمه اليمنى، وأراني فرش حذائه الكيوة.

فما لبثت أن ضحكت، وقلت: «أحسنت، لقد أبليت بلاءً حسنًا.»

فضحك شكور أيضًا، وقال: «لن نتناول العشاء الليلة. لكننا عوضًا عن ذلك، سوف نتناول يوم الجمعة وجبة طيبة من البُلو مع الكباب المشوي.»

وأردف: «لقد شارفت أيامنا العصيبة التي كابدناها هنا على الانتهاء.»

ثم وثب إلى حافة الحوض، وفتح ذراعيه على وسعيهما، وسار على حافة الحوض. وفي الوقت الذي كان يدير ظهره لي، قال: «هل يمكنك أن تقوم بهذا الأمر؟»

ولما رأيت أنني لا أملك الجرأة، قلت: «كلا، إنني أهاب هذا الحوض.»

فقال: «ولكن الأمر ليس مخيفًا.»

ولما وصل إلى نهاية سور الحوض، استدار في مكانه، وعاد تجاهي، وقال: «إذا مددت يديك هكذا، فلن تقع مثلي، انظر.»

وبينما رفع قدمه الخلفية، ليضعها أمام قدمه الأمامية، إذ بقدمه التي كانت على حافة الحوض تنحرف بغتة. وقبل أن يقوم شكور بحركة أخرى، اختل توازنه، وسقط على الفور في الحوض. صرخت فزعًا: «رباه!!»

وجريت تجاهه، فأخرج شكور رأسه من الماء للحظة. وبينما كان يلفظ الماء من فمه، صاح: «أنجدوني!»

ونزل في الماء مرة ثانية، فرحت أصرخ بأعلى صوتي، طالبًا المساعدة. وحينئذٍ ارتفع شكور مرة أخرى. هذه المرة لفظ الماء من فمه، لكنه عجز عن الصراخ، فنزل تحت الماء بهدوء. أخذت

أصرخ، وأطلب المساعدة مجددًا، حتى نزل بعض الصبية الدرج ركضًا، وهرعوا نحو حافة الحوض. وددت حينئذٍ لو أقفز في المياه، لكنني لم أجرؤ. لم أكن أعرف كيف أعوم، مثلما لم يقفز في الماء أي من الصبية الآخرين. كما لو لم يكن أي منهم يتقن العوم. ومرة أخرى اندفع رأس شكور من الماء. لكنه هذه المرة نظر إلينا جميعًا نحن الملتفين حول الحوض بعينين تموجان بالخوف. بدا الأمر كما لو كان يحاول أن يقول شيئًا، غير أن الماء كان قد سد حلقه. فقط خرج منه صوت يشبه التهوع، ثم بعد ذلك كما لو كان أحد ما يمسك قدمه ويسحبه إلى قاع الحوض غاص، ولم يصعد مرة أخرى. وبينما وقفنا جميعًا حول الحوض واجمين، وقد خيم علينا صمت مطبق ننظر إلى الحوض فحسب، جاء أحد الصبية ومعه عصا طويلة، ثم غمس رأس العصا في ماء الحوض، حتى إذما ارتفع شكور إلى سطح الماء مرة أخرى، يتمسك بطرف العصا، ويتمكن من الخروج. لكن شكور لم يرتفع إلى سطح المياه مرة أخرى. كنا جميعًا نتأمل بصمت دامس مياه الحوض الساكنة التي لم تعد تموج. أما راضي الذي كان قد وصل لتوه، ما لبث أن قال: «اللعنة على الطالع النحس! الآن من سيعوض خسارة نُويان خان؟!»

فقال أحد الصبية: «ربما يصعد مرة أخرى.»

فقال راضي: «لقد علق بالطين المترسب في قاع الحوض، ولن يطفو فوق سطح الماء بعد الآن.»

حينذاك شعرت كما لو أن شيئًا مثل الصقيع أخذ يلف قلبي، راحت ساقاي ترتجفان، وانثنت ركبتاي. وبينما كنت أحاول أن أتهالك على الأرض، استحال الوجود في ناظري إلى سواد قاتم.

--١٣

فتحت الباب، ودخلت في بطء. بدا أمامي دهليزًا واسعًا ومظلمًا. استدرت برأسي، وقلت لليلى: «ادخلي، لا أحد هنا.»

أما ليلى التي كانت على بعد بضع خطوات من الباب ألقت حقيبتها على كتفها، وتقدمت. ولجنا معًا الدهليز المظلم. كان الهواء باردًا، وتفوح منه رائحة الرطوبة. وعندما مضينا في الدهليز قُدمًا، لمحنا من ظلمة الدهليز الفناء، حيث كان فناءً كبيرًا، ومهجورًا، وقد طوق الفناء مجموعة من الأشجار السامقة المتيبسة. كان الصمت يخيم على أرجاء المكان، ولا يقطعه سوى نعيق الغربان التي كانت قد عششت على الأغصان الجرداء لتلك الأشجار. كما أبصرنا الحوض، حيث كان يتوسط الفناء حوض كبير تسوره جدران عالية يبلغ ارتفاعها ما يقرب من نصف متر. وكان ثمة طفل، صبي يدير ظهره لنا، واقفًا أمام الحوض وينظر داخله. حينها تسمرت ليلى في مكانها، فقلت: «لمَ لا تتقدمين؟!»

فقالت: «ذاك الطفل...»

فقلت: «لقد رأيته.»

فقالت: «وماذا يفعل هناك؟!»

قلت: «قد يكون عاملًا، أو جاء مع أحد.»

فقالت ليلى: «إنني خائفة.»

ابتلعت ريقي. وددت لو أستطيع أن أخبرها أنني خائف أيضًا، غير أن هذا في حقيقة الأمر لم يكن بالوقت المناسب لأفصح عن حقيقة ما بداخلي. في النهاية كان على أحدنا أن يأخذ بيد الآخر، فقلت: «ممَ تخافين؟! لا شيء يستدعي الخوف.»

فقالت ليلى: «سأبقى هنا، واذهب أنت، لترى ما الأمر.»

وددت لو أقول: «ستتركيني وحدي إذن.»

لكنني رأيت أنه ليس مقبولًا أن أجبرها، لتمضي إلى مكان تخشي الاقتراب منه.

فقلت: «إذن، اخرجي واذهبي إلى الزقاق وانتظريني هنالك، حتى آتيك.»

فقالت ليلى: «كلا، سأبقى في المكان نفسه، وأرقبك من بعيد.»

فقلت: «حسنًا.»

سلكت طريقي. ومن ظلمة الدهليز ولجت إلى ضوء الفناء. اتجهت إلى الصبي الصغير الذي كان يدير ظهره لي. كان الصبي يرتدي قميصًا أبيض اللون مخططًا مع بنطال أسود. ويبدو شعر رأسه قصيرًا للغاية كما لو أنه قد اجتزه بمكانية الحلاقة لتوه. وكانت رقبته الطويلة النحيلة تبرز من ياقة قميصه الأبيض، وكان في نهايتها تجويف يبدو غير طبيعي. لم أكد أصل إليه إلا وجررت قدمي إليه جرًا آملًا أن أسمع صوته، ثم أعود. لكنه حتى لم يستدر نحوى. سعلت، لكنه مرة أخرى لم يبد ردة فعل، إذ كان غارقًا لذروته في تأمل الحوض كما لو أن شيئًا معينًا كان قد لفت

انتباهه. تقدمت، وفي البداية نظرت من فوق الصبي داخل الحوض. كانوا قد أفرغوا جوف الحوض من الماء، وكانت أسوار الحوض السوداء قد ضرب فيها العفن، أما أرضيته التي تنخفض نحو مترين عن سطح الأرض فكانت ملأى بالطين. إلى جانب قطع الخشب، والمقاعد، والكراسي المكسورة، ومزق الأقمشة القديمة، والأوراق الجافة للشجر التي قد ذرتها الريح بداخله. وضعت يدي على كتف الصبي، وبادرته بالتحية قائلًا: «مرحبًا.»

ففز الصبي من مكانه، واستدار، ونظر إلى خائفًا. كان وجهه نحيفًا، وفوق حاجة الأيمن على جبينه يبرز نتوء أسود كبير يبدو وكأنه ثُؤلُول([41]). أخذ يحدق إليّ بضع لحظات في ذهول. بدا كما لو كان لا يدري ماذا عليه أن يقول، لذا لم انتظر منه رد التحية، وأردفت: «من المسؤول هنا؟»

فنظر إليّ مرة أخرى. أردت أن أعينه على الإجابة، فأشرت إلى الغرف الموجودة في نهاية الفناء، وقلت: «هل هو هنا؟!»

ففتح شفتيه البيضاوين المشققتين، وقال: «إن أبي في الأعلى، هناك.»

وأشار إلى إحدى غرف الطابق العلوي. سألته: «هل والدك هو المسؤول هنا؟»

فقال: «أبي عامل الجبس هنا وهو يقوم بعمله الآن.»

فقلت: «أها.»

ثم أشرت إلى الحوض، وقلت: «إلامَ كنت تنظر داخل هذا؟»

فنظر الصبي الصغير داخل الحوض، ثم بعد ذلك أجاب هلعًا: «هنا... لا شيء... لا شيء، كنت أنظر عشوائيًا هكذا.»

مددت نظري داخل الخوض مرة أخرى، لربما يلفت انتباهي شيئًا، فلم أجد ما يستدعي ذلك. مع ذلك عاودت النظر، فما وجدت إلا بعض قوارير المياه المعدنية الفارغة، وبعض قطع الورق المقوَّى. نظرت مرةثانية إلى الصبي الصغير، وقلت: «هل قلت إن أباك هناك بالأعلى؟»

فقال: «أجل، في الغرفة الثالثة.»

فقلت: «هل يوجد أحد هنا سوى أبيك؟»

فقال: «أجل، إن صبيه يعمل معه أيضًا.»

فسألت: «هل يمكنني أن أصعد إلى الطابق العلوي؟»

فقال:«نعم، اذهب كما تشاء.»

نظرت خلفي أمام الدهليز، حيث كانت ليلى واقفة في بقعة ظليلة، وتنظر إليّ. لوحت لها بيدي، وأشرت إلى الغرف أعلى القصر، وهتفت عاليًا: «سوف أذهب إلى هناك.»

ومع سماعه صوتي استدار الصبي أيضًا باتجاه ليلى، ونظر إليها. مضيت إلى سلم الإيوان، وإذ بمجموعة الغربان الناعقة التي كانت قد حطت على الأشجار تطير فجأة إلى أن صارت إلى كبد السماء، ثم بدأت تحلق حول القصر. استدرت في الحال، ونظرت خلفي، فألفيت الصبي الصغير

يحملق مرة أخرى إلى الحوض، ويديم النظر فيه. ارتقيت السلم المبنية من الطوب، حيث كانت قوالب الطوب في بعض الأماكن غير ثابتة، وتتداعى. ولجت إلى داخل الإيوان في الطابق العلوي، ومررت بغرفتين، ومن شق باب الغرفة الثالثة الموارب رأيت فتى يخلط الجبس في وعاء معدني كبير بواسطة المسطرين([42]). أمسكت بمقبض الباب، ودفعته، فانفتح الباب مُحدثًا صريرًا جافًا. ومع سماع صوت الباب، رفع الفتى رأسه ونظر إليّ، فألقيت عليه التحية، وأثنيت على عمله. وفي الوقت الذي كانت رائحة الجبس الرطب تعبئ الغرفة، سألته: «من فضلك، إذا أردت أن أصور المكان هنا، فممن ينبغي لي أن أستأذن؟»

لم يجبني الصبي. لكنه عوضًا عن ذلك استدار، ونظر خلفه. وقتئذٍ نظرت على امتداد بصره فرأيت رجلًا كان يسير على لوح عريض كان قد وُضع طرفاه على برميلين حديدين كبيرين، في حين كان الرجل مشغولًا بتلييس الجبس على الجدار بواسطة المسطرين. وتزامنًا مع إتمامي جملتي هذه، أنزل الرجل المسطرين واستدار نحوي.

كررت سؤالي مرة ثانية، فسألني الرجل: «هل أنت طالب؟»

فقلت: «لدي تصريح حصلت عليه من البلدية.»

فقال: «المسؤول عن ذلك غير موجود. إنه لا يأتي إلى هنا سوى صباح يوم واحد في الأسبوع، يفتح لنا المكان، لنقوم بعملنا. وفي المساء عندما يحين موعد انصرافنا، يأتي مرة أخرى، ليقفل الباب، ثم ما يلبث أن ينصرف.»

فقلت: «أتعنى أنه لن يأتي قبل المساء؟!»

فقال: «أجل، ولكن إذا كنت تملك تصريحًا، فيمكنك أن تلتقط الصور.»

وأشار بيده إلى المكان من حوله، وقال: «المكان كله خالٍ، لا تلمس شيئًا فحسب، لأنهم قد جعلوا هذا المكان في عهدتنا، ونحن الآن مسئولون عنه.»

فقلت: «شكرًا جزيلًا.»

عدت إلى الخارج. وقفت على شرفة الإيوان، ونظرت إلى الأسفل. كان الحوض الأسود اللون يبدو وسط الفناء كفم دميم مشوه المنظر، في الوقت الذي كان الصبي لا يزال يرمي بنظره داخل الحوض. أشرت إلى ليلى التي كانت قد تقدمت أكثر، وراحت تنظر إليّ من حافة الإيوان. أومأت لها بيدي، كي تصعد. وكما لو أن الشجاعة قد واتتها فجأة همت بالسير، وتقدمت. ولما اقتربت من الصبي الصغير، أشارت إليّ، وقالت مبتسمة: «أنا مع ذلك السيد.»

ثم مرت بجانبه، وصعدت سلم الإيوان. وحالما تقدمت مني، قلت: «المسؤول عن المكان ليس هنا سيأتي عند المساء. لكنهم أخبروني أنني إذما أملك تصريحًا، فبإمكاني أن التقط الصور، لا مانع من ذلك.»

فقالت ليلى: «وماذا تنتظر إذن؟»

ثم أنزلت حقيبتها عن كتفها، وأخرجت منها كاميرتها الصغيرة، وقالت: «أي منا سيقوم بالتصوير أنت أم أنا؟»

فقلت: «صوري أنتِ، إني أفضل أن أشاهد المكان، وأتأمله.»

وسرنا معًا قرب درابزين الإيوان. كانت ليلى تلتقط صورة، في حين كنت أقلب النظر في كل مكان بالقصر. ورحت أفكر في نفسي، أين يمكن أن تكون قد وقعت أي من الأحداث التي كان رضا قلي ميرزا قد سردها في مذكراته، وأحاول التوفيق بين كتابات رضا قلي ميرزا وما قد رأيته داخل القصر بالفعل. حتى وقعت أنظاري مجددًا على الحوض، والصبي الذي كان لا ينفك عن التحديق إليه. قلت لليلى مستغربًا: «إلامَ ينظر؟!»

أنزلت ليلى الكاميرا من أمام عينيها، وقالت: «من؟»

فقلت: «ذاك الصبي.»

فقالت: «لا أعرف، لم أكن لأجرؤ على النظر داخل الحوض.»

فقلت: «عندما رأيته، لم يكن هناك شيء. لا يوجد حتى فيه ماء، فلم يكن هنالك من شيء سوى كومة من الطين، والقمامة.»

فقالت ليلى: «ربما إن حدقت داخله، فسترى شيئًا. ربما ذاك الصبي يرى شيئًا ما.»

تفرست في الصبي الصغير الذي كان قد أحنى رأسه إلى أسفل، وقلت: «كان رضا قلي ميرزا أكبر من هذا، كان يفوقه جسديًا على الأقل، لكنني أعتقد أن شكورًا كان بمثل تلك القامة، وربما كان يحدق إلى الحوض و ينظر على هذا النحو ذاته.»

فقالت ليلى: «أناشدك بالله أن تكف، إنني خائفة.»

ثم مشت، حتى تقدمتني ببضع خطوات، وما لبثت أن وقفت على السلم، ورفعت كاميرتها لالتقاط صورة. أما أنا فاستدرت نحو الجانب الآخر، وحينئذٍ رأيت صبي عامل الجبس. كان فتى عمره يناهز العشرين، لديه سالفتان طويلتان عريضتان، وقد صفف شعره المُدهن وذلك بأن جعله يرتفع إلى أعلى. دُهشت لرؤيته، وتراجعت قليلًا إلى الخلف. بادرني قائلًا: «في أي كُلية تدرس؟!»

فقلت: «لست طالبًا بالجامعة. كل ما في الأمر أنني قد قرأت كتابًا عن هذا المكان، فغدوت شغوفًا به.»

نظر صبي عامل الجبس إلى ليلى، ثم قال: «أتلك زميلتك في الجامعة؟!»

فقلت: «كلا، إنها شقيقتي.»

فقال: «أهنالك في الجامعة اختلاط بالفعل بين الفتيات والشباب؟»

فقلت: «قلت لك إنني لست طالبًا جامعيًا.»

ثم بعد ذلك سألته: «هل تجرون بعض الترميمات في هذا المكان؟»

فابتسم هازئًا بكلامي، وقال: «ترميم؟!»

ثم أشار إلى نواحي القصر، وقال: «مكان بمثل هذه المساحة الكبيرة، هل تعلم كم يتكلف ترميمه؟!»

وابتسم مرة أخرى ابتسامة تنم عن سخرية، وتابع: «لقد خصصوا مبلغًا زهيدًا جدًا، وعلى هذا فإننا لا نأتي إلى هنا إلا في أيام الخميس فحسب، ولا تتعدى مرات المجيء مرة كل أسبوعين نقوم فيها بأعمال البياض في إحدى الغرف. وبمجرد أن تنتهي أعمال البياض، سيُستدعى المعماري، ثم البنَّاء، والنقَّاش، والخزَّاف، أووووه... بهذه الطريق فلن تنتهي أعمال الإصلاح والترميم في هذا القصر قبل عشرين عامًا أخرى من الآن.»

فسألته: «هل صحيح أن المكان هنا يبدو غريبًا؟»

فقال: «ماذا تعني بهذا؟!»

فقلت: «لا شيء، فقط سمعت أن أشياء غريبة قد وقعت هنا. ألم تلاحظوا شيئًا في أثناء مجيئكم وانصرافكم؟!»

فابتسم ساخرًا، وقال: «كلا، يا عزيزي، إنه مجرد كلام. فقط وقتما كانوا يفرغون هذا الحوض، استخرجوا منه بعض العِظام البشرية. والآن يزعمون أن هذا القصر مسكون بالأشباح، لكنني لا أخاف من مثل هذه الخرافات والهراءات.»

سحبت نفسًا عميقًا، وقلت: «عظام بشرية؟!»

أطبق شفتيه على بعضهما، وقال: «يقولون إنها بشرية.»

أدرت رأسي نحو الفناء، ونظرت إلى الحوض مرة أخرى، ثم سألت صبي عامل الجبس: «ما الذي سيحدث هنا بعد الانتهاء من أعمال الترميم؟»

فقال: «وما أدراني، من الممكن أن... أتعلم ماذا يُقال؟ يُقال إنهم سوف يقيمون مركزًا ثقافيًا أو شيئًا كهذا. ولكن مع هذا الحفنة من المال، فإن الإصلاحات لن تنتهي إلى أبد الآبدين.»

ومرة ثانية نظر إلى ليلى، وسألني: «هل تلك الفتاة تصور؟»

فقلت: «نعم، نحن معًا.»

ثم سألته: «هل يمكنني الذهاب إلى الغرفة أسفل السلم؟»

فهز رأسه، وقال: «لا أعلم، اذهب حيثما تريد، فقط لا تلمس شيئًا. كما رأيت فقد قال الأُسطى إننا مسؤولون عن الحفاظ عليه.»

فقلت: «حسنًا.»

واتجهت إلى ليلى، كما عاد صبي عامل الجبس إلى الغرفة التي كان قد خرج منها. وبمجرد أن وصلت إلى ليلى، قلت: «هيا، لننزل إلى الغرفة تحت السلم.»

مكثت ليلى لحظة، ثم قالت: «المكان نفسه الذي...»

فقلت: «أجل، أريد أن أعرف أتلك الحفرة التي قد تحدث عنها رضا قلي ميرزا هناك بالفعل أم لا.»

فقالت ليلى: «كل ما ذكره صحيح إلى الآن.»

فقلت: «يقول صبي عامل الجبس إنهم عندما أفرغوا الحوض من الماء، أخرجوا منه عظامًا بشرية!»

أخذت ليلى البغتة، وقالت: «أوه، يا إلهي!.. حقًا؟!»

فقلت: «هذا ما قاله.»

فقالت ليلى: «رحماك يا إلهي!»

فقلت: «إنني أتوق لمشاهدة الغرفة تحت السلم، وتلك الحفرة، وتلك النقود المعدنية، وذلك الخاتم. هذا ما ألمسه بداخلي أن ثمة رابطة وطيدة بالفعل كانت بين رضا وشكور، وإلا لكان بإمكان رضا قلي ميرزا أن يدون الكلام الذي كان يتوارد على ألسنة عامة الناس بشأن هذا القصر، دون حتى أن يكلف نفسه رؤية هذا المكان عن قرب.»

فقالت ليلى: «والآن، أين توجد هذه الغرفة؟»

فقلت: «كما كتب رضا قلي ميرزا فإنها تحت السلم، عند زاوية الفناء مباشرة.»

هبطنا معًا الدرج. كان بجانب السلم باب خشبي بدرفتين مُصفَر ومتهالك، حتى إنهم كانوا قد ألقوا مزلاجه القديم، ومرروا قفلًا حديديًا كبيرًا عبر حلقتيه، حتى يتمكنوا من إغلاقه. قالت ليلى حينئذٍ: «ولكن يوجد قفل هنا.»

فأمسكت بالقفل الحديدي، وقلت: «لا بد أن يأتي المسؤول عنه... مساءً.»

فقالت ليلى: «إنه لأمر مؤسف، الآن من لديه صبر، كي ينتظر حتى المساء؟!»

فتلكأت قليلًا مترددًا، قبل أن أقول: «لنصعد، ونشاهد الغرف الأخرى.»

صعدنا السلم مرة أخرى. ودخلنا الإيوان في الطابق العلوي، ثم مررنا بالغرفة الأولى والثانية والثالثة على التوالي. كان باب الغرفة الرابعة مواربًا، فدفعناه، وانفتح الباب محدثًا صريرًا جافًا عاليًا. أما الغرفة من الداخل فكانت مظلمة، ورائحة الرطوبة والعفن العتيق فيها لا تطاق.

فتحت درفتي الباب، ودخلت، فأضاء النور في الخارج عتمة الغرفة أكثر. كما دخلت ليلى أيضًا. كانت غرفة كبيرة فارغة ذات أرضية طوبية، حيث كان قد أُلقي في أرجائها وزواياها أكلمة وسجاجيد قديمة وبالية. اتجهت بنظري إلى سقف الغرفة وعوارضه الخشبية البالية الناتئة، في حين كان ينسل من بينها في بعض الأماكن خيوط من الخوص. تطلعت ليلى هي الأخرى إلى السقف، وقالت: «هذا السقف سوف ينخسف هنا.»

فقلت: «آمل أن يصلحوه عاجلًا.»

مضيت نحو الجدار، ثم هززت الدرفة الخشبية للنافذة عدة مرات، حتى انفتحت. وفور أن لامس الهواء النقي الطازج صفحة وجهي، جعلني أشعر بحال أفضل. استدرت، ورحت أجول بناظري في أنحاء الغرفة التي قد أصبحت الآن تُرى في الضوء بشكل أفضل، ثم قلت: «قد يكون هذا المكان الذي اعتادوا الأكل فيه، فدائمًا ما كان يتحدث عن غرفة كبيرة كانوا يبسطون فيها المائدة، ليتناولوا الطعام.»

ثم تصورت في ذهني الغرفة، حيث قد جلس فيها خمسة وعشرون صبيًا حول مائدة مرتفعة عن

الأرض تتوسط الغرفة، يتناولون الطعام. ووقتئذٍ تذكرت صباح اليوم التالي بعد غرق شكور في الحوض وسط القصر، صباح اليوم الذي قد جلس فيه رضا قلي ميرزا إلى جانب الصبية الآخرين في قصر نُويان خان بعد قضائه ليلة عصيبة.

كانت الليلة التي غرق فيها شكور في الحوض وسط القصر هي الليلة الأشد مرارة في عمري، حتى إنني في الليلة الأولى التي ابتعدت فيها عن أهلي وصرت أسير قصر نُويان خان، لم أشقى همًا وحزنًا، بقدر ما فتَّ فراق شكور في عضدي. كان شكور كل الناس في نظري، وبرحيله غدوت وحيدًا بلا رفيق ولا أنيس، وبات إحسانه ولطفه الوافر ذكريات ينفطر لها كبدي. عندما فقدت الأمل في خروج شكور من الحوض، فقدت وعيي، وأُغشي عليّ، ولم أعد داريًا بأي شيء من حولي. ويبدو أن الصبية قد أنهضوني، وحملوني إلى الغرفة تحت السلم، إلى جانب النول. وهنالك أرقدوني، وبلطائف الحيل القديمة كاستخدام الطين الطري المخلوط بالتبن، والجُلاب المركز، وكل شيء آخر كان في متناول أيديهم، ما لبثوا أن أفاقوني. ولما فتحت عينيّ كنت ممدًا وسط الغرفة، ويقف على رأسي صبيان، أحدهما كان إسماعيل الذي في اليوم الأول لي في القصر قد ظن أنني تركي. ولما رآني أنظر إليه، أدار رأسه إلى الخلف، وقال: «لقد فتح عينيه!»

وحينئذٍ لمحت فرُّوخًا، وقد جاء، ووقف على رأسي، ونظر إليّ من خلف الصبية الجالسين حولي، وقال: «أحضروا له كوب ماء مُحلى بالسكر.»

ثم استدار، بحيث جعل ظهره لي، وقال: «غبت عن هذه المقبرة بعد ظهر أحد الأيام، فانظروا ما الذي اقترفته أيديكم، نحن هالكون لا محالة! إن فاحت الرائحة المنتنة لتلك الجثة من الحوض، وعلم نُويان خان أن أحد عماله قد بات الآن في عداد المفقودين، فإنه لن يدع الأمر يمر بسلام، وسوف يجعل جميع من هنا في بؤس وشقاء.»

أخذ إسماعيل كوب الماء الذي قد أعطاه إياه أحد الصبية، ثم ألقى حفنة السكر التي كانت بيده في الكوب، وأخذ يقلب بإصبعه، ثم خاطبني بلهجة تركية قائلًا: «انهض، انهض، واشربه.»

كانت رأسي تدور بي، وجسدي واهنًا كنخلة ترامق بِعِرقٍ لا تحيا ولا تموت. بالكاد رفعت رأسي، وارتشفت قليلًا من الماء المحلى في الكوب، فتحسن الطعم المر الذي كنت أجده في فمي، ثم ما لبثت أن وضعت رأسي مرة أخرى على الأرض.»

فقال فرُّوخ: «دعوه، واغربوا جميعًا من هنا.»

ثم التفت نحوي، وقال: «وأنت، نم قليلًا، ثم بعد ذلك اذهب، لتنضم إلى بقية الصبية.»

غادر هو الآخر مع الصبية من الغرفة. وراح رأسي يؤلمني، بحيث لم أعد أستطيع إبقاء عيني مفتوحتين، فأغمضت جفني، حتى أسترخي قليلًا. ولكن مشهد سقوط شكور في مياه الحوض، وصعوده إلى سطح الماء، ثم نزوله، شخص أمام ناظري على حين غرة، وأفزعني، ففتحت عيني. وقع نظري على مكان شكور الشاعر بجانب النول، فأدمى ذلك قلبي، وغصت حنجرتي بالعبرة مخنوقة، ثم انفجرت باكيًا، وانتحبت انتحابًا. كان غياب شكور أمرًا عصيًا على نفسي. أدرت رأسي سمت الأرض، وتوسدت ذراعي، وانخرطت في بكاء لا ينقطع، حتى تهدجت أنفاسي، وبح صوتي، ولم أعد أستطيع إلى البكاء سبيلًا. ولم يطل بي الوقت، حتى نهضت بصعوبة، وجلست، ورحت أمسح وجهي الغارق في الدموع بطرفيّ كميّ. ثم نظرت مرة ثانية إلى مكان شكور الشاغر، وإلى مشطه، ودفته التي كانت في مكانها أمام النول، ورحت أغمغم بحسرة: «شكور... شكور...»

خنقتني العبرة مرة ثانية، لكنني أمسكت نفسي عن البكاء، وخرجت من الباب. كان القصر كله متشحًا بالصمت. اقتربت من الحوض، حيث كانت مياهه الداكنة التي غلب عليها السواد راكدة تمامًا بلا أي حركة، وكانت صورة القمر غير المكتمل التي لاحت من خلف غيوم السماء قد انعكست على صفحه مياهه. حينئذٍ أغمضت عينيّ، ثم ما لبثت أن استدرت ناحية السلم. لكنني لم أكد أرتقي بضع درجات، حتى أدركت أذناي صوتًا قادمًا من الغرفة أسفل السلم. توهمت للحظة أن أحدًا ما دخل الغرفة، وأردت أن أعود إلى الأسفل، لأستوضح ما الأمر. لكن الصمت لف المكان كله مرة ثانية، ففكرت في أنني ربما أكون قد توهمت السمع. واصلت طريقي، حتى دخلت الإيوان. مررت أمام الغرف، فألفيت باب الغرفة التي يتناول فيها الصبية الطعام مُشرعًا، حيث كانوا جميعًا قد جلسوا يتناولون العشاء في حالة من الصمت المستكين تحت ضوء المصباح. اجتزت باب الغرفة، وذهبت إلى الغرفة الأخرى حيثما اعتدنا أن ننام، واستلقيت أرضًا، وحاولت أن أنام. غير أن كل محاولتي للنوم قد ذهبت سدى. فتلكم الليلة حتى الصباح ظللت أتقلب في مكاني فحسب. وحالما جاء الصبية الآخرون إلى الغرفة، ليخلدوا إلى النوم، أغمضت عيني، لأوهمهم بأنني تمكنت من النوم.

لكن النوم عزَّ عليَّ، ولم أنفك أتقلب في مهجعي حتى الصباح. ثم إنني نهضت مرات عديدة في منتصف الليل، واتجهت إلى شرفة الإيوان، ورحت أتأمل الحوض من أعلى، وأنظر إلى الفناء الخالي الساكن. كم تمنيت لو عاد شكور مرة أخرى. وما أذكى همي وضاعف بُرحائي أنه لم يكن هناك من أحد يسد فجوة الغياب الذي خلفه شكور لأفضي له بسريرتي وأنفس عن قلبي الكليم. قرب الفجر عدت إلى الصبية، واستلقيت في مكاني. لكن جفني ما لبثا أن ثقلا هذه المرة، وكنت على وشك النوم، حتى سمعت صوت راضي وهو يزعق بنبرة صارخة حينما كان يوقظ الصبية. كان الصبية يهبون من رقادهم مسرعين، ويجمعون أفرشتهم، ويرتبونها. أما أنا فلم أكن أقوى حتى على النهوض، وبينما كنت ممددًا في مكاني، تقدم راضي وركلني في جنبي، وصرخ قائلًا: «هيا، انهض، لا تلعب دور الضحية المسكين، لئن كانت نفسك قد سولت لك بأنك هكذا سوف تتمكن من التملص من العمل، فأنت تحلم. من اليوم عليك أن تعمل بقدر اثنين، وتتم نسج تلك السجادة بنفسك، هيا...»

آلمني جنبي بشدة، ورحت أتلوى، ومخافة أن أتعرض للركل مرة ثانية، فززت من مضجعي، وخرجت مع الصبية الآخرين. وفي حين كان الصبية قد اصطفوا أمام المرحاض، ذهبت أنا إلى غرفة الطعام. كان هناك صبيان يمدان السماط، ويجهزان مائدة الطعام. جلست، وأسندت ظهري إلى الجدار. ولما لمحني أحد الصبيين، قال: «رحمة الله عليك يا شكور. كان فتى طيبًا.»

وقال الآخر: «هلم إلى المائدة.»

ودون أن أنبس ببنت شفة، ذهبت، وجلست إلى المائدة. كذلك جاء الصبية الآخرون، وجلسوا، وبعدئذٍ جاء الصبيان اللذان كانا قد أعدا المائدة، وأحضرا الخبز والجبن وجرتي ماء. انحنيت على المائدة، وتناولت رغيف خبز وبعض الجبن، فملست بإصبعي الجبن على الخبز، ثم قطعت لقمة من رغيفي، ووضعها في فمي. كان فمي جافًا، واللقمة تغص في حلقي. فما كدت أهم لأتناول جرة الماء، حتى شعرت بأن الصبية يصيحون في أماكنهم. ولما رفعت رأسي، رأيت الصبية يتهامسون بعضهم مع بعض، وينظرون مبهوتين إلى المائدة. فنظرت في الاتجاه الذي كان الآخرون يرنون إليه؛ على المائدة. وحينذاك رأيت واحدًا من أغرب وأكثر المشاهد التي لا تُصدق في عمري: كان شكور قد جلس إلى المائدة، وراح يأدم الخبز بالجبن.

١٤--

كنت وحدي بالمنزل، لا أحد سواي. كانت ليلى تدرس في صف التقوية، أما أبي فقد خرج إلى أمر ما. كان الجو يتجه نحو الغروب، والضوء في الغرفة يقل تدريجيًا، فرفعت رأسي المنكب على مذكرات رضا قلي ميرزا. وحالما شعرت بغصة دمع في حلقي، قمت عن الطاولة، وخرجت من الغرفة، واتجهت إلى غرفة الجلوس عند النافذة، بجانب صورة أمي. أخذت أتأمل الأجواء في الخارج؛ الشارع الذي أمسى مظلمًا شيئًا فشيئًا. ثم التفت بنظري إلى صورة أمي، وتملكني البكاء. فأغمضت عينيّ، وابتلعت دموعي، ورحت مرة ثانية أطالع الشارع والسيارات التي كانت تقطعه. كانت ثمة امرأة تسير على رصيف المشاة تشبك يديها بيدي فتاتين صغيرتين، فاستدرت، ووقفت معطيًا ظهري للنافذة. ثم اتجهت إلى غرفة أمي وأبي، ودلفت إلى الغرفة. أخذت أنظر إلى فراش أمي وأبي، إلى أسطوانة الأكسجين التي كانت بجانب الفراش؛ إلى جدول العلاج الخاص بأمي المثبت بالجدار. نظرت إلى صورة أمي التي كانت محفوظة في إطار أسود اللون صغير على التسريحة، فجلست إلى التسريحة ورحت أتأمل أمي. تأملت قسمات وجهها الجميل المتناسق، وعينيها النجلاوين، وأهدابها الطويلة، وشعرها الكستنائي المموج. حينئذٍ نزا بي قلبي شوقًا إلى أمي. فقلت لها إنني أفتقدها، وأشتاق لمرآها. وقلت لها إنني أتمنى فقط أن أراها لو مرة واحدة. وقلت لها إن بيتنا قد صار موحشًا وكئيبًا مذ أن رحلت. وقلت لها إن الحنين إلى وداعها، والتوق إلى رؤيتها مرة واحدة قبل الموت لن يبرح قلبي ما حييت. رحت أبكي، وأبكي، وأتحدث إلى أمي، فقلت لها ليتني أراكِ مرة أخرى، مرة أخرى فحسب، ليتك تتحدثين معي مرة واحدة فقط، لكيلا يلازمني هذا الشعور بالوحشة والافتقار داخل نفسي للأبد. نظرت إلى صورة أمي، وانتظرت أن تحرك شفتيها وتبادلني الحديث، ولكن عوضًا عن ذلك راحت الغرفة تزداد ظلمة، وتلاشى وجه أمي في الظلام. وعندئذٍ وضعت جبهتي على حافة طاولة التسريحة، وأخبرت أمي عن ذكريات الطفولة. فقلت لها كم أنني أحبها. وقلت لها كم وددت لو أضع رأسي على ركبتها، وكم كان سماع صوتها يسر خاطري، وكم كنت أعتمد عليها دائمًا في كل أمور حياتي. لكن تذكر كل تلك الخواطر والذكريات المتنائية كان يجيش في نفسي كوامن الحزن والأسى، ويحفز عيني لتفيضا بمائهما أكثر. وفي أوج حزني وغصتي، رفعت رأسي، وكفكفت دموعي، وحدقت إلى وجه أمي الذي كانت معالمه قد انطمست تحت وطأة الظلام. حدقت إليه، وقلت بصوت عالٍ: «ليتك تتحدثين معي ولو مرة واحدة فقط!»

وفي صمت ممض نظرت إلى صورة أمي. ولما كان وجهها جامدًا لا يتحرك، زعقت مرة ثانية: «إن سمعتِ صوتي مجددًا، فتحدثي معي مرة واحدة فحسب.»

حملقت إلى الصورة. كان وجه أمي بالكاد مرئيًا، وتبدو عيناها الواسعتان في الظلام أصغر حجمًا، كما لو كاد جفناها ينطبقان. فقلت محتنقًا: «هذا ليس عدلًا، ليس عدلًا أن تذهبي، وتتركينا وحدنا.»

وأسندت جبهتي إلى حافة طاولة التسريحة ثانية، وأجهشت في البكاء. انفرطت في بكاء ونشيج حار من أعماق قلبي، وفي وسط بكائي لم أنفك أنادي أمي. حتى ألفيت يدًا تحط على كتفي اليمنى برفق، فصدقت لوهلة أن أمي قد وضعت يدها على كتفي، فاستدرت بهدوء، ونظرت فوقي، فلمحت في عتمة الغرفة وجه أبي وقد وقف على رأسي، وينظر إلي مُشفقًا. أخذت حينئذٍ أئن: «أمي...»

جلس أبي بجانبي، واحتضني. وعندما لصق وجهه بوجهي كان وجهه هو الآخر مندى بالدموع، فتشاطرنا البكاء معًا.

تلك الليلة وقتما هدأ روعي أنا وأبي، جلسنا على حافة الفراش، في المكان نفسه حيث اعتادت أمي أن تنام، بجانب أسطوانة الأكسجين. ثم أشعل أبي الضوء، وأحضر مناديل كي نمسح دموعنا. وجلسنا معًا في صمت تام لبضع دقائق. كان أبي قد خفض رأسه، وراح يعقد أصابع يده اليمنى مع اليسرى، ثم يحلها. في حين كنت قد ثبت نظري على صورة أمي. لكن بعد فترة وجيزة قال أبي: «لقد حاولت جاهدًا طوال هذه الفترة أن أحد من الفراغ الذي خلفه رحيل أمك، ولكن يبدو أنني فشلت.»

فقلت: «كلا، الأمر ليس له علاقة بك، إنني...»

فقال أبي: «إني أتفهم، إنني أتفهم ما تشعر به. لقد أخبرتني من قبل، كان رحيل أمك مفاجأة مدوية بالنسبة لك. فعدم تمكنك من رؤيتها في اليوم الأخير قد سبب لك ألمًا شديدًا. غير أنني أنا الذي مكثت بجانبها في يومها الأخير، لم يكن شعوري يختلف عن شعورك في شيء. فحالما يرحل أعز شخص في الحياة بالنسبة لإنسان، فإنه لا يرحل إلا وقد أخذ معه جزءًا من هذا الإنسان، ليظل ثمة فراغ داخل المرء للأبد. هذا الفراغ سوف يصير مأوى تروح وتغدو فيه عديد الأفكار والهواجس، وشتى صنوف الحسرة والندم. وإنك لتتجرع الحسرة والندم لأنك لم تقر عينك به وقتما كان لا يزال حيًا يرزق، لم تجد الوقت الكافي لتحادثه وتسامره، لم تصغ إلى أحاديثه باهتمام. وعلى هذا النحو فمتى يرحل إنسان عزيز على قلبك، يكون رحيله مُباغتًا كما استقر في ذهنك أنت. حتى وإن بلغ به الكِبر عتيًا، حتى وإن أقعده المرض حينًا من الدهر فإن رحيله سيظل أمرًا لا يُصدق، لأنه لا يرحل قبل أن يأخذ معه جزءًا منك أيضًا.»

وبعد ذلك لزم الصمت. كذلك كنت صامتًا، بحيث لم يعد يُسمع في الغرفة صوت ما خلا دقات عقارب ساعة الحائط. ثم ما لبث أبي أن قال: «هل تعرف أصغر رحمتي؟»

فكرت للحظة، وقلت: «ليس تمامًا، سمعتك تذكر اسمه في بعض الأحيان»

فقال: «إنه صديقي، صديق قديم، من الغريب أنه قد وقع في خاطري الآن. إننا نعرف بعضنا منذ سنوات طوال. لقد فقد أصغر رحمتي كلتا ساقيه خلال الحرب، وهو الآن لا يتحرك إلى أي مكان إلا قعيدًا على كرسي متحرك. ذات مرة خرجنا معًا نتنزه في إحدى الحدائق، وبينما كنا نتجاذب الحديث، إذ به فجأة يقول حميد إن ساقيَّ تحُكاني، فقلت مندهشًا ماذا؟ قال إن ساقيَّ تحُكاني، فما لبثت أن ضحكت وقلت أي ساق؟ فقال إنهما ساقاي أنا، فقلت لقد فقدت ساقيك، قال ولكنني ما زلت أشعر بهما. فأحيانًا ما أشعر بهما تحكاني، وأحيانًا أشعر بوخز فيهما، وأحيانا أُخر تؤلماني، فقلت أحقًا؟! قال أجل إنه كذلك بالفعل.»

ثم نشق نفسًا عميقًا، وواصل كلامه قائلًا: «أحيانًا ما أفكر في قرارة نفسي أن زوجتي آذر كانت مثل ساقيّ كل واحد منا حينما ذهبت إلى مكان آخر. إنها ليست موجودة في الظاهر، بيد أننا دائمًا ما نشعر بها. وكلما افتقدناها بيننا، يبدو الأمر تمامًا كما لو أنك تشعر برغبة جامحة في أن تحك ساقك تلك.»

فنظرت إلى أبي وقلت: «كم يحُز في النفس أن تشعر برغبة في أن تحُك جزءًا ما فيك، ولا تستطيع أن تحُكه بالفعل!»

فقال أبي: «أعرف، ولكن الشيء الأهم هو أن يكون هنالك شعور به، شعور بأنه موجود بالفعل.»

ثم غير نبرة صوته، وقال بصوت أعلى: «مجيد، لدي يقين من أن آذر حية، وتعيش في مكان آخر. لا يجب بالطبع أن نراها، أو نتمكن من الحديث إليها مثل سائر الأحياء، كي نصدق أنها حية بالفعل. يكفينا هذا الشعور القلبي؛ بحيث عندما يجتاحنا الشوق إليها من حين لآخر، يكون هو ذاته دليلًا ملموسًا على وجودها. إننا كيفما صدقنا أنها موجودة، فسيكون بوسعنا أن نصدق أنها تسمع كلامنا. وإذما لجأنا إلى قلوبنا، فسنتمكن من سماع الكلام الذي توجهه إلينا.»

فقلت: «ولكن شعوري مختلف، كان يجب أن أراها ذلك اليوم.»

فقال أبي: «حتى إذا رأيتها ألف مرة أخرى، فبمجرد أن ترحل، سوف يعاودك الشعور بالوحشة والافتقار، مثلي، ومثل ليلى، ومثل كل الأشخاص الذين عرفوا وأحبوا آذر.»

ثم لزم كلانا الصمت مرة أخرى. لكن لم يكد يمضي الوقت بنا، حتى راح أبي، مثل المرة السابقة، يكسر حاجز الصمت ثانية. وقال: «إنني لست على ما يرام أبدًا. فمنذ ذاك اليوم الذي تجادلنا فيه في الورشة، وأنا أشعر أنني لم أعد أقوى على شيء. إنني أحتاج إلى أن ألملم شتات نفسي، وأقف على قدمي مجددًا، ولأجل أن يتحقق هذا الأمر، فأنا بحاجة إلى أن تمد لي أنت وأختك ليلى يد العون. أعتقد أن الوقت قد حان لأن نغير بعض الأشياء، سواء أداخل أنفسنا كانت أم خارجها.»

ثم قام، ونزع ورقة جدول علاج أمي عن الجدار قبل أن ينصرف.

--١٥

عاد شكور، ولم يستطع أحد تصديق هذا. هذا الصبي الذي كان الجميع قد شهد الليلة الماضية غرقه وعدم تمكنه من الخروج من الحوض، ها هو ذا الآن قد جاء، ويجلس بجانب الآخرين، ويتناول حصته من الخبز والجبن. لقد أثارت رؤية شكور ضجة عارمة بين الصبية لا سيما هؤلاء الذين كانوا يجلسون بالقرب منه، فقد فزوا من أماكنهم مرعوبين، إذ بدا الأمر كما لو أن جثة شكور قد عادت من القبر. كذلك فإن الصبية الآخرين توقفوا عن الطعام. وراح الجميع يتفرس فيه ويدقق النظر، كما لو كانوا جميعًا يريدون التيقن من أنه شكور بالفعل. ثم من بعد ذلك ناداه بضعة أشخاص. غير أن شكورًا الذي لم يكن يعير أيًا منهم اهتمامًا حتى ذلك الحين وما لبث أن رفع رأسه بهدوء، وراح ينظر إلى الآخرين. كانت بشرة وجهه شاحبة البياض، كذلك كانت شفتيه. حينئذٍ بادره أحد الصبية المبهوتين قائلًا: «شكور، أهذا أنت؟!»

فأجاب شكور بهدوء دون أن ينظر إلى أحد: «أجل.»

فقال آخر: «ألم... ألم تسقط مساء أمس في الحوض؟!»

فابتسم شكور ابتسامة صفراء باهتة، وقال: «بلى.»

فقال آخر: «وهل مت؟»

فقال شكور: «كلا، إنني حي.»

عندئذٍ تراءى لنا راضي واقفًا في إطار الباب. كان يريد أن يدخل، ليرى بنفسه شكورًا، لكنه تيبس في مكانه. حملق إلى شكور للحظة، ثم نظر إلى الآخرين الذين كانوا قد تبلبلوا وسط دهشتهم، وقال: «هذا... هذا... هذا شكور؟!»

فأجاب أحد الصبية: «أجل.»

التفت راضي إلى شكور، وقال: «اللعنة! ألم تهلك... ألم تمت؟!»

رفع شكور رأسه، وقال بصوت مريع يوحي بأنه كان قد خرج من قبر: «نعم... لم أمت.»

أما راضي الذي كان لسانه قد وعث فما لبث أن قال متلعثمًا: «ولكنك نزلت... نزلت تحت الماء... اختفيت.»

فرد شكور قائلًا: «لقد خرجت من الماء. عندما ذهبتم، خرجت.»

فسأله راضي مندهشًا: «إذن أين كنت ليلة أمس؟»

فقال شكور: «في الغرفة تحت السلم.»

حينئذٍ قال جليل، الصبي الذي كان من مدينة وارمين، ويعد أكبر سنًا من الصبية الآخرين: «إنه ميت. انظروا إلى هيئته، تأملوا كيف قد صار وجهه، لا يوجد إنسان على قيد الحياة بمثل هذا الشكل والمنظر!»

خفض شكور رأسه، وانشغل بدهن الخبز بالجبن. أما أنا الذي كنت حتى ذلك الحين رابضًا في

مكاني كالصخرة الصماء ولا أدري ماذا يجب أن أفعل، قمت، وتقدمت إلى شكور، وقلت: «هل هنالك ميت يمشي؟ هل يتكلم؟ هل يأكل الطعام؟! عندما يقول إنه لم يمت، فهو لم يمت بالفعل. لا بد أنه انتشل نفسه من تحت الماء.»

عندما وصلت إلى شكور أمسكت بيده، لأساعده على القيام. كانت يده باردة كالثلج، فبُغت من ثلوجتها، ووددت للحظة أن أفلتها من يدي، لكنني رغم ذلك ظللت ممسكًا بيده. نظرت إلى وجهه الذي كان شاحبًا أبيض، وإلى شفتيه اللتين قد غاض منهما الدم فأصبحتا تبدوان كما لو أنهما بلا لون. أطرقت هنيهة، وبعد ذلك ابتلعت ريقي، وقلت: «قم يا شكور، قم، لنذهب إلى عملنا.»

اجتذبت شكورًا من يده، وأقمته من مكانه. ثم دفعته برفق نحو الباب، وكررت كلامي نفسه قائلًا: «هيا لنذهب إلى عملنا، حمدًا لله أنك نجوت من الموت ولا تزال حيًا.»

سد راضي طريقنا أمام باب الغرفة، وألقى نظرة خاطفة عليّ، في حين نظر إلى شكور طويلًا. وبعد صمت قصير، التفت إلى شكور، وقال: «لا أدري أأنت حيّ الآن أم ميت أم روح ميت، ولكن إن كان بوسعك أن تعمل، فستكون قد أنقذتني أنا وفرُّوخًا من يد نُويان خان الذي سوف يثور لا محالة لتكبد الخسارة في ملكه وماله. فلتذهب إلى عملك كشخص طبيعي، وأطبق فمك على هذا الأمر.»

وبعد أن انزاح عن الباب جانبًا، مضيت أنا وشكور، وذهبنا إلى الإيوان، ومنه نزلنا الدرج. وبينما كنا نهم بدخول الغرفة تحت السلم، وقف شكور دفعة واحدة، واستدار خلفه، ونظر إلى الحوض. كانت مياه الحوض على غرار العادة راكدة وداكنة. انتظرت حتى يشرع شكور في السير، ولكنه ظل واقفًا في مكانه، يرمي بنظره إلى الحوض. وفي نهاية الأمر طرقت كتفه برقة، وهمست إليه قائلًا: «هيا اذهب إلى الغرفة يا شكور، إن الصبية يرقبوننا من أعلى.»

عندئذٍ دخل شكور الغرفة، ودخلت خلفه. اتجه شكور إلى النول، وجلس في مكانه المعتاد. كما جلست أيضًا. وعما قليل جاء الشقيقان أكبر وأصغر، وجلسا أمام نولهما بأناة وصمت في حين كانا يسترقان النظر إلى شكور. وسرعان ما باشر شكور عمله. كان هميمًا في العمل، ويده كعادتها تنجز العمل بسرعة. ومن دون أن ينبس بذات شفة عقد الخيوط، وأخذ يدقها، وتقدم في عمله على هذه الحال. كنت أعمل أيضًا، ولكن جل تركيزي كان منصبًا على شكور، لذلك كنت في أثناء النسج أرتكب أخطاء كثيرة، وأقطع الخيوط. في الواقع لم أكن أدري ما حدث، وكان من الصعب عليّ تصديق أن شكورًا قد عاد إلى الحياة من جديد، مثلما كان من الصعب تصديق أنه قد مات أيضًا. فلم ير أحد قط، أو يسمع في أي مكان عن ميت قد عاد إلى معشر الأحياء، بل إن فرُّوخًا نفسه لم يرو لنا في قصصه الليلية المرعبة قصة كهذه. ومع كل هذا فإن شكورًا كان ماثلًا أمامي. لقد عاد الشخص الذي كان الجميع قد شهد غرقه قبل يوم، وبالرغم من أن لونه قد صار شاحبًا وباهتًا كالأموات، كان لا ينفك يأكل ويعمل تمامًا كالأحياء. فلا هيئته هيئة أحياء، ولا تصرفاته تصرفات موتى. كما لو أنه شخص نصفه ميت ونصفه الآخر ينبض بالحياة، كما لو أنه شخص حالة وفاته غير مكتملة.

تمنيت أن يكون كل ما رأيته حتى ذلك الحين حُلمًا. وددت لو أصحو من نومي فجأة، لأجد أن كل شيء لم يكن إلا حلمًا وخيالًا. وحينها كم كانت الحياة في ذلك القصر المخيف والموحش ستغدو بالنسبة لي حلوة. وللحظة قلت في سريرتي وما أدراني ربما يكون بالفعل كل شيء من

وحي أفكاري وخيالاتي، وما هي إلا أن انغرز سن المشط في إصبعي، وجرحه، فوضعت إصبعي في فمي، ورحت أمص منه الدم، وقلت لنفسي لو كان حلمًا، لما شعرت بلسعة هذا الجرح أو الطعم اللاذع للدم الذي يخُر منه. ثم نظرت إلى شكور الذي كان منهمكًا للغاية في العمل، ويتقدم بخطى مسرعة، وأردت أن أراه للحظة، فهتفت: «شكور.»

استدار شكور، ورنا إليّ. كان يبدو بالوجه الشاحب نفسه، والعينين الغائمتين اللتين بدتا كما لو أنهما لا تبصران شيئًا. فأوجس في نفسي خيفة، وأدرت رأسي إلى النول، وواصلت عملي.

وفجأة تناهي إلى سمعي صوت فرُّوخ من أمام الباب، وهو يقول: «دعه يكمل عمله.»

فالتفت صوب الباب، وأبصرته. كان معه راضي أيضًا. فألقيت عليه التحية، لكنما فرُّوخ لم يرد، في حين ضحك راضي، وقال: «لقد صار ينجز عمله أسرع.»

فقال فرُّوخ: «هذا جيد، ليلة أمس لم أنم حتى الصباح، خوفًا من نُويان خان. فلو كان هذا قد ميتًا الآن، لبطش ذاك بنا بطشًا.»

ثم التفت إليّ مرة ثانية، وقال: «لا تتكلم معه. دعه، وسيكون بخير.»

فقلت أمرك، وسرعان ما عقدت الخيوط.

قرب الظهيرة، جاء نُويان خان، مثل كل يوم، برفقة فرُّوخ، وراح يعاين أرجاء المكان، كما ألقى نظرة داخل غرفتنا. ودون أن ينطق بكلمة مرَّ، وذهب. ولما حان الظهر لم يرسلني أنا وشكور أحد لنشتري الطعام، إذ لم يعودوا يأتمنون شكورًا مرة أخرى، ويجعلونه محل ثقتهم. وعلى هذا أخذ إسماعيل وجعفر القدرين، وذهبا لابتياع الطعام. أما نحن فتوقفنا عن العمل عند الظهيرة، وأنشأ الصبية يذهبون لتناول طعام الغذاء. وما لبث أصغر وأكبر أن انصرفا قبلنا من الغرفة، ثم من بعدهم خرجت أنا وشكور من الغرفة. ولم تكد أقدامنا تطأ الفناء، حتى تقدم شكور إلى الحوض، وحدق داخله. فوقفت بجانب السلم منتظرًا أن يأتي، لنصعد معًا، إذ لم أرد أن أترك شكورًا بمفرده. حدق شكور إلى الحوض قليلًا، ثم التفت إلي، وقال: «رضا... تعال إلى هنا!»

لم أرغب في التقدم، فقلت مرتابًا مترددًا: «أنا؟!»

فقال شكور: «أجل، تعال إلى هنا، أريد أن أُريك شيئًا.»

كنت خائفًا، فابتلعت ريقي، وقلت: «حسنًا، سأراه في وقت لاحق، هيا لنصعد الآن.»

فقال شكور: «أقبل لا تخف، تعال لأريك شيئًا.»

وبمجرد أن تقدمت خطوة نحوه، صرخ أحد الصبية من عند الجدار قائلًا: «لا تذهب يا رضا، لا تذهب. إنما يريد ذاك الميت أن يأخذك معه.»

فوليت أدراجي، وقلت: «شكور هيا لنصعد، أقبل بالله عليك.»

فحدق شكور مرة بعد إلى الحوض، ثم رفع رأسه بهدوء، وبدأ يمشي تجاهي، وصعدنا معًا الدرج.

في ذلك اليوم، عدنا بعد الغذاء مرة ثانية إلى الغرفة تحت السلم. ودون أن ننبس بذات شفة استأنفنا العمل حتى أظلم الجو. أما فرُّوخ الذي كان جليًا أنه سعيد للغاية بعودة شكور، فقد أمر اثنين من الصبية أن يشعلا الموقد وسط الفناء، ويحملا إليه قِدر المرق، ليصنعا حساء

الإشكنة([43]). لذلك بدأت رائحة الطعام تنتشر في أرجاء القصر بعد فترة. أما نحن الذين لم نكن نأكل يوميًا سوى الخبز والجبن والتمر والرائب، فقد أمسينا منتشين من طيب رائحة البصل المُحمر في الزيت. وفي المساء، توقف الجميع عن العمل، ومضى كل الصبية في طريقهم لتناول وجبة العشاء. بيد أن شكورًا بدا كما لو أنه لم يرد الذهاب إلى الصبية الآخرين. فعندما فرغ من عمله، نزل عن نوله، وجلس إلى الجدار، ومد ساقيه، ليريحهما من العناء والكد. فبادرته قائلًا: «لنصعد الآن، لنتناول العشاء.»

فما كان من شكور إلا أن قال: «اذهب أنت، سأبقى هنا.»

ومع أن منظر وجهه الشاحب هذا كان يوجس الخوف في نفسي، لم تطاوعني نفسي على أن أتركه بمفرده. فقلت: «إذن اجلس أنت هنا، ريثما أحضر لنا الطعام.»

فقال شكور: «حسنًا.»

سرت باتجاه الباب، ثم نظرت إليه مرة بعد، وقلت له محذرًا: «لا تذهبن إلى الحوض، وإلا فسوف يبرحك راضي ضربًا.»

فقال شكور: «حسنًا.»

صعدت، وأخذت سلطانتين من حساء الإشكنة، ورغيفي خبز، ثم نزلت إلى شكور. وتناولنا معًا الطعام في الظلام تحت السلم. عندما كنت في غرفة الطعام أردت أن آخذ معي أيضًا مصباحًا، لكن ذلك لم يكن متاحًا، إذ لم يكن هنالك غير مصباحين ذوي فتيلة كانا قد وُضعا في الغرفة التي تناول فيها الصبية الطعام. ولما بدأنا نتناول طعامنا، استند شكور إلى الجدار خلفه برفق، وراح ينظر إليّ. انكمشت خوفًا، ولكنني تمالكت نفسي، وبادرته قائلًا: «هل تشعر بتحسن الآن؟»

فقال شكور: «نعم.»

ثم أردف: «لمَ لم تأت إلى الحوض، هل أنت خائف؟»

جمجت كلامي قليلًا، حتى لم يكد يبين، ثم قلت: «أجل.»

فقال شكور: «ليتك جئت!»

ثم دون أن ينطق أي كلمة أخرى استلقى على الأرض بجانب الجدار، ووضع رأسه على لفيفة من خيوط النسيج، وما لبث أن نام. أسندت ظهري إلى الجدار المقابل له، ورحت أتأمله وقد تسسلل ضوء القمر عبر إطار الباب إلى وجهه، فجلَّى عن شحوب بشرته أكثر من ذي قبل. كان جفناه مفتوحين، و يطالع سقف الغرفة. انتظرت أن يسدل جفنيه، لكنه لم يغلقهما، وأخذه نوم عميق بحدقتين مفتوحتين. ولما تملكني الرعب الشديد من رؤية عينيه المفتوحتين اللتين كانتا تلمعان في ضوء القمر، قمت بهدوء من جانب الجدار، وأخذت السلطانيتين الفارغتين، وخرجت من الغرفة. صعدت الدرج، ولأجل أن أهرب من المكوث وحدي، ذهبت إلى الغرفة التي كان يوجد فيها الصبية. كان رمضان جالسًا، كسائر المرات الأخريات، خلف مصباح ذي فتيلة، وراح يحرك يديه تجاه ضوئه. كما قد جلس الصبية متلاحمين، يتأملون ظل يديه على الجدار. وكان فرُّوخ وراضي جالسين في الغرفة أيضًا، ويسندان ظهريهما إلي الجدار. فور أن دلفت

الغرفة، هرج الصبية ومرجوا، وتوشوشوا إلى بعضهم، ثم قال أحدهم بصوت عالٍ: «لقد جاء صاحبه.»

وقال آخر ساخرًا: «أيمكن أن يكون هذا الآخر ميتًا؟!»

فضحك الصبية. وقال فرُّوخ من جانب الجدار: «أين صاحبك؟»

فقلت: «لقد نام في الغرفة تحت السلم.»

فقال أحد الصبية: «الحمد لله، وإلا لما ذقنا طعم النوم حتى الصباح من شدة الرعب.»

كما قال لي رمضان من مكانه خلف المصباح: «أما زلت حيًا؟»

وقال آخر لفرُّوخ: «كان يريد في الظهيرة أن يلقي هذا في الحوض.»

فقال راضي: «بئسما فعل، منذ هذه اللحظة متى اقترب شخص من الحوض، فسوف أكسر قصبة ساقه كسرًا.»

جلست بجانب الصبية دون أن أنبس ببنت شفة، وإذ بغتة رأيت هؤلاء الذين كانوا يجلسون من حولي ينأون بأنفسهم بهدوء. وحينئذٍ ضحك فرُّوخ وقال: «لمَ تخافون من هذا البائس، ذاك هو من سقط في الحوض، وخرج.»

نظرت إلى الجدار المقابل منتظرًا أن يصنع رمضان بيده شكلًا آخر، ولكنه لم يفعل شيئًا. فما لبث فرُّوخ أن قال: «لم توقفت، يا رمضان، قدم لنا عرضًا آخر.»

فقال رمضان: «أمرك... ولكن.»

فقال فرُّوخ:«لا عذر لك... قدم لنا عرضًا.»

فقال رمضان: «ارو لنا قصة أولًا.»

فقال فرُّوخ: «الآن قدم لنا عرضًا، وسوف أروي من بعدك قصة. »

فقال أحد الصبية: «كلا، ارو أنت قصة يا فرُّوخ خان، ارو قصة ذلك الجن في الحمام.»

وقال آخر: «أجل، تلك القصة للرجل الذي قد ذهب إلى الحمام، فحممه الجن.»

فما كان من فرُّوخ إلا أن أذعن قائلًا: «حسنًا، سأرويها.»

ثم سعل، ليطرد البلغم المتراكم على صدره، وقال: «كان أحد أقاربنا قد ذهب إلى حمام حسن آباد([44]) ذاك، وحمام حسن آباد يسكنه كثيرٌ من الجن، وقد توقف عن العمل أكثر من مرة بسبب الجن، خلاصة القول إن صاحبنا كان قد ذهب عند طلوع الفجر إلى حمام حسن آباد، ولما دلف الحمام، رأي نفرًا من الناس جالسين، وكان الدلاك يجلو أجسادهم، فجلس صاحبنا هو الآخر، حتى جاءه الدلاك، وأخذ يدعكه بالليفة، وجاء في إثر الدلاك رجل آخر ليُرَّغي الصابون على جسده، فأغمض صاحبنا عينيه، لئلا يدخل فيهما الصابون. ولما بات رأسه كاملًا مغطى برغوة الصابون، جاءه شخص آخر وصب فوق رأسه الماء، فغسل صاحبنا رأسه، ثم مسح على عينيه ليزيل عنهما رغوة الصابون. لكنه رأى أن كلا النفرين أي ذاك الذي كان قد رَغَّى الصابون، وذلك الذي كان يصب الماء، تبرز من أقدامهما حوافر، وهنا فطن إلى أنهما من معشر الجن.

مجمل القول أنه قام بسرعة، وخرج من الحمام خائفًا. ولقد رأى في طريقه صاحب الحمام جالسًا خلف طاولة إدارة الحمام يأخذ سِنة من النوم، فذهب إليه، وقال إن الحمام يعج بالجن، أتقول الحمام، كيف هذا؟! من أين عرفت؟! فقال إنه قد رأى بنفسه نفرين منهما لديهما حوافر، وعندئذٍ أخرج صاحب الحمام قدمه من خلف الطاولة، وأظهرها أمام صاحبنا، ثم سأله، هل كانت حوافرهم تبدو بهذا الشكل؟ فوجد صاحبنا أن رجليّ صاحب الحمام أيضًا تنتهي بحوافر، وفطن إلى أنه هو الآخر من معشر الجن. خلاصة الأمر أنه فز إلى خارج الحمام ملفوفًا بإزاره، وانصرف عائدًا إلى بيته.»

ضحك الصبية، وارتكن بعضهم إلى الآخر أكثر في جلسته، ثم قام بعض الأشخاص ممن كانوا يجلسون قربي، ومشوا بضع خطوات، وجلسوا على مسافة مني. حينئذٍ هممت بالتحرك من مكاني، وغادرت الغرفة. ذهبت إلى الإيوان ومن خلف الدرابزين رحت أطيل النظر في صورة القمر المكسورة التي قد انعكست على صفحة مياه الحوض.

--١٦

لم يصدق الصبية في القصر أمر عودة شكور. وكما لو قد أصابه مرض مهلك راحوا يعتزلونه، ويبتعدون عنه وعني أنا الآخر الذي كنت بجانبه على الدوام. ومع ذلك كله لم أستطع أن أترك صديقي الحميم وحده. لهذا السبب طالما كنت أتجرع غصص كل هذه الإهانات والاستهزاءات من الآخرين عن طيب خاطر، ولم أدع شكور وحده. وفي حين كانت الغرفة تحت السلم بالنسبة لي ولشاكور أيضًا محلًا للعمل، ومهجعًا للنوم، ومطعمًا نتناول فيه الطعام، راح أكبر وأصغر الشقيقان التوأم اللذان كانا يعملان معنا بغرفتنا يتجنبانا في وقت العمل، ثم بمجرد أن ينتهي العمل يغادران الغرفة. كنت على يقين من أنهما بعد الانتهاء من نسج السجادة التي كانا عاكفين على نسجها، سيغادران الغرفة بلا رجعة، وينشئان نولها التالي، وينصبانه في مكان آخر.

لم يكن راضي وفرُّوخ يمتازان بشيء عن الآخرين. كان الاختلاف الوحيد يكمن في أنهما كانا يأخذان بعين الاعتبار أننا عاملان، فظلا يقدمان لنا ما نتزود به من الماء والطعام، لنواصل العمل، ونحافظ على رضا نُويان خان الذي لم يكن على علم بحادثة غرق شكور. وخلافًا لذلك راحا كلاهما أيضًا يتحاشى شكورًا بقدر الإمكان، ولا يقربه، بل ولا ينظر إليه إن استطاع إلى ذلك سبيلًا. ووقتما كانا يأتيان إلينا، يحدجانا بنظرة خاطفة، ويذهبان في الحال. هكذا اخترنا لنفسينا المكوث بالغرفة تحت السلم واتخاذها محلًا للنوم والأكل. أما الشيء الذي كنت على يقين منه هو أننا حتى إذا ناشدنا العودة بين الصبية، لم يكن راضي ولا فرُّوخ ليسمحا لنا بذلك. ومع مثل هذا الوضع، لم يكن واضحًا كيف ستمضي قادم أيامنا.

لقد وقعت حادثة سقوط شكور في الحوض يوم الاثنين، ثم عاد إلينا يوم الثلاثاء، وقد قضينا يومي الأربعاء والخميس مثل اليوم الأول لعودة شكور. كان شكور في ذينك اليومين شحيح الكلام، ويعمل بصرامة وسرعة ليس لهما مثيل، لدرجة أنني تراجعت عنه في الوقت الذي كان قد تجاوزني فيه بمراحل. وفي ذينك اليومين نفسيهما عاد شكور ليطلب مني مرة أخرى أن أرافقه ذهابًا إلى الحوض، ليريني شيئًا ما. ففي صباح يوم الخميس، قبل الشروع في العمل، ذهب إلى حافة الحوض، ثم وقف هناك، وهتف بي، وقال: «تعال، لأريك شيئًا.»

لم أذهب، وعاد هو إلى الغرفة مغتمًا. وقبل يوم من هذا كان قد التمس من صبيين آخرين أن يذهبوا معه إلى حافة الحوض. لكن الخوف تملكهما منه أيضًا، وسرعان ما فرا. ومع كل هذا فكلما كانت الفرصة تسنح لشكور، كان يتقدم إلى الحوض ويظل يحدق داخله، حتى راضي وإن كان قد توعَّد الجميع قائلًا إنه سوف يعاقب أي شخص تسول له نفسه الاقتراب من الحوض، ها هو ذا قد بدا وكأنه خائفًا من شكور، فلم يوبخه بكلمة.

على أي حال انتهى الأسبوع، وحل يوم الجمعة. كان يوم الجمعة هو اليوم الذي كنت أنا وشكور قد اتفقنا على أن يكون موعدًا لهروبنا من القصر. ولكن مع وضع شكور الجديد كان من الواضح أن مثل ذا الأمر مستحيل. ورغم هذا كنت لا أنفك آملًا من صميم فؤادي أن يصبح شكور على ما يرام، وينصرف فكره فجأة إلى خطة فرارنا، ويطفق في التنفيذ.

صباح يوم الجمعة رقد شكور صموتًا بجانب جدار الغرفة تحت السلم. رحت أفكر في أن الخروج من القصر من شأنه أن يبدل مزاجه إلى الأفضل، فبادرته قائلًا: «شكور، اليوم يوم الجمعة، بإمكاننا أن نخرج.»

لزم شكور الصمت، فقلت: «دعنا نخرج، نذهب إلى البازار نتنزه، ومن ثم نؤوب.»

أما شكور فقد عقد ذراعيه على صدره، وقال: «أريد أن أنام، اذهب أنت.»

رأيت أنني لم أعد أطيق البقاء بين جنبات هذا القصر، إذ كان قلبي قد فاض حزنًا، كان علي أن أخرج. ودعت شكورًا، وانطلقت خارج القصر. كنت وحدي، إذ لم يكن أحد على استعداد للخروج معي. مشيت بمفردي متجهًا إلى ساحة سبزه ميدان سالكًا الطريق المعتاد عينه. كنت أنتوي أن أمضي إلى البازار، ثم أذهب إلى بوابة الحصن، وأنتظر هناك، ريثما تمر عربات الكالياسكا الملكية الفارهة، وأشاهدها. فدائمًا ما راودتني فكرة أنه من الممكن ذات يوم أن يلمحني الملك من داخل عربته الملكية، فيدعوني لأذهب إليه، وربما يجزل لي العطية، ويمنحني من لدنه بعض النقود. فقبل تلكم المرة، كنت قد ذهبت إلى هناك بعض المرات بصحبة شكور، وظللنا ننتظر، حتى نرى موكب عربات الكالياسكا الملكية. غير أننا لم نكد نراها سوى نحو مرتين فقط، حيث كانت نساء العائلة الملكية يركبن فيها، وليس من حق أحد أن يسترق النظر داخلها. لذلك ففي وقت مرور عربات الكالياسكا الملكية، بمجرد أن كان يهتف غلمان البلاط الملكي قائلين: «الموكب الملكي يمر، غض طرفك، حِص عن الطريق» كنا نستدير فورًا نحو الجدار، لئلا ترنو أعيننا إلى داخل العربات.

في ذلك اليوم مضيت إلى بوابة الحصن حالما كنت سارحًا بتلك التصورات ذاتها، غير أنني فجأة في وسط الطريق جال في ذاكرتي حسن خان. ففيما عدا شكورًا، كان هو الشخص الوحيد الذي أولاني محبة ولطفًا مذ مجيئي إلى طهران، والآن إذ ضقت ذرعًا ولم أعد أطيق شعوري بالوحدة وعدم وجود أنيس توارد هو إلى ذاكرتي. ذلك الشخص الذي كان قد قال لنا في أول يوم قابلنا فيه في دكان البُلو إذا عرضت لكما حاجة، فاسلكا طريقكما إلى بوابة قزوين، وقولا كيف السبيل إلى بيت حسن رشدية. ولما كنت أجهل الطريق إلى بوابة قزوين، سألت نحو اثنين من المارة، وعلمت أن الطريق إليه ليس بقريب، إذ أخبروني أنه لا بد أن أركب ترام الخيل. لكني اضطررت إلى أن أقطع طريقي سيرًا على القدمين، لأنني لم أكن أملك أي نقود بالمرة. ولكيلا أهدر الوقت، وأتمكن من العودة ظهرًا كنت أركض في طريقي أكثر مما من كوني أمشي. وأخيرًا وبعد ساعة من الركض والارتجال، وصلت إلى بوابة قزوين. وهناك سألت عن عنوان بيت الميرزا حسن خان. ولما كان الجميع يعرفه، استدللت على عنوان بيته بسهولة. كان بيتًا مكونًا من طابقين، ومزودًا بنوافذ تطل على الشارع، وباب خشبي صغير أزرق اللون كان قد طُلي حديثًا بالدهان، ولا يزال يلمع. حينما وصلت أمام الباب، توانت خطواتي، وبغتة شعرت بالخجل. لم أكن أصدق أنه بوسعي أنا الصبي القروي الفقير المُعدم الحال أن أذهب إلى بيت رجل عظيم الشأن مثله. وقلت لنفسي ربما لا يسمح لي بالدخول، وقلت حتى وإن مضيت، فماذا أقول؟ ماذا أقول له عن سبب مجيئي؟ وفي النهاية قادتني هذه الخواطر المتعددة التي هجمت عليّ لأن أستدير عائدًا من أمام الباب الخشبي لبيته. وبينما كنت عازمًا على المضي لشأني، وإذ بي فجأة أرى الميرزا حسن خان يتأبط بضعة كتب قادمًا من الاتجاه المقابل لي. كان يرتدي البنطال نفسه، والقباء الأسود الطويل، ويعتمر القبعة البيضاء نفسها. سررت لرؤيته، إذ كان يبدو أنه في حال أفضل بكثير. تقدمت منه، وألقيت عليه السلام. رد الميرزا حسن سلامي بوجه طلق بشوش، ثم ما لبث أن وضع يده على كتفي، واستفسر عن حالي في حين كان طرف المنديل الأبيض الذي يعصب جرح جبهته يبرز من تحت القبعة، ويصل إلى فوق حاجبه. ثم سألني: «أين صاحبك؟»

وجمت للحظة، ماذا أقول، وبم أجيبه. تلجلجت في الكلام قليلًا، ثم ما لبثت أن قلت: «لقد

أصابته نزلة برد.»

فسألني مُندهشًا: «نزلة برد؟ هل هي مصحوبة بارتفاع في درجة الحرارة؟!»

فقلت: «لقد سقط ليلًا في الحوض، وابتل، فأصابته نزلة برد. والآن يرقد في الفراش حتى يتعافى.»

فسألني: «ألم يذهب إلى طبيب؟»

قلت: «بلى، لم يذهب. إنه يرقد نائمًا في الفراش فحسب.»

فقال الميرزا حسن خان: «ملازمة الفراش لا تكفي وحدها، يجب أن يذهب إلى الطبيب.»

فقلت: «أمرك سيدي. إن لم تتحسن حالته ويتعافَ، فسوف ألتمس منه أن يذهب الطبيب.»

ثم رفع الميرزا رأسه وأدار نظره سمت بيته وقال: «هل قد أتيت إلى هنا لرؤيتي؟»

قلت: «لا... أعني أنني كنت مارًا من هنا، فقلت... لا بأس أن آتي لأراك.»

حدجني الميرزا حسن خان مرة أخرى ببصره، ثم ضحك، وقال: «نعِم ما صنعته مجيئك، هل ستأتي لنذهب إلى البيت وأدعوك في ضيافتي إلى تناول كوب من شاي؟ أم تحب أن نطوف في أرجاء المدينة معًا؟»

فقلت وقد بدا عليّ التوتر: «لا... أعني أنني أردت فقط أن أراك، لم أقصد الإزعاج.»

ففكر الميرزا حسن قليلًا قبل أن يقول: «لدي فكرة جيدة، اسمح لي أولًا أن أضع هذه الكتب في البيت، ثم نذهب إلى مكان ما معًا.»

اتجهنا إلى بيت الميرزا حسن خان. وقفت منتظرًا أمام الباب، ودلف هو البيت. ثم عاد بعد قليل، وأغلق الباب، وقال: «هيا بنا، ما اسمك؟»

فقلت: «رضا.»

فقال: «سيد رضا، اليوم أريد أن أصحبك إلى مكان رائع. لكن سوف نقصد أولًا شارع لاله زار، لدي شيء هناك سأقوم به، ثم نذهب إلى حيث قلت.»

فقلت: «حسنًا.»

ذهبنا إلى محطة الترام الذي تجره الخيول. وهناك ركبنا الترام، ودفع الميرزا حسن خان أجرة الركوب. ووقتما انطلق الترام في طريقه، كنت متحمسًا للغاية، وبانت عليّ علامات الغبطة والسرور، إلى حد جعل الميرزا يفطن إلى الأمر. فسألني: «هل ركبت ترام الخيل من قبل؟»

فقلت: «مرة واحدة، أول ليلة قدمت فيها إلى طهران ركبته مع فرُّوخ.»

فسألني: «ومن يكون فرُّوخ؟»

فقلت: «المشرف على مَنْسَج السجاد.»

أومأ الميرزا برأسه، وقال: «هل تحب ركوب ترام الخيل؟»

فقلت: «أجل.»

وضحك الميرزا. وحينما وصلنا إلى شارع لاله زار، ترجلنا من العربة، ومشينا قليلًا، حتى وصلنا إلى أحد الأزقة الواسعة. أشار الميرزا حسن خان إلى أحد الدور هناك، وقال: «هذا مقر المدرسة. فعوضًا عن تلك التي قد دُمرت، اتخذت هذا المكان مقرًا للمدرسة. الميزة هنا أن جدران هذه المدرسة متينة ومحكمة للغاية، بحيث لا يمكن أن تأتي عليها معاول الهدم بسهولة. سوف نجري بعض التعديلات على ترتيب الغرف داخل المبنى، ونهدم الترتيب القديم، ونستخدم في البناء طوب المدرسة القديمة. طبعًا اليوم يوم الجمعة، ولا أحد يعمل، لذلك سأدخل فقط لأنسق ميعاد عمل الغد. هل ستأتي معي أم تنتظر بالخارج؟»

كان مجرد ذكر اسم المدرسة بالنسبة لي أمرًا مثيرًا للفزع خاصة بعدما رأيت في ذلك اليوم كيف كان الناس يعدونها مأوى للكفر وارتكاب الآثام، وأحالوها إلى يُباب. لذلك لم أكن أميل إلى رؤيتها من الداخل، فقلت للميرزا: «لا، سأبقى هنا، اذهب أنت.»

دخل الميرزا حسن المبنى، وبقيت منتظرًا بالخارج بجانب تلال الرمال وأكوام الطوب المكدسة بعضها على بعض. لم يتأخر الميرزا حتى عاد. وحينما كان ينفض التراب عن قبائه الطويل المُغبَّر، قال: «لنذهب.»

وعندما سرنا، قال: «عوضًا عن غياب رفيقك سوف نذهب إلى شارع علاء الدولة، لنشاهد السينما توجراف([45]).»

بعد أجواء المدرسة المحفزة للخوف، ها هو الميرزا الآن يلفظ كلمة لم أفهم معناها قط، وقد هالني هذا الأمر أيضًا. رفعت رأسي، ونظرت إلى الميرزا باستغراب، عدا أن الميرزا الذي قد فطن إلى أني لم أفهم معنى الكلمة التي ذكرها، ما لبث أن قال: «السينما توجراف هي مجموعة من الصور المتحركة التي تُعرض أمام الناس، إنها مذهلة للغاية. تحل قليلًا بالصبر، وفور أن نصل، سوف تراها بنفسك، وتفهم أي شيء هي.»

مشينا قليلًا، حتى وصلنا إلى شارع كبير وفسيح كانت الأشجار تكتنفه من كلتا جانبيه، وقد تراصت على جانبي الشارع البنايات الكبيرة ذات الأعمدة الجصية باللون الأبيض. كان الناس قد احتشدوا على أطراف هذه المباني، وكان الرجل والمرأة والطفل يسيرون جنبًا إلى جنب. لقد ازددت شوقًا وحماسة من فرط جمال الشارع. وأحيانًا ما كنت أنغمس لذروتي في مشاهدة ما حولي، لدرجة أني كنت ابتعد عن الميرزا، فيتوقف، حتى أعود إليه. ولما تخلفت عن الميرزا عدة مرات، قال: «أسرع قليلًا، إذما تأخرنا في الوصول، فسوف يبدأ العرض. وحينئذٍ سيكون علينا أن ننتظر إلى أن يبدأ العرض التالي، فتتأخر أنت.»

استحثثت قدميّ، وانقلبت إليه. قطعنا طريقنا معًا وسط تلك الحشود المكتظة، حتى وصلنا إلى باب كانت صور لأشخاص ومبانٍ غريبة عجيبة لم أكن قد رأيتها مثلها في حياتي قد لُصقت بالجدار على جانبيه. وقفت لا حول لي ولا قوة مدهوشًا أمام الصور أتأملها، إذ كانت صورًا لمبانٍ شاهقة العلو، وأناس لم يكونوا يشبهوننا في شيء.

كان يقف في الشارع رجال تختلف وجوههم وثيابهم عن تلك التي كنت قد رأيتها. كذلك كانت هنالك جماعة من النسوة اللاتي لم يكن يرتدين الشادور أو يغطين وجوههن كالأخريات قد وقفن هكذا حاسرات الرأس. بدا كل شيء غريبًا بالنسبة لي. حينئذٍ دفع الميرزا حسن خان للرجل

الذي كان قد وقف أمام الباب بضعة نقود، ثم أمسك يدي، وأخذني معه إلى الداخل. كنت لا أزال في حيرة من أمر تلك الصور على الجدار حتى ولجنا غرفة كبيرة شبه مظلمة. كانت قد رُصت داخل الغرفة عدة صفوف من الدكك الخشبية يقفو بعضها بعضًا، وكان كثير من الناس يجلسون على تلك الدكك. بصعوبة عثر الميرزا حسن خان وسط تلك الحشود الجالسة على مكان يتسع لنا نحن الاثنين، وجلسنا بجانب بعضنا. عندما جلسنا، ورأيت أمامنا جدارًا أبيض فارغًا، دُهشت من مشهد الناس وقد جلسوا، وثبتوا أنظارهم على هذا الجدار الأبيض اللون. في أثناء تنقلنا قال الميرزا حسن خان: «هنا توجد قاعة السينما توجراف، وسوف يعرضون الآن على ذلك الجدار صورًا متحركة، فلا تخف، وتأملها جيدًا.»

وعما قليل جاء شخص يحمل آلة بيده، وجلس إلى جانب الجدار الأبيض المقابل لنا، ثم فجأة أظلم المكان كله. وفور أن خيم الظلام، أحدث بعض الأشخاص صخبًا في الغرفة. لكن لم يكد يمضي وقت طويل، حتى ظهرت أمامنا على حين غرة وجوه بعض الأشخاص بدت تمامًا مثل تلك التي كنت قد رأيتها في الصور على الجدار في الشارع. كانت وجوههم كبيرة مضيئة، وكانوا يتحدثون إلى بعضهم، ويطلقون الضحكات. لكن لم يكن في الإمكان سماع ما يقولونه. وتزامنًا مع رؤية وجوههم ارتفع صوت يشبه الصراخ من أمام الجدار، وفي ضوء الصور لمحت مصدر الصوت فأدركت أنه صوت الآلة الموسيقية التي يحملها الرجل الجالس بجانب الجدار. أما رؤية هذه الوجوه، فلم تكن لتثير في نفسي شيئًا إلا الخوف والفزع، لهذا كنت منزعجًا جدًا، كما لو كان جسدي يتلظى حنقًا. وسرعان ما لاح أمامنا من وسط الجدار شيء ضخم، يشبه الترام الذي تجره الخيل ويتصاعد من فوهة في مقدمته دخان أبيض. كان يشبه تمامًا ترام الخيل، ولكنه من دون خيل، وينطلق من تلقاء نفسه. ولما انطلق من وسط الجدار باتجاهنا، راح هؤلاء الذين كانوا يجلسون من حولنا يصرخون خوفًا. كذلك خشيت أن تصل هذه العربة إلينا وتدهسنا، وهممت بالفرار من المكان، غير أن الميرزا حسن أمسك يدي فورئذٍ، وقال: «اجلس، لا تخف، إنها مجرد صورة.»

ثم ما لبثت العربة الدخانية أن اختفت من على الحائط، ورأيت وجوه الناس الذين كانوا يتحدثون، ويضحكون قد عادت مرة ثانية. وفي الوقت ذاته همس الميرزا حسن خان في أذني قائلًا: «استدر، وانظر خلفك.»

استدرت، ونظرت خلفي. كانت هناك فتحة في الجدار خلفي، وينفذ منها نور؛ بحجم جذع شجرة رفيع. كان هذا النور الأسطواني الشكل كجذع الشجرة يمضي من هذه الفتحة، فيلتصق بالجدار المقابل حيث كانوا يعرضون الصور. وحينئذٍ همس الميرزا حسن خان إليّ قائلًا: «خلف تلك الفتحة، هنالك غرفة قد وُضع داخلها جهاز السينما توجراف. يوجد بالجهاز نفسه شريط صور، بحيث عندما يسلطون الضوء خلف هذه الصور، ينفذ الضوء بدوره إلى الجدار، ونشاهد نحن تلك الصور شاخصة أمام عيوننا على الجدار.»

نظرت خلفي مرة بعد، وإلى الفتحة نفسها التي كان الضوء يبزغ منها. وبعد ذلك نظرت إلى الجدار المقابل، ورأيت عربة الترام راحت تمضي مبتعدة. تذكرت وقتئذٍ عروض رمضان حينما كان في الليالي يصنع للصبية أشكالًا بظل يديه اللتين كانتا يحركهما تجاه ضوء المصباح. ولما فهمت، جلست قرير البال، أتأمل الأشخاص الماثلين على الجدار.

كنت مستغرقًا في مشاهدة الصور المتحركة على الجدار، لدرجة أنني لم أدر متى انتهى العرض.

فبمجرد أن انتهت الصور، أشعلوا ضوء الغرفة، ومرة أخرى عاد الجدار المقابل أبيض اللون كما كان من ذي قبل. أما الرجل الذي كان يعزف على الآلة الموسيقية فما لبث أنقام، وغادر الغرفة. وبينما كنت لا أزال جالسًا في مكاني، قام الميرزا حسن خان، ودق كتفي، وقال: «قم، يا سيد رضا.»

كان الناس قد قاموا، وراحوا يغادرون الغرفة. خرجنا من الغرفة أيضًا، ووصلنا إلى الشارع. وهناك سألني الميرزا حسن خان: «كيف كان العرض؟ هل أعجبك؟»

فقلت: «كان مذهلًا للغاية، كما لو كان سحرًا.»

فضحك الميرزا حسن خان، وقال: «السحر كله يكمن في تلك الفتحة التي أريتك إياها، وإلى جهاز السينما توجراف الذي جلبه آرداشِس خان([46]) الأرمني من بلاد الغرب، وعرضه هنا. متى يتماثل صديقك من علته، ويغدو على ما يرام، يمكننا أن نأتي مع بعضنا، لنشاهد العرض مرة ثانية.»

شكرت الميرزا، وسألته: «هل حانت الظهيرة؟»

فقال الميرزا: «أجل.»

فقلت: «ويحي! كان يجب أن أعود ظهرًا.»

فقال الميرزا: «لا تقلق، سنركب الآن ترام الخيل، ونغادر سريعًا.»

ومشينا إلى حيث يمكننا أن نستقل العربة. وفي أثناء الطريق رأينا رجلًا يفترش جانبًا من الشارع،كان يبيع القبعات، فقال الميرزا حسن: «انتظر.»

فتوقفت، وما لبث الميرزا أن قال: «ليس لديك قبعة، من المؤسف أن ولدًا صالحًا مثلك لا يملك قبعة.»

مذ أن ابتعدت عن أبي وأمي لم يعد لدي قبعة، فقد سقطت قبعتي حينما كنت نائمًا في أرضية العربة. نظرت إلى القبعات التي كانت كلها متنوعة الألوان، وتبدو حقًا رائعة . قال الميرزا: «أيما أعجبتك؟»

داخلني الحرج، وقلت: «لا أريد قبعة، لا أحتاجها.»

فقال الميرزا: «لمَ لا تحتاجها، إن شمس الصيف اللاهبة، وصقيع الشتاء يؤذيان فروة رأسك، ما لم تكن لديك قبعة تعتمرها. قل لي أيها تفضل.»

فقلت: «لا داعي لذلك.»

فضحك الميرزا، وقال: «كم أنت مجامل يا سيد رضا! لا كلفة بيننا. دعني إذن أختار لك واحدة.»

ثم ما لبث أن انحنى على فرشة بائع القبعات، وتناول قبعة بنية من اللّباد، ووضعها على رأسي، وقال: «هذه جيدة، إنك تبدو رائعًا.»

فما كاد إطار القبعة يلامس رأسي، إلا وغمرتها بالدفء، وراقتني جدًا. سألني الميرزا: «هل

أعجبتك؟»

فابتسمت، وقلت: «أجل، شكرًا جزيلًا لك.»

دفع الميرز حسن حساب القبعة، ثم مضينا من بعد ذلك، وركبنا ترام الخيل، حتى ذهبنا معًا إلى ساحة سبزه ميدان. وهناك ربت الميرزا على كتفي مرة ثانية، وقال: «عندما تبدأ الدراسة في المدرسة، سوف آتي إلى دار نسج السجاد التي تعمل بها، وأستأذن لك، ليسمحوا بأن تتردد إلى المدرسة يومًا في الأسبوع على الأقل تدرس فيها، وتتعلم.»

ثم أضاف قائلًا: «أبقني على علم بحال صديقك، وطمئني عليه. ولتأتيا معًا مرة أخرى، لتزوراني.»

ثم ودعني، وانصرف. أما أنا الذي كنت لا أزال منتشيًا بدفء محبته، مكثت بمكاني قليلًا، وتأملته وهو يبتعد شيئًا فشيئًا. ثم من بعد ذلك تذكرت قصر نُويان خان، فركضت سريعًا، حتى أوصلتني قدماي ركضًا إلى حي عود لاجان، ومنه إلى قصر نُويان خان. كان باب القصر مُشرعًا، فعبرت الباب لاهثًا متقطع الأنفاس، وولجت إلى داخل الفناء. وبينما اجتزت الحوض، وكنت أهم بدخول الغرفة تحت السلم، سمعت راضيًا من الإيوان العلوي يصرخ ويتساءل مستنكرًا: «أين رضا؟»

تسمرت في مكاني لا إراديًا. وقفت، ونظرت فوقًا. فقال راضي من خلف درابزين الإيوان:«اصعد.»

صعدت الدرج مرعوبًا، ودخلت الديوان. كان راضي ونحو ثلاثة صبية داخل الإيوان. تقدمت من راضي، وألقيت عليه السلام، فقال راضي: «في أي قبر لعين كنت حتى الآن؟»

فقلت: «معذرة، لم أنتبه أن الوقت داهمني، فتأخرت.»

فأشار بإصبعه، وقال: «تقدم.»

كان منظره يبدو مروعًا، بيد أنني تقدمت. وفور أن دنوت منه، صك وجهي بقوة. كانت صفعته محكمة للغاية، إلى حد أنني ارتميت على الأرض، وطفقت أذناي تصفر، وتهيج وجهي والتهب احمرارًا. وضعت يدي على وجنتي، وهطلت الدموع من مقلتي، في حين جاء الصبية الذين كانوا موجودين في المكان من حولنا، وتجمهروا أمامنا. ولما كانت قبعتي قد سقطت عن رأسي على الأرض، انحنى راضي والتقطها، ثم سألني بحدة: «من أين لك بهذه؟»

التزمت الصمت، ولم أجبه بشيء، فقط بكيت في هدوء. فما كان من راضي إلا أن ركلني في معدتي، وقال: «ألا تسمعني أتحدث إليك؟ أخبرني من أين حصلت عليها؟ هل سرقتها؟»

ثنيت ساقيَّ إلى صدري متألمًا، وقلت: «لقد ابتعتها.»

فقال: «سحقًا لكذبك! أنى لك هذا المال كي تشتريها؟»

فقلت: «كان لديّ، كان لديّ من قبل، أمي قد أعطتنيه.»

فقال راضي متهكمًا: «أجل، لقد جاء شبح أمك وأعطتك إياه. أأمك هي من أعطتك المال أم صديقك المقبور؟!»

نهضت برفق، وقلت: «اشتريتها بنفسي، كان لدي مال، فاشتريتها به.»

فارتسمت على شفتي راضي ابتسامة هازئة كشرت عن أسنانه الصفراء المسوسة، ثم قال: «لا تحاول أن تستحمرني، وتتحذلق عليّ. أنت وصاحبك تملكان المال، بل تملكان المزيد منه أيضًا، لكنني لن أدعكما تهنآن به بعد الآن.»

ثم رفع يده ممسكًا بقبعتي، وهمَّ أن يلقي القبعة إلى أسفل عند الحوض. حينئذٍ صرخت فزعًا: «لا تفعل!»

ولكن إذا فات الفوت ما ينفع الصوت. ألقى راضي القبعة بقوته ناحية الحوض، فتقدمت مسرعًا نحو درابزين الإيوان، ونظرت متحسرًا. راحت القبعة تتطاير في الهواء، وتهبط. وبينما كنت منتظرًا أن تسقط القبعة في الماء، لم يحدث هذا. لم يسقط شيء في الحوض. ولم يُكدر شيء سكون صفحة مياه الحوض الراكدة الداكنة. لم تكد القبعة تصل إلى الحوض على مرأى من أنظاري المذهولة، أنا والصبية الآخرين، إلا واختفت بلمح البصر في المسافة ما بين درابزين الإيوان وسطح الماء.

--١٧

كان منتصف الليل وقتما استيقظت من نومي متألمًا. كان جنبي يؤلمني من أثر ركلة راضي في جنبي. استيقظت، وألفيت وجهي مُبللًا، فتبدى لي أنى قد بكيت بمنامي مما قاسيته من ألم جنبي، وألم نبذي ووحدتي على حد سواء. حينئذٍ نهضت، وجلست في مكاني. مسحت على جنبي ودلكته، ثم تبلعت ريقي. وبعد استفاقتي أدرت عيني إلى مكان شكور فوجدته شاغرًا، إذ لم يكن شكور في الغرفة، فداهمني القلق. رحت أمسد جنبي لوقت وجيز، ثم قمت، وخرجت من الغرفة. كانت الرياح تهب في الخارج، وأغصان الأشجار المحيطة بالفناء تصطك بعضها ببعض، ويُسمع لها خشخشة. وكان هنالك صوت نباح وعويل مجموعة من الكلاب قادم من بعيد. نظرت من حولي، ورأيت شكورًا كان قد وقف إلى حافة الحوض، وراح يحدق داخله. تقدمت بتؤدة، ووقفت على بُعد نحو ثلاث خطوات منه، وناديته: «يا شكور.»

لم يلبِ شكور النداء، فدعوته ثانية: «شكور... شكور.»

هذه المرة أدار رأسه بهدوء، ونظر إليّ، إذ كان نور القمر قد جعل وجهه يبدو أكثر شحوبًا من ذي قبل. قلت: «تعال إلى هنا، هيا اذهب إلى النوم.»

فما كان جواب شكور إلا أن ناداني هامسًا: «رضا...»

فقلت: «هيا، لنعد إلى النوم، لا بد أن نستيقظ باكرًا، لنعمل.»

ويكأن شكورًا كان في عالم آخر، لم يكن يصغي إلى أي شيء أقوله. مرة أخرى ناداني بصوت خفيض: «رضا.»

كان صوته باردًا ويرتجف. كما لو أن شخصًا يرتعش من زمهرير البرد، وفي الوقت ذاته يحاول أن ينادي أحدًا. وحينما هممت لأقول له شيئًا، بادرني قائلًا: «تعال... تعال إلى هنا، دعني أريك شيئًا.»

فأوجست منه خيفة، وقلت: «كلا يا شكور... لن آتي، تعال أنت، تعال لنذهب إلى الغرفة، إن جنبي يؤلمني.»

فقال شكور: «تعال يا رضا... أقبل، لا تخف... تعال.»

فقلت: «كلا.»

استدار شاكور إليّ، ومشي تجاهي ببطء. وعندما اقترب، رأيت عينيه تلمعان كما لو كان متحمسًا لشيء ما. جاء إليّ، ووقف أمامي، وقال: «لا تخف يا رضا، إنني لا أرمي فيما أريد إلى أن أمسسك بسوء. كل ما أريده فقط أن أريك شيئًا، هيا تعال.»

كان صوت عواء الكلاب يشتد. ولما عزمت على الرجوع تقدم شكور حينئذٍ، وأمسك بيدي. كانت يده باردة كما لو أنها قطعة ثلج، فأصابني الجزع، وهممت بأن أفلت يدي، لكنه أحكم قبضته على يدي. ثم ثبت نظره في عيني، وقال: «ثق بي، يا رضا، لا تخف، تعال.»

وكما لو كان في عينه شيء يوحي إليّ بأن أصدق كلامه، مكثت قليلًا قبل أن أقول: «ما الذي تريد أن ترينيه؟»

فقال شكور: «تعال، لترى بنفسك.»

أرخيت قبضة يدي، وتقدمت خطوة إلى الأمام. حينئذٍ حرر شكور يدي. تقدمنا خطوة بعد. كانت ساقاي ترتعشان، وبات من الصعب عليّ المضي قُدمًا. أمسك شكور يدي ثانية برفق، وقال: «هيا.. تقدم.»

خطوت خطوتين أخريين، حتى وصلت إلى حافة الحوض، فقال شكور: «هيا، لنذهب إلى الحوض.»

حينئذٍ أخذتني الوهلة، وقلت فزعًا: «لا يا شكور، ليس إلى داخل الحوض.»

فأمسك شكور بيدي مجددًا، وقال: «تعال... ثق بي، أعدك ألا يصيبك مكروهًا. هناك شيء لا بد أن تراه.»

هدأ صوته من روعي. ويكأن شيئًا من أعماق قلبي كان يشهد لشكور بصدق القول. اتخذت بتأن خطوة أخرى، وتقدمت. والآن بعد أن بات كلانا لصيق سور الحوض، وطأ شكور بإحدى قدميه حافة الحوض، ثم قال لي: «تعال معي.»

كنت قد تسمرت في مكاني، ولم أعد أعرف ما ينبغي لي فعله. أما شكور فما لبث أن وضع قدمه الأخرى على سور الحوض، ولما صعد، قال: «هيا... اصعد.»

وضعت قدمي اليمنى بحذر على حافة الحوض، وما لبثت أن صعدت أنا الآخر. حينئذٍ أدلف شكور إحدى قدميه في الماء، فباغتتني الصدمة عندما رأيت أن قدمه لم تغص في الماء. وعلى الفور أدلف قدمه الأخرى أيضًا في الماء. وبينما كان يقف على صفحة الماء، قال: «تعال، أترى؟... ليس هناك من خطر أبدًا.»

وتقدم نحو الأمام بخطوة، واجتذبني من يدي معه. وضعت قدمي على صفحة الماء بخوف، بيد أن الماء كان يبدو كما لو أنه قد تجمد، إذ لم تغص قدمي فيه. فوضعت قدمي الأخرى في الماء. والآن قد بت واقفًا أيضًا على سطح الماء. عندئذٍ سحب شكور يدي وقال: «هيا، أسرع، ليس لدينا متسع من الوقت.»

تقدمت. وعلى بُعد خطوتين إلى الأمام انغمس شكور في المياه قليلًا. شعرت أيضًا أن ثمة فراغًا يعادل درجة سلم تحت قدمي. والآن إذ باتت مياه الحوض الدافئة تغمر إحدى قدمي وقد تجاوزت الكاحل، اتخذت الخطوة التالية حتى غصت في المياه أكثر. أما شكور الذي كان يتقدمني فقد بات أكثر مني غوصًا. وهكذا انغمرنا في المياه قليلًا قليلًا، حتى بلغت المياه ركبنا، فخصرينا، فصدرينا. وحينما تهيبت الأمر، قلت: «إنني أختنق يا شكور، دعني أعود.»

فقال شكور الذي كانت المياه قد وصلت إلى ذقنه: «لا تخف، لن يصيبك أي سوء.»

وتقدم خطوة أخرى، حتى غمرت المياه رأسه. كانت يدي لا تزال ممسكة بيد شكور. ولما لم يكن لدى خيار آخر ما خلا التقدم في المياه، أغمضت عيني، وتقدمت. حتى بلغت المياه الدافئة ذقني وشفتي، ثم مع اتخاذي الخطوة التالية غمرت المياه رأسي. حينئذٍ شهقت، وامتقع وجهي، وكدت أختنق، فأغمضت عيني، وأخذت أجدف بيديَّ وقدميَّ. حاولت أن أعود أدراجي، غير أن شكورًا سحب يدي. بذلت قوتي، لكي أفلت يدي من يده. لكنني لم أقدر، إذ كانت يده

مثل قبضة حديدية مطبقة على يدي. وفجأة سمعت شكور يقول: «تنفس، خذ نفسًا.»

فقلت وعيناي مغلقتان: «لا يمكنني... لا أستطيع.»

فقال: «لمَ لا يمكنك، اسحب، اسحب نفسًا الآن.»

ثم شعرت بيده تعترض وجهي، وتدفعه وهو يقول: «افتح عينيك.»

فتحت فمي لا إراديًا. كنت أعتقد أن فمي سوف يمتلئ بالماء، لكن هذا لم يحدث. فسحبت نفسًا، ليس مرة فحسب؛ بل عدة مرات متتالية. ثم تنفست بأنفي وفمي. ولما فتحت عيني، كانت المياه قد سجرت المكان كله من حولي. وعلى امتداد ما استطاعت العين أن تبصره كانت المياه تغمر المكان، في حين لم يعد يُرى أثر لأسوار الحوض. كما لو أن المياه في حوض قصر نُويان خان قد وُصلت ومُزجت بمياه العالم أجمع. حينئذٍ صرت أنا وشكور معلقين وسط المياه، لا نحن نصعد، ولا نحن نهبط. ورأينا حولنا أشخاصًا آخرين كانوا قد علقوا مثلنا أيضًا. سحب شكور يدي، وقال: «لا تتوقف، تابع المضيّ، ليس لدينا الكثير من الوقت.»

ومشى، وسحبني خلفه. وكنا مع كل خطوة كنا نتخذها، نغوص إلى أسفل فأسفل فأسفل. وفي طريقنا مررنا بجانب هؤلاء الرجال والنساء الذين كانوا قد علقوا في عرض المياه. بدت وجوههم شاحبة مزرقة، وقد غلب بياض عيونهم، وشخصت أبصارهم إلى مكان بعيد. وكلما مررنا بجانب أي منهم، سمعنا صوتًا يشبه التمتمة. وكأنهم كانوا يقولون شيئًا بصوت حسيس لا يسع المرء أن يدرك كنه. سألت شكورًا: «من هؤلاء الناس؟!»

فأجاب شكور قائلًا: «هؤلاء هم الموتى.»

فأردفت: «ولم يمكثون هنا هكذا؟ لم لا يتحركون؟»

فأجابني: «لا أعلم، ربما لا يصدقون حتى الآن أنهم قد صاروا أمواتًا.»

ثم سحبني من يدي مرة أخرى، وغصنا أكثر. وكلما كنا نغوص في الماء، يغشى الماء كدرة وظلمة، حتى إننا لم نعد نستطيع رؤية أي شيء بتاتًا. كان شكور لا يزال ممسكًا بيدي، ويصحبني معه. لقد أغسق في عيني ظلام دامس. ووقتما أراعتني تلكم العتمة، أدركت أذناي صوت شكور يقول: «لا تخف يا رضا، الآن سوف تنجلي العتمة، ويبزغ النور.»

ثم خَفْت الظلام تدرجًا، خَفْت أكثر فأكثر، إلى حد أنني أصبحت قادرًا على رؤية المكان من حولي. بدا لي الأمر كما لو أنه لم يعد هناك مياه، وكما لو أنني غدوت مُعلقًا في الهواء، ومعي شكور. كان الجو لا يزال آخذًا في الإشراق، وفي سنا ضوئه تثنى لنا أن نبصر ما يدور تحت أقدامنا. كانت الأرض كلها تحت أقدامنا، ملأى بالسهول والجبال، تعج بالغابات، مغمورة بالبحار، مترعة بالبيوت. كما لو أننا أصبحنا في كل مكان في آن واحد. بدا كل شيء غريبًا بالنسبة لي، وطفقت آنس أنني أستطع رؤية أي مكان أريد كيفما شئت. ففي لحظة ما أصبحت في المدينة، وفي لحظة ثانية أضحيت في عرض الصحراء، ولحظة ثالثة أمسيت في البيوت، وأخرى بت وسط الشوارع. عندئذٍ حرر شكور يدي، ثم ما لبث أن ارتفع بخفة، ووقف إلى جانبي، وقال: «أترى؟»

فقلت مدهوشًا: «أي شيء؟!»

فقال: «كل شيء.»

فقلت: «أجل.»

فقال: «متى تكون هنا، فستفهم كل شيء.»

فقلت: «هل هذا حقيقي بالفعل؟!»

فقال: «أولم تصدق بعد؟»

فقلت: «بلى... بلى... إنني أصدق.»

وفي حين كان شكور معلقًا في الهواء، أخذ يحوم، ثم قال: «لكم وددت أن أعرف كيف وصلت إلى قصر نُويان خان!»

فقلت: «وهل عرفت الآن؟»

فقال: «أجل.»

فقلت: «كيف؟!»

فقال: «انظر... انظر هناك.»

وأشار بيده إلى الأسفل نحو بيت صغير مبني من القش تحت أقدامنا. وفي لمح البصر رأيت نفسي واقفًا وسط البيت في غرفة صغيرة جدرانها قشية، كذلك كان شكور يقف إلى جواري. كانت في أرضية الغرفة امرأة شديدة النحافة والهزال، ممددة على حصير قديم رث عفا عليه الزمان، تحمل رضيعًا ملفوفًا في قماط، وكان الطفل يبكي. وبجانب المرأة كان قد جلس رجل هزيل ضاوٍ. كان قد وضع يديه على الرضيع. كما لو أنه قد وضع الطفل للتو إلى صدر المرأة. بدت المرأة وكأنها مريضة. لقد أصابني العجب من رؤية ما كان يحدث أمامي، وهممت أقول لشكور شيئًا، فبادرني شكور قائلًا: «تلك أمي، وذاك أبي. أما أنا فذلك الطفل الرضيع.»

فقلت: «كيف...»

فقاطعني شكور، وقال: «انظر، ولا تتكلم.»

حدقت مرة أخرى إلى الرجل والمرأة اللذين كانا قد جلسا بجانب بعضهما، وإذ بالمرأة ترفع يديها بصعوبة، وتحل أزرار ردائها، وتخرج ثديها الضامر المتغضن. ثم ما لبث الرجل أن رفع الرضيع،لتتمكن المرأة من أن تلقمه ثديها. وبمجرد أن التقم الطفل حلمة ثديها بنهم في فمه، شرع يمصها مصًا. ثم إنه بعد لحظات قليلة ترك ثديها، وأجهش في البكاء. كما لو كان ثدي المرأة جاف لا يُدر له لبنًا. أما المرأة التي كانت قد رفعت أسها، وراحت تنظر إلى الرضيع بعين ملؤها الحسرة، ما لبثت أن شعرت باليأس وخيبة الأمل، ونكست رأسها. حينئذٍ تناول الرجل الطفل عن صدر تلك المرأة، وقام، وخرج من الغرفة. وسرعان ما رأيته في الشارع، في مكان ما لم أكن أعرفه... كانت جدرانه قديمة ومحطمة. وإلى جانب الجدران كان قد تهالك وارتمى كثير من الناس. كما لو أنهم جميعًا أموات غير أحياء. وبينما كان الرجل يضم الطفل إلى صدره ويمضي به مستعجلًا، تعثرت قدمه بالحجارة نحو ثلاث مرات، حتى أوشك أن يسقط مرتطمًا بالأرض. ظل يترنح في أثناء مشيه، كما لو أنه قد بلغ من الوهن عتيًا. كان أمامه رجل ممسك بكسرة خبز،

ويلوذ فرارًا من عدة أشخاص يركضون في إثره. وفي أثناء فراره منهم، انقض عليه شخص، ثم أدركه الآخرون.

حاول كل منهم أن يتخطف قطعة الخبز ويستأثر بها لنفسه من دون الرجل، حتى تفتت الخبز في أيديهم، وراح صاحبه يجهش في بكاء مرير. حينئذٍ سارع الرجل الذي كان يضم الرضيع إلى صدره بتجاوز الرجال الذين كانوا يتشاجرون ويتقاتلون بعضهم مع بعض من أجل قطعة خبز. مضى الرجل مخلفًا وراءه عددًا من الأزقة والشوارع حتى فجأة أفضى به طريقه إلى أمام دار كبيرة. كنت أعرف تلك الدار، كان قصر نُويان خان. في البداية جلس الرجل متهالكًا أمام باب القصر، إذ كان فاقدًا للوعي. لكنه ما لبث أن قام مرة ثانية بمشقة. دق مطرقة الباب، ولم يكد يمضي وقت، حتى فتح أحد ما الباب. كان فرُّوخًا. وراح الرجل يطلب من فرُّوخ شيئًا مستشفعًا بالتوسل والبكاء، ثم أراه الطفل. لكنما فرُّوخ خاطبه بغلظة، وأجاب طلبه بالرفض، ثم نهزه في صدره، وانتهره من أمام الباب. فما كان من الرجل إلا أن أخذ يتوسل مرة أخرى. حتى في نهاية الأمر أخذ فرُّوخ الطفل من الرجل، وصكَّ الباب. ثم رأيت فرُّوخًا داخل إحدى الغرف، وكان هناك نُويان خان أيضًا جالسًا إلى مائدة، ويتناول طعامًا. عندئذٍ عرض فرُّوخ الطفل على نُويان خان. تحدث نُويان خان إلى فرُّوخ فترة، ثم أومأ برأسه إلى فرُّوخ أن يغادر، فذهب فرُّوخ حاملًا الطفل. ثم رأيت مرة أخرى الغرفة عينها التي كانت المرأة راقدة فيها، حيث كان الرجل يجلس واضعًا رأس المرأة على ركبته. ثم غشيت المرأة لتقع في إغماءة، فرفع الرجل رأس المرأة بيده، وتأمل وجهها. ثم ما لبث أن وضع رأسها على الأرض، وانفجر باكيًا. بدا الحال كما لو أن المرأة قد أسلمت روحها. عندئذٍ أسند الرجل رأسه إلى الجدار وأغمض عينيه الدامعة.

ثم اختفى كل شيء. ومرة ثانية صرنا معلقين في الهواء، وبدا كل شيء من تحتنا.

قال شكور: «أرأيت؟»

فنظرت إلى شكور، وقلت: «أجل، رأيت. كان أمرًا غريبًا جدًا!»

فأردف شكور: «لقد عرفت أخيرًا كيف انتهى بي الحال إلى قصر نُويان خان.»

فقلت: «أتقصد أن هذين كانا والديك؟»

فقال: «أجل، لقد ماتا جوعًا في عام المجاعة([47]). لقد أودعني أبي لدى نُويان خان، لكي أظل حيًا.»

فقلت: «لقد عانى أبوك وأمك كثيرًا.»

فقال متأثرًا: «نعم.»

ثم تذكرت أمي وأبي هكذا دفعة واحدة، وتحرق قلبي شوقًا إليهما. قلت عفويًا: «أتمنى لو كنت أعلم أنا أيضًا، لمَ باعاني والداي إلى نُويان خان.»

فنظر إليّ شكور، وقال: «لقد جلبتك إلى هنا، لترى هذا بنفسك، فالأمر ليس كما كنت تعتقد.»

فقلت مدهوشًا: «ماذا تقصد؟!»

فأجاب قائلًا: «طالما علمت أنك لن تصدق، حتى ترى بأم عينك. الآن انظر هناك بالأسفل،

عند منتصف الطريق.»

نظرت إلى الأسفل، ورأيت نفسي عندما كنت نائمًا في عربة البريد، حيث كنت أضع رأسي على أحد أكياس البريد. كان أبي قد استند إلى قوائم العربة الخشبية، وقد أخذته غفوة. أما أمي فكانت مستيقظة. كانت تسدل حجابها على وجهها، ولم أكن أرى عينيها، لكنها قد أبقت رأسها بوضعية ثابتة توحي بأنها لا تزل مستيقظة. وكان ثمة رجلان آخران مستيقظان أيضًا، رجلان كان أحدهما بدينًا يعتمر قبّعة لبَّادية مستديرة، ولديه شارب كث، والآخر كان نحيفًا، ومُلتحيًا. وراحا ينظران بعضهما إلى بعض، وإلى رجلي الأمن الذين قد غشاهما النعاس. حينئذٍ تقلبت من جانب إلى آخر، إذ كان نومي عميقًا. نظر الرجلان إلى بعضهما مرة ثانية، وهمس ذاك الرجل السمين بشيء إلى الرجل النحيل، ثم ما لبث أن دس يده داخل قبائه وأخرج خنجرًا طويلًا. كذلك فعل الرجل النحيف، فأشهر هو الآخر من طرف شال خصره سكينًا رفيعًا. ثم قام البدين بهدوء، وتسلل خلسة بين أكياس البريد متجهًا إلى رجلي الأمن، كذلك فعل النحيف.

بدا الأمر كما لو كانت أمي قد لمحتهما عندما حركت رأسها ولكن قبل أن يبدر منها تصرفًا، كان كلا الرجلين قد قبض بيد على سبطانة بندقية حارس أمن، وباليد الأخرى وضع سكينه على نحر حارس الأمن ذاته. ثم ما لبث البدين أن أدار رأسه سمت سائق العربة، وقال شيئًا، توقفت العربة على إثره في الحال. هكذا استولى الرجلان على سلاحي الجنديين، وأمراهما أن ينزلا من العربة، فوضعا أيديهما على رأسيهما مستسلمين، وما لبثا أن ترجلا من العربة. وعقب ذلك أشار الرجلان إلى أبي وأمي، لينزلا من العربة أيضًا. فقام أبي من مكانه. ولما همت أمي بإنهاضي، لم يسمح الرجل البدين، وأشار بأن تتركني في مكاني على الأرض، وتنزل بمفردها. فقالت أمي شيئًا، بدت وكأنها راحت تتوسل إليهما، كي يدعاها تأخذني أنا الآخر معها. غير أن البدين ما لبث أن صوب فوهة بندقية الجندي باتجاه أبي وأمي، وأمرهما بالنزول. فراحت أمي تبكي، وتنوح وتلطم على رأسها، حتى أنزلهما الرجل البدين قسرًا من العربة. ثم ضرب النحيل سائق العربة في ظهره بمؤخرة البندقية، وأنزله من العربة، وجلس هو بمكانه، وانطلق بالعربة. وقتئذٍ ركض رجلا الأمن وأبي وأمي خلف الغرفة. لكن الرجل البدين صوب بندقيته تجاههم، وهدهم، فتوقفوا جميعًا، ومضت العربة تشق طريقها، حتى ابتعدت، وتوارت عن أنظارهم. وفي حين كنت نائمًا في العربة، أدار الرجل النحيل رأسه إلى البدين الذي كان قد جلس بجواري، وقال له شيئًا، وضحك، كذلك ضحك البدين.

ثم مرة ثانية قال النحيل شيئًا بمجرد أن سمعه زميله البدين، دس يده في جيب قبائه، وأخرج منديلًا. كان في قلب المنديل قطعة أفيون، ففرك قطعة الأفيون بإبهامه وسبابته، ثم ملَّس برفق نُثار الأفيون أعلى شفتي العُليا تحت أنفي حالما كنت لا أزال نائمًا. وواصلت العربة طريقها، حتى وصلت إلى إحدى خانات المسافرين([48]). وبينما كانت عربة أخرى خالية تقف أمام خانة المسافرين، نزل منها رجلان، وأخذا الأكياس الكبيرة والصغيرة من عربة البريد، ووضعاها داخل العربة الأخرى. وأحيانًا ما كانوا يفتحون أكياس البريد، وينظرون داخلها. هكذا أُفرغت عربة البريد شيئًا فشيئًا، ولم يعد هنالك سواي، حيث كنت جاثمًا على أرضية العربة، أغط في نوم عميق من أثر الأفيون الذي قد وُضع تحت أنفي. التقط الرجلان من مؤخرة العربة بساطًا قديمًا من الصوف، وبسطاه على أكياس البريد. اجتاز الرجل البدين باب الخان، وولج إلى الداخل، ثم ما لبث أن خرج بعد قليل مع شخص آخر كان يعرج في مشيته. لقد عرفته في الحال، كان فرُّوخًا الذي تقدم إلى العربة بدوره عرجًا عرجًا، وراح يتأملني وأنا نائم. فوضع يده تحت ذقني، وأدار

وجهي سمته، وتفحصني جيدًا. ثم بعد ذلك التفت إلى الرجل النحيل، وقال له شيئًا، فجاء الرجل النحيل عندي، ورفعني، وحملني على كتفه، ودخل الخان. وفي الوقت ذاته أخرج فرُّوخ من طرف شال خصره كيس النقود، ودفع إلى الرجل البدين بعضًا منها. وحملني الرجل النحيل إلى داخل الخان...

لم أعد أحتمل رؤية المزيد، إذ خنقتني العبرة، وتصعَّدت أنفاسي. أدرت رأسي ووجهته ناحية شكور، وقلت بصعوبة: «كان كاذبًا!»

ومرة أخرى صرنا معلقين في الهواء. وراحت الدموع تفور من عيني، فحجبت رأسي بيدي، وقلت: «لقد كذب، لقد كذب فرُّوخ عليّ. لم يبعني أحد، لقد اختطفوني.»

حوَّم شكور في الهواء، وصار إزائي، فطوق ذراعيّ بكلتا يديه، وقال: «هذه الحقيقة بعينها، لقد اُختطفت. لم يبعك أحد.»

فقلت: «ماذا عليّ أن أفعل الآن؟»

فقال: «يجب أن تعود إلى عائلتك، وتذهب إلى أبيك وأمك. عد إلى دنياك تلك، واهرب.»

فنظرت إلى شكور، وقلت: «هل ستأتي معي؟»

فقال شكور مستغربًا: «أنا؟!»

وبعد أن مكث هنيهة، قال: «كلا.»

فقلت: «لماذا؟»

فقال: «يجب أن أرحل الآن.»

فقلت: «إلى أين؟»

فاستدار شكور، وعاد ليقف بجانبي، ثم أشار إلى ناحية ما في السماء كانت قد توردت بلون شفق الغروب، وقال: «هناك.»

فقلت: «سوف أذهب معك أيضًا.»

فقال شكور: «هذا مُحال، يجب أن تعود. ومتى يحن الوقت، فسنلتقي مجددًا.»

فقلت: «لن أذهب إلى مكان من دونك.»

فقال شكور: «يجب أن تذهب يا رضا، لا يمكنك البقاء هنا طويلًا.»

فقلت: «تعال، لنذهب معًا... لنهرب معًا.»

لكنما شكور حلق في الهواء. ثم ربت بيديه على كتفي، وقال: «سوف أدعو لك.»

وقتئذٍ وضع يده تحت كتفي، وقبل أن أتحرك دفعني إلى أعلى بكل ما أوتي من قوة. وعقب دفعه لي بدأت بالصعود. كانت سرعتي تزداد لحظة بعد لحظة؛ إلى أن وصلت إلى مكان لم أكد أرى فيه سوى ظلام دامس يحيق بي من كل جانب. ثم صعدت على هذا النحو بسرعة، حتى انبثقت رأسي من بين مياه حوض قصر نُويان خان. كانت المياه باردة، وجسدي ينتفض مرتعشًا. كنت

قريبًا من سور الحوض؛ فمددت يدي، وتشبثت بحافة السور، وخرجت من المياه.

--١٨

لا أعرف كيف وصلت إلى الغرفة تحت السلم بعد أن فارقت شكورًا. لا بد أنني كنت في وضع سيئ للغاية، لدرجة أنني تهاويت أمام الباب مباشرة فاقدًا للوعي. كان لا يزال الجو المظلم يسربل المكان عندما استرددت وعيي. كان جسدي يتألم داخل ثيابي المبتلة، وقد تسلل نور القمر داخل الغرفة، وراح يجلي عن مكان شكور الشاغر. ومع رؤيتي مكان شكور، استرددت ذاكرتي، وتذكرت كل ما كنت قد رأيته بأم عيني، فغص قلبي ألمًا. نهضت توجهت إلى باب الغرفة. ومن هناك قلبت ناظري في الفناء عسى أن ألمح شكورًا مرة ثانية. ولشد ما تمنيت حينها أن يعود مرة أخرى، ويقف أمام الحوض. لكن لم يكن هنالك من أحد في الفناء، إذ لم يكن يُرى في الفناء شيء ما خلا حوضًا ساكنًا يتوسط الفناء، وأشجارًا باسقات كلما هبت الرياح ذعذعتها. ولما عدت إلى الغرفة، وجلست، واتكأت على الجدار، كان كل شيء يبدو مختلفًا بالنسبة لي. فالآن أصبحت أعلم أنني لم أُبع، وأعلم أنني قد اُختطفت من أبي وأمي، وأُرغمت على البقاء قسرًا في ذلك المكان، في مكان موحش لم أكن أرجو بتاتًا الوجود فيه. كذلك بت أعلم أن الوحدة قد كُتبت عليّ إلى ما شاء الله.

فالآن قد رحل شكور عن تلك الدنيا، ولا غرو أن الصبية الآخرين كانوا سيعودون إلى سابق عهدهم، ويبتعدون عني. فحينما وقفت بجانب شكور، ولم أتركه وحده خلال هذه الثلة من الليالي التي كان قد عاد فيها، كانوا يهابونني كما لو أنني في عداد الموتى. والأسوأ من ذلك كله أنني كنت أعلم أنه وقتما يشعشع النور، ويدرك راضي وفرُّوخ أن شكورًا قد رحل، فإنهما بلا شك سوف يستجوباني، وينهالان عليّ ضربًا، لأخبرهما عن مكان شكور. ومهما قلت لهما إنه قد عاد إلى الحوض حيثما جاء، فلن يصدقاني أبدًا. وحتى إن صدقاني، فإنهما سيتصرفان كما لو أنني كذاب اختلق الأمور، لكيلا يؤاخذهما نُويان خان بذنبهما، وينالا حسابًا عسيرًا. كنت أعلم أنهما سيتظاهران أمام نُويان خان أنني أقف وراء فرار شكور من القصر، وحينئذٍ لم أكن لأفلت من عقاب نُويان خان أنا الآخر. كل هذا الخواطر مجتمعة جعلتني أفكر الهروب، إذ كان يجب ألا أبقى في ذلك المكان، ولا بد أن أهرب قبل أن يستيقظ الآخرون من نومهم.

قمت، وذهبت إلى ركن الغرفة، وأزحت الكليم البالي جانبًا، وفتشت عن المكان الذي كان شكور قد وارى فيه نقوده. حتى وجدت الطوبة المنشودة على بعد طوبتين من الجدار جهة اليمين، وسبع طوبات من الجدار جهة اليسار. أخذت أزحزحها بيدي، حتى تلقلقت، فخلعتها من مكانها برفق. تناولت جراب شكور الأسود من الحفرة تحت قالب الطوب، وأخذته معي إلى أمام الباب. وهناك فتحته في ضوء القمر الساطع. كان الجراب ممتلئًا بقطع معدنية صغيرة، وبداخله أيضًا خاتم صغير مرصع بحجر من العقيق. رفعت الخاتم، ووضعته أمام عيني، لأتفحصه، إذ كانت ثمة كلمات قد نُقشت على فص الخاتم. ولما كنت أُميًا، لم أستطع قراءتها. لم يسبق أن أخبرني شكور شيئًا عن ذلك الخاتم، ففكرت في قرارة نفسي بأنه حتمًا قد أخذه كإكرامية من أحد الأشخاص، ووضعه هنا. كان الخاتم يخص شكورًا، لذلك لم أكن أرغب في أن آخذه. وقلت في سريرتي ربما يعود شكور ذات يوم آخر، ويأتي ليبحث عنه. وفي ضوء هذا أفرغت النقود من الكيس على الأرض، ووضعت الخاتم مرة ثانية في الجراب. كما أرجعت بعض النقود إلى الجراب، ليتسنى لشكور أن يأخذ النقود إذا احتاجها.

ثم بعد ذلك ربطت الجراب، ووضعته في مكانه داخل الحفرة. كذلك وضعت الطوبة في مكانها.

ثم أخذت أدقها بقبضة يدي عدة مرات، كي تثبت في مكانها بإحكام، وأخيرًا فرشت الكليم على الأرض. أخرجت منديلي من جيبي، والتقط النقود المتبقية على الأرض، وسكبتها في المنديل. ثم ربطته، ووضعته في جيبي. وما لبثت وقتئذٍ أن قمت على مهل، وخرجت من الغرفة. رنوت نحو السماء، إذ كانت لا تزال مظلمة. ولما أرهفت السمع، لم يكن هنالك من حسيس. فالكل كان لا يزال نائمًا. ركضت بحذر صوب باب القصر، بيد أن الباب كان موصدًا، ومثبتًا عليه قفل كبير مغلق. حينها عدت إلى فناء القصر، ورمقت من بعيد درابزين الإيوان في الطابق العلوي. ولما كانت أبواب الغرف مُشرعة، شعرت لوهلة أن ثمة شيئًا يتحرك، واعتقدت أن أحدًا ما قد استيقظ. كان لزامًا عليّ أن أهرب عاجلًا.

ركضت سريعًا تجاه الجدار على يمين الفناء. واتجهت إلى تحت الأشجار، ورحت أعاين أغصانها وأوراقها التي تكسوها، وانتقيت واحدة تفوق بقية الأشجار طولًا وسماكة. عندئذٍ تشبثت بجذع الشجرة، وتسلقتها بعناء. وكم من مرة انزلقت قدمي وأنا أتسلقها، لكنني في النهاية أوصلت نفسي إلى الفروع، وما لبثت أن تمسكت بها، وتسلقتها فرعًا فرعًا، حتى وصلت إلى حافة سور الفناء. ولما تناهى إلى سمعي صوت صراخ راضي قادمًا من أعلى الإيوان حينما كان يوقظ الصبية، في تلك اللحظة نفسها قفزت إلى حافة السور، حيث أطل أمامي الزقاق خلف هذا السور. وعندما هالني مدى ارتفاع السور، جلست أولًا بحذر على حافته، واستدرت، وأعطيت ظهري للزقاق.

ثم بعد ذلك أنزلت ساقيّ. وفي أول الأمر ثبت مرفقيّ على حافة السور، ثم تشبثت بالسور، حتى صرت متدليًا منه تمامًا. وفي النهاية أفلت يدي عن السور، لأسقط فورًا على أرض الزقاق. كانت ساقي كلتاهما تؤلماني بشدة. لكنني لم أتوقف للحظة، بل ركضت متعرجًا، حتى خرجت من الزقاق. كما خلفت الأزقة الأخرى من ورائي راكضًا، إلى أن وصلت إلى ممر البازار الصغير الذي كانت محاله لم تفتح بعد. هكذا اجتزت المحال المغلقة، حتى أوصلت نفسي إلى ساحة سبزه ميدان. وهناك جلست إلى زاوية أحد الجدران، لألتقط أنفاسي. كان قلبي يخفق بشدة، وفمي جافًا تمامًا. حينئذٍ ألصقت رأسي بالجدار، وأغمضت عيني. لقد أربكني وشتت تركيزي هول ما قد رأيته، حتى إنني لم أتمكن من التفكير، وتفهم ما آل إليه حالي إلا بصعوبة شديدة. فتحت عيني، وحاولت أن أمحو من ذاكرتي كل ما قد رأيته، وأن أركز انتباهي فقط على تلك اللحظة نفسها التي كنت فيها.

دسست يدي في جيبي، وتحسست منديل النقود، لأستيقن من أنه لم يقع من جيبي في أثناء ركضي. شعرت بأنني أتضور جوعًا، إذ لم يسمح لي راضي أمس بتناول وجبتي الغذاء والعشاء لأنني تأخرت. وها قد تملكني الوهن، وخارت قواي، وكان لا بد أن أسد رمقي بشيء أتقوى به. ورحت أفكر في أن راضي قد نزل الدرج الآن، وانتبه إلى عدم وجودي وشكور. لا بد أنهم الآن سوف يخرجون، ليفتشوا عنا، ما كان يجب أن يُلمح لي أثر. ولكن من غير المعقول أيضًا أن أبقى جالسًا إلى زاوية الجدار إلى الأبد، لذا أعملت فكري لأهتدي إلى ما ينبغي لي أن أفعله. لقد غادرت القصر بالفعل، بيد أنني لم أكن أملك خطة واضحة للهروب. ففكرت في أنني يجب أن أذهب إلى مَوْقِف شمس العمارة، حيث كان شكور يقول لي إن لديهم ما يسع الجميع للسفر إلى كل مكان سواء عربات نقل البضائع، أم الدليجانس أم الكالياسكا.

فكان عليّ أن أذهب إلى هناك، وأركب وسيلة تمكنني من الوصول إلى ساوة. فجأة تذكرت الميرزا حسن خان. لم أكن أرغب في الذهاب دون أن أقول وداعًا، بل وربما كان بإمكانه مساعدتي في الوصول إلى قريتنا بطريقة أسهل. إذن كان عليّ الذهاب أولًا إلى الميرزا حسن خان، ربما أيضًا

تمكنت من المبيت عنده ليلة أو اثنتين، ريثما تهدأ الأمور، وينقشع غبار الخطر، ومن بعد ذلك أغادر إلى ساوة. لذلك عزمت أمري على أن أمضي في البداية إلى بوابة قزوين في إثر الميرزا حسن خان، ثم أسلك طريقي إلى مَوْقِف شمس العمارة، ومنه أغادر متجهًا إلى ساوة. ولما التقط أنفاسي في الهواء الطلق، كان نور الفجر قد بزغ، فقمت، وخرجت من زاوية الجدار، وهممت بالسير. أصبحت الآن الدكاكين في محيط ساحة سبزه ميدان تفتح واحدًا تلو الآخر، وقد بدأت معها حركة الناس ذهابًا وإيابًا. تقدمت قليلًا، حتى وصلت إلى دكان الفِريني.([49]) كان هناك عدة أشخاص يجلسون داخل الدكان، يتناولون الفِريني، فاشتهته نفسي. مددت يدي إلى جيبي، وأخرجت عملة واحدة من وسط منديلي، وولجت داخل الدكان. أعطيت العملة الرجل الهرم صاحب الدكان الذي كان يمزج الأرز المطحون باللبن في قِدر كبير، ثم طلبت منه وعاءً من الفريني، فتناول الرجل الهرم سلطانية من الخزف، وسكب بالمغرفة بعضًا من الفريني، ثم سألني: «هل أسكب عليه الشِيرة؟»

فقلت: «اسكب.»

سكب الرجل الهرم معلقة كبيرة من الشيرة ذات اللون العسلي والرائحة العطرية على الفريني، ثم أعطاني السلطانية. عندئذٍ ذهبت، وجلست في أحد زوايا الدكان، وقلبت الحساء، وتناولته. ولما فرغت، غادرت الدكان. وفي الشارع تحسست ثيابي؛ كانت قد جفت تقريبًا. أخذت أتفقد المكان من حولي جيدًا، ثم انطلقت بسرعة صوب محطة ترام الخيل، فاستقللت الترام. ثم وصلت إلى بوابة قزوين، ومنها إلى بيت الميرزا حسن خان. كان لا يزال الوقت مبكرًا في الصباح، فاعتقدت أنه ليس من الذوق أن أطرق باب بيته في مثل هذا الوقت. وظللت أتسكع في الأزقة والشوارع في أنحاء المكان طيلة هذا الوقت، حتى أشرقت الشمس. وما لبثت أن عدت إلى منزل الميرزا حسن خان. أمسكت بمطرقة الباب، وطرقته. انتظرت قليلًا، فلم يفتح أحد. طرقت الباب مرة بعد. عندئذٍ فتحت لي امرأة عجوز تغطي رأسها بمنديل رأس صغير أبيض اللون، وترتدي فستانًا أبيض طويلًا موشى بالنقوش. ألقيت عليها السلام، وردت السلام بلهجة تركية. سألتها: «هل الميرزا حسن خان موجود؟»

قالت المرأة عبارة باللغة التركية لم أفهمها، فأردفت: «أريد أن أقابله، هل هو موجود أم لا؟»

تحدثت المرأة باللغة التركية مرة ثانية، ولم أفهم من كلامها شيئًا. ذكرت لها اسم الميرزا حسن خان ثانية، وقلت إنني أريد أن أتحدث إليه. أما العجوز التي كانت قد أدركت أنني لا أفهم لغتها أشارت بيدها إليّ أن أبقى منتظرًا، ودخلت، ثم عادت بعد قليل ومعها فتاة في نفس سني تقريبًا كانت مرتدية منديل رأس صغير أبيض اللون وفستانًا زهريًا طويلًا. سألتني الفتاة بلهجة تركية: «من تريد؟»

فقلت: «الميرزا حسن خان.»

فسألتني: «هل أنت طالب لديه في المدرسة؟»

فمكثت هنيهة، وقلت: «كلا، إنني صديقه.»

نظرت الفتاة إلى العجوز، وابتسمت، فقالت: «وماذا تريد منه؟»

فقلت: «جئت أودعه، لأنني سوف أسافر.»

فقالت الفتاة: «لقد ذهب الميرزا حسن خان قبل مجيئك، لزيارة مرقد الشاه عبد العظيم([50])، وسوف يعود ليلًا.»

حينئذٍ شعرت بخيبة أمل عظيمة. لقد كنت أتوق لرؤية الميرزا مرة أخرى. وكانت فكرة أنني لن أراه بعد الآن تجيش في نفسي مشاعر اليأس والإحباط. أطبقت شفتي على بعضهما، ثم قلت: «بلغيه سلامي، وأخبريه بأن رضا قد جاء، لكي يودعك. ولما لم يجدك، ذهب.»

فهزت الفتاة رأسها، وقالت: «حسنًا، سوف أخبره.»

وبعد أن ودعنا بعضنا، أغلقت المرأة الباب، ومشيت. قلت في سريرتي ليتني طرقت الباب مذ وصلت في مطلع الصباح. فلو لم أضيع الوقت هباءً، لكنت حتمًا رأيت الميرزا حسن خان قبل رحيله. لم يكن عن هذا الأمر محيص، كان عليّ أن أغادر إلى ساوة وحدي دون عون من الميرزا. سألت نحو شخصين كيف السبيل إلى مَوْقِف شمس العمارة، حتى استدللت على العنوان، وسلكت طريقي راجلًا. وفي الطريق ابتعت لنفسي قبعة أخرى، كما اشتريت أيضًا قميصًا أزرق. اعتقدت أنني إذا اعتمرت هذه، وارتديت ذاك، فلن يستطيعوا أن يعرفوني من بعيد. بعد ذلك مضيت، ومضيت، حتى صلت إلى مَوْقِف شمس العمارة. كانت الواجهة أمام الموقف محتشدة بعربات نقل البضائع، وعربات نقل المسافرين، وكان الركاب والشيالون يتقاطرون إلى داخل المَوْقِف، أو يخرجون منه أفواجًا أفواجًا. دخلت من باب المَوْقِف، فوجدت أمامي فضاءً مفتوحًا تبلغ مساحته عدة أضعاف مساحة فناء قصر نُويان خان. وكانت عدة عربات نقل بضائع، وعربات كالياسكا ودليجانس قد وقفت في محيطه الشاسع. وبينما هممت لأتقدم، باغتني رجل بدين كان قد جلس على مصطبة أمام الباب ويستند إلى الجدار، ويسحب نفثًا من الجبق. سألني: «ماذا تريد، أيها الصبي؟»

نظرت إليه، وقلت: «أريد أن أذهب إلى ساوه.»

فحدجني الرجل بنظرة فاحصة من قمة رأسي حتى أخمص قدمي، ثم قال: «بمفردك؟ أليس معك أحد؟!»

فقلت: «أجل، بمفردي.»

فحدجني الرجل مرة ثانية، وقال: «هل أنت طِهراني؟!»

فقلت: «كلا، إنني من ساوة، وأعمل في طهران.»

سحب الرجل نفثًا من الجبق. وفي الوقت الذي كان الدخان يتصاعد من أنفه، قال: «بأي وسيلة تريد أن تذهب؟ عربة نقل، أم دليجانس، أم كالياسكا؟»

فقلت: «لا يهم، أيها أقلعت في طريقها مبكرًا، أركب.»

فسحب الرجل نفثًا مرة أخرى، وقال: «هناك عربة دليجانس سوف تذهب إلى ساوة، ولكنها ستكلفك الكثير. هل لديك المال؟ سيكلفك الركوب قِرانين.»

فقلت: «أجل لديّ.»

فكر الرجل لحظة قبل أن يقول: «اذهب هناك عند الجدار، واجلس. ومتى جاءت العربة،

فسوف أخبرك.»

مشيت، ودخلت المَوْقِف. ذهبت إلى بقعة ظليلة، وجلست متكئًا إلى الجدار. كان صبري قد عيل، وبدا عليّ التوتر، فرحت أدعو الله أن تصل العربة بأسرع وقت، لأركب. كانت عربات نقل البضائع، وعربات الركاب تمضي أمامي جيئة وذهابًا واحدة واحدة، وقد امتلأت الأرضية بالروث الجاف الذي قد خلفته الخيول التي تجرها. ظل الموقف يزدحم وئيدًا وئيدًا، حيث كانت عربات نقل البضائع وعربات الركاب تقف بعضها إلى جانب بعض، والمسافرون ممسكين بُقْجاتهم، والشيالون فيما بينهم يتحركون. وبينما كان الرجل البدين يدخن الجبق أمام باب المَوْقِف، وبين الفينة والأخرى يقول شيئًا لمن يسيرون في هذا الاتجاه وذاك، فجأة جاء شاب ما، ووقف بجانبه. تحدثا إلي بعضهما قليلًا، ثم أشار الرجل البدين نحوي بيده. أما الشاب فما لبث أن استدار نحوي، ورمقني بنظرة. ثم تحدثا إلى بعضهما ثانية، وبعد ذلك استدار الشاب، وغادر الموقف. كان الموقف يزداد على ازدحامه ازدحامًا. ولم يكد يمضي بنا الوقت، حتى جاءت عربة كالياسكا كبيرة وتوقفت أمامي، فحجبت عني الرؤية، بحيث لم أعد أتمكن من رؤية ما يدور من حولي.

عندئذٍ قمت، وبدأت أسير بين الناس، والخيول، والعربات بمختلف أنواعها. كانت ساقاي ترتجفان، إذ كنت أخشى أن يباغتني أحد، فينقض عليّ، ويمسك بتلابيبي. كم وددت حينها لو تنبت لي أجنحة فأطير بها محلقًا بعيدًا عن طهران.

وبينما كنت أتسكع في المكان، قال أحدهم من خلفي: «مهلًا أيها الصبي، أتريد الذهاب إلى ساوة؟»

استدرت، ونظرت إليه. كان هو نفسه الشاب الذي كان قد تحدث إلى الرجل البدين. كان يرتدي قباء ذا ثَنيات كحلي اللون، ويعتمر طربوشًا أسود اللون. قلت له: «أجل.»

فقال: «أقبل.»

ولما تقدمت، مد يده، وبسط كفه، وقال: «الأجرة قِرانان.»

فدسست يدي في جيبي، وأخرجت منديل النقود، وفتحته. تناولت منه قرانين، وأعطيتهما له. لكنني عندما رفعت رأسي، رأيت ذلك الفتى يحدق إلى منديلي، وينظر إلى النقود. فأطبقت على المنديل فورًا، ووضعته في جيبي. ثم أعطيته القرانين. أخذ الفتى النقود، ووضعها في جيب قبائه، وقال: «تعال خلفي.»

استدرت، وبدأت بالتحرك، بحيث مضيت خلفه. وفي طريقي مررت ببضع عربات. ثم بعد ذلك وقف الشاب، وأشار إلى عربة دليجانس قديمة كانت تقف إلى الأمام قليلًا، وقال: «اركب تلك العربة واجلس فيها، حتى تنطلق.»

ركضت نحو العربة مبتهجًا. ولكنني بمجرد أن وضعت قدمي على موطِئ القدم الخلفي للعربة، وأمسكت بدعامتها الجانبية، وهممت بالصعود، باغتني شخص ما، لوى ذراعي خلف ظهري، وقال: «إلى أين ستذهب، أيها الجحش الصغير؟»

استدرت، ونظرت إليه. كان فرُّوخًا. وقبل أن أنطق بحرف، بادرني بصفعة محكمة، صفعة، صفرت أذني على إثرها، وانهمرت دموعي. آنذاك شد فرُّوخ ذراعي بقوة إليه، وما لبث أن قال:

«لم يولد بعد شخص يستطيع أن يفلت من براثن نُويان خان.»

ثم مشى، وسحبني معه أيضًا. وعلى بعد خطوتين أو ثلاث وقف أمامنا ذاك الشاب الذي كان قد أخذ مني النقود، وراح يرمقنا ببصره. فوقف فرُّوخ إزاءه، وأخرج من طرف شال خصره عملة معدنية، ودفعها له. ثم ما لبث أن صرخ فيّ قائلًا: «أتظن أن الأمر بهذه السهولة؟ أخزاك الله، ألا تعلم أن نُويان خان له عيون في كل مكان؟ ألا تعلم أنني أنا نفسي لدي رجال ليس في طهران وحدها بل في كل نُزل في الطريق وخان؟ أينما ذهبت، فسوف أمسك بك.»

ثم دس يده في جيبي، وأخرج منديل النقود، وقال: «أين صاحبك؟»

فقلت بارتباك: «من؟»

فقال: «ذاك المقبور شكور أين؟»

فقلت: «لا أدري.»

فلطمني على خدي لطمة أخرى، وقال: «لا تكذب.»

فقلت: «تالله لا أدرى. لقد جئت هنا بمفردي.»

فقال: «لا، هذا محال. إن لم تنطق، فسأبرحك ضربًا، حتى تموت بين يدي. هيا أخبرني أين هو؟»

ثم رفع يده، كي يسدد صفعة أخرى إلى وجهي. لم أجد لي بُدًا، فأي شيء كنت سأقوله، فإنه لن يصدقه. كان عليّ أن أختلق قصة ما، أصده بها عن ضربي والنيل مني.

فقلت مذعورًا: «لا تضرب.. لا تضرب، سأخبرك أين هو.»

فقال: «حسنًا، قل، قل لي أين هو؟»

--١٩

وقتما قلت لفرُّوخ إنني سوف أخبره أين اختفى شكور، أنزل يده التي كان قد رفعها ليصفعني. وإنني إذا اطمأن قلبي لأنه لن يصفعني صفعة أخرى في الحال، رحت ألتقط أنفاسي. لكنني فيما بعد عجبت ماذا أقول؟ بماذا أجيب سؤاله عن مكان شكور؟ أما فرُّوخ الذي كان ينتظر أن أفتح فمي وأتكلم، ما لبث أن قال: «حسنًا، قل لي أين هو؟»

كان لساني مربوطًا، وقد شُل تفكيري تمامًا، إذ لم أعد داريًا ماذا عليّ أن أقول. قلت: «شكور... أوه شكور.»

حينئذٍ رفع فرُّوخ يده مرة ثاني، وقال: «أخبرني أين هو، وإلا فسوف أوسعك ضربًا، وأفقأ عينيك هاتين.»

فجأة انزلق لساني، وأُفلت الكلام من فمي على عواهنه، فقلت: «إنه في مكان ما قرب البازار، زقاق ما قرب البازار. لقد اختبأ هناك في بيت أحد أقاربه.»

ضغط فرُّوخ بيده على ذراعي، وقال: «يا لك من أحمق غبي! وأين كان قريب ذاك المقبور من قبل. إنه وحيد ليس له أهل أو أي أحد في هذه الدنيا، أتقول الآن إنه قد ذهب إلى بيت أحد أقاربه؟!»

ثم أخذ يهز ذراعي بقوة، حتى كدت أسقط أرضًا. لكنني أصررت على كلامي، ولم أبدله، فقلت: «وما أدراني، لقد أخبرني هو أنه قريبه. ففي تلكم الأيام التي دأب فيها على الخروج لابتياع الطعام، كان أحيانًا ما يذهب ليزوره. أتذكر حتى أنه كان شيخًا هرمًا، وكان من المفترض أن يمكث شكور هذه الليلة لديه بالبيت، على أن يغادر غدًا إلى قزوين، وأرحل أنا إلى ساوة. لقد قال لي بنفسه إنني سوف أغادر إلى قزوين، إذ اقترح قريبه ذاك عليه أن يذهب إلى هناك.»

هذه المرة انطلت أكذوبتي على فرُّوخ، فصدق كلامي، وسرعان ما قال: «كنت أعلم أن هذا الكنود الناكر للجميل لا يجب أن يخرج كل يوم.»

ثم أردف: «هل تعرف أين يوجد بيت ذاك الرجل قريبه؟»

فقلت: «كنا هناك في الصباح. ليس تمامًا، ولكنني إذما بحثت عنه، فسوف أعثر عليه.»

فقال: «إذن، نذهب إلى هناك.»

لما بدأ كلانا بالسير، راح فرُّوخ يعرج، إذ كان المشي أمرًا شاقًا بالنسبة له، هذا على الرغم من إصراره على أن نجد في السير. بدا الأمر وكأنه يخشى من أن يضيع شكور من يديه. خرجنا من موقف عربات السفر، واستقل لنا في الشارع عربة خيل صغيرة، لتحملنا إلى ساحة سبزه ميدان. وفي الطريق لم ينفك فرُّوخ يطلب من سائق العربة أن يسرع أكثر، في حين كنت أفكر ماذا يجب أن أفعل عندما نصل إلى ساحة سبزه ميدان. إذا علم فرُّوخ أنني قد كذبت عليه، وجررته جرًا إلى ساحة سبزه ميدان بلا طائل، فلا غرو في أنه سوف تثور ثائرته، ويزيدني ضربًا أكثر وأكثر. لم يكن هنالك من حيلة لدي سوى أن أهرب منه، ولكن حتى تنفيذ مثل هذه المهمة لم يكن سهلًا على الإطلاق، ما دام فرُّوخ قد جلس بجانبي متشبثًا بذراعي. عندما وصلنا إلى ساحة سبزه ميدان،

توقفت العربة. وحينئذٍ نظر فرُّوخ إليّ، وقال: «هل ننزل هنا؟»

ألقيت نظرة أمامي، وقلت: «لا، إلى الأمام قليلًا.»

فما كان من فرُّوخ إلا أن قال لسائق العربة: «تقدم.»

وبدأت العربة بالسير مرة ثانية. لكنها لم تكد تتقدم، حتى قال فرُّوخ مستنكرًا: «ألم تقل في ساحة سبزه ميدان، فلمَ لم نصل إذن؟»

فنظرت إلى أحد الأزقة، وقلت: «هنا، قل له أن يتوقف هنا.»

أوقف السائق العربة، ونزلنا. كان فرُّوخ يتشبث بذراعي لا يفلتها. وكانت يداه المشققتان القاسيتان كالحديد قد انغرستا في ذراعي، حتى إنني رحت أتألم، وقلت: «إن يدي تؤلمني فرُّوخ خان، اتركها.»

فقال فرُّوخ: «لا يهم، أنت لم تجرب الألم بعد. الآن دعنا نستدير، سوف أريك موقع القصر من هنا... قل لي من أي ناحية نذهب.»

كان الزقاق يبدو مألوفًا بالنسبة لي، فلقد جئت مع شكور إلى ذاك المكان مرة من قبل. وبمجرد أن أعملت ذهني قليلًا، تذكرت أن ذلك الزقاق يفضي إلى مرحاض الرئيس. فقلت حينها ليكن ما يكون، سوف نذهب إلى مرحاض الرئيس، وهناك سأفعل شيئًا. قلت لفرُّوخ: «الطريق من هذه الناحية.»

وولجنا الزقاق. أما فرُّوخ الذي كان يكابد المشي بعرجته لم ينفك عن التذمر، وظل يتساءل طوال الطريق متى سنصل. وكنت دائما ما أجيبه بأننا سنمضي إلى الأمام قليلًا. ولم نكد نجتاز زقاقين، حتى تضوَّعت رائحة مرحاض الرئيس الكريهة، فأدركت حينئذٍ أننا قد على وشك الوصول إلى المكان. والتفت إلى فرُّوخ، وقلت: «بعد ذاك الزقاق ثمة مرحاض. عندما نصل إلي هناك، دعني فقط أذهب لأقضي حاجتي. فإن معدتي تؤلمني، وأشعر بمغص شديد»

فقال فرُّوخ: «لا يهم، هذا ليس بوقت مناسب، يجب أولًا أن نمسك بهذا المقبور.»

وهز كتفي بيده، وقال: «هيا، أسرع.»

فقال: «بالله يا فرُّوخ خان، لدي مغص شديد. كأنني قد تناولت في الصباح شيئًا أضر بمعدتي، حتى إني لأخشى أن أفسد بنطالي.»

فقال فرُّوخ: «أطبق فمك، وامض في طريقك.»

مشينا حتى وصلنا إلى مرحاض الرئيس. مررنا أمام صف من المراحيض، حتى وصلنا إلى صف من الأباريق المنضودة، والرئيس نفسه الذي كان جالسًا على مقعده ذاته بمكان ليس ببعيد من الأباريق، بحيث يضع إحدى قدميه على صخرة أمامه، ويبرم شاربه. فرأيت أني لا بد أن أخلص نفسي هناك بأي طريقة كانت، وإلا فإنني لن أستطيع مماطلة فرُّوخ لأكثر من هذا. لذلك التفت إلى فرُّوخ، وتشبثت بكم قبائه الأسود، ورحت أرجوه: «بالله يا سيدي فرُّوخ، بالله أن تدعني أذهب، معدتي تتمزق من شدة الألم.»

وتظاهرت بالبكاء، حتى لفت صراخي وضجيجي انتباه الرئيس. وحينئذٍ قلت بصوت

أعلى:«معدتي تتمزق تمزيقًا. لئن لم أدخل المرحاض، فسوف أفسد ثيابي الآن.»

فأزاح فرُّوخ يدي عن كمه، وقال: «لا يهم الآن... ليس ضروريًا... واصل سيرك.»

وقتئذٍ صرخ الرئيس من على مقعده في فرُّوخ قائلًا: «لم لا تدع الصبي يذهب إلى المرحاض، أتراك بخيلًا إلى هذا الحد، لدرجة أنك لا تريد أن تدفع شاهيًا واحدًا أجرة دخوله؟!»

وكما لو أن هذا الكلام من الرئيس قد باغت فرُّوخًا، وأصابه في مقتل. فتسمر في مكانه لوهلة قبل أن يقول ممتعضًا: «إنني لأنفق يوميًا على جسدي ضعف ما تجنيه أنت، أفأنت تدعوني الآن بخيلًا؟!»

فأطلق الرئيس ضحكة هازئة، وأشار إلى صف المراحيض، ثم قال: «إنما جُل ربحنا داخل هذه، فلتغترف بقدر ما شئت، وضعه على جسدك»

فتميز فرُّوخ غضبًا، والتفت إلى الرئيس، وقال: «من المؤسف حقًا أنني في عجلة من أمري، وإلا لكنت أفحمتك بردي.»

ومرة ثانية أخذ يهز يدي، وقال: «اذهب.»

لكنني لم أرعوي، فبقيت واقفًا في مكاني، وقلت: «إنني أتغوط في ثيابي، أتغوط يا فرُّوخ خان... أتغوط... دعني أذهب.»

فما كان من الرئيس إلا أن صرخ من الجانب الآخر ناحية الأباريق قائلًا: «دعه يذهب يا عزيزي، لا أريد أجرة دخوله، دعه يذهب على حسابي أنا. وفر أنت هذا المال، لتنفقه على جسدك.»

كان فرُّوخ قد ثارت ثورته، ونفد صبره. ضغط قبضته على ذراعي، ورفعها، ثم قال: «ادخل بسرعة، وإلا فسوف أطبق على عنقك.»

فقلت: «أمرك فرُّوخ خان.»

وما لبث فرُّوخ أن أفلت ذراعي من قبضته، فركضت صوب أباريق المرحاض، ورحت أتناول أحدها. عندئذٍ هتف الرئيس: «ليس هذا.. بل ذلك.. ذلك الإبريق.»

ولما هممت أن ألتقط الإبريق الذي بجانبه، زعق مرة ثانية: «ليس ذاك، ألا تفهم، قلت لك ذلك الإبريق، الثالث.»

فنظرت إلى الرئيس، وإلى يده أيضًا التي كان يشير بها إلى أحد هذه الأباريق، حتى أخيرًا وجدت الإبريق الذي كان يقصده، وتناولته. قال فرُّوخ إلى الرئيس: «كم سيكلف هذا؟»

فقال رئيس: «قلت لك على حسابي.»

فرد فرُّوخ قائلًا: «لا داعي لذلك، لست مضطرًا إلى أن تبذر مالك.»

ركضت على الفور صوب المراحيض، وخلَّفت فرُّوخًا والرئيس يتشاغبان ويتشاكسان معًا. لم أكد أفتح باب أحد المراحيض لأدخل، حتى خطر ببالي أني لا أدري ماذا عليّ أن أفعل. كان واضحًا أن فرُّوخًا سوف يتقدم الآن، ويقف خلف باب الحمام منتظرًا أن أخرج، ليمسك يدي مرة ثانية، ويأخذني معه. كان المرحاض هو الآخر مجرد غرفة ضيقة من أربعة جدران، ولم يكن

فيها منفذ إلا تحت الأرض. وفي الوقت ذاته تذكرت الكنَّاس الذي راح في المرة الماضية يصرخ فيّ من أسفل فتحة المرحاض، وطالبني بألا أوسخه بفضلاتي. نظرت إلى الفتحة في أرضية المرحاض التي كانت مغطاة بالذباب، ثم إلى الألواح الخشبية التي كانت مُثبتة عليها بواسطة المسامير المدقوقة حولها. انحنيت، وأمسكت بطرف أحد تلك الألواح الخشبية، وحركته، فتطاير في محيط المكان فوج من الذباب يئز أزيزًا. كان اللوح متلقلقًا. وكلما حركته، كان يتلقلق أكثر.

دفعت الذباب عن وجهي، وجذبت اللوح إلى الأعلى بكل ما أوتيت من قوة. وبينما كانت المسامير المثبتة على طرفي اللوح تنتأ، تركته مرة واحدة ريثما التقطت أنفاسي، ثم عدت لأبذل غاية جهدي ثانية. رحت أقتلع اللوح بقوة، حتى انخلع من مكانه، وعلى إثر ذلك ازدادت الرائحة القذرة للمرحاض انتشارًا، وتدافعت أفواج الذباب التي كانت قد تجمعت تحت هذا اللوح. ومن بين هذا الذباب المتطاير، رأيت ساحة تخزين فضلات المرحاض، والتي كانت ملأى بالفضلات. أما إلى جانب جدار المخزن، فقد كانت هنالك حافة، بحيث كان بوسع المرء أن يطأها، ويسير عليها. ففكرت حينئذٍ في أن الكناسين أنفسهم لا بد أنهم يتحركون على تلك الحواف. أتلعت أذنيّ قليلًا، فسمعت صوت فرُّوخ وهو لا يزال يتجادل مع الرئيس. فلم أدخر وسعًا، وقمت باقتلاع لوح خشبي آخر كان مثبتًا إلى جانب اللوح السابق. وها ذا قد أصبح لديّ فتحة صغيرة يمكنني العبور خلالها. خلعت قميصي، ولففته حول أنفي وفمي، ثم نزلت بحذر من تلك الفتحة الصغيرة، وتشبثت بحواف وعاء المرحاض، ومنها صرت متدليًا. ثم وضعت قدميَّ بتأن على حافة المخزن التي كانت لزجة للغاية. ووقتما نظرت حولي، ألفيت المكان مضيئًا أكثر مما تصورت. كانت رائحة العفونة المتخمرة التي تنفذ عبر قميصي وتصيب أنفي، تشعرني بالقرف الشديد، لكنني تماسكت على أي حال.

فتحت يدي على مصراعيهما، وألصقت ظهري بالجدار، وتقدمت على حافة المخزن خطوة خطوة. تطلعت فوقي، فرأيت فتحات المراحيض التي كانت مصفوفة بعضها إلى جانب بعض، وحينئذ فجأة نزلت كل الفضلات من إحدى هذه الفتحات دفعة واحدة، فتحاشيت النظر إلى الفتحات فوقي أو إلى ما تحتي. وكم من مرة دست بقدمي نجاسة، وأوشكت على الانزلاق، والسقوط في عرض المخزن تحت الأرض. سرت على الحافة، حتى وصلت إلى نهاية الجدار، ثم من بعد ذلك استدرت نحو جدار جانبي آخر، وتقدمت بالسير. هذه المرة كان آخر الجدار يفضي إلى فتحة صغيرة يدخل منها الضوء. تقدمت، ورأيت تحت الفتحة بضع درجات سلم، وعندئذٍ وثبت بسرعة إلى هذا الدرج وصعدته. وكيفما خرجت من المخزن تحت الأرض، أدركت أنني الآن صرت خلف مراحيض الرئيس. جلست على الأرض، وفككت قميصي الملفوف حول وجهي، وتقيأت، حتى أفرغت كل ما كنت قد تناولته منذ الصباح. ثم أرهفت السمع، فسمعت صوت فرُّوخ الذي كان يصرخ ويصيح، إذ بدا وكأنه قد عرف أنني قد هربت. عندئذٍ أمسكت قميصي، وركضت على الفور. كان أمامي سور قديم مبني من القش لأحد البساتين، فركضت صوبه، وتسلقته، ومنه قفزت داخل البستان. ركضت عبر الأشجار، واختبأت خلف جذع إحدى الأشجار الكبيرة. نظرت إلى حذائي الكيوة، وبنطالي ورأيت أن كليهما قد اتسخ اتساخًا شديدًا، فشعرت بالاشمئزاز.

التقط بضعة أحجار، وأخذت أنظف بها حذائي وبنطالي بقدر ما استطعت، ثم بعد ذلك ارتديت قميصي. فكرت في أنه يجب أن يكون هناك ممر مائي في مكان ما بالبستان، وبدأت

بالسير والبحث عن الماء. وكنت قد أصبت في حدسي، حيث كان في نهاية البستان جدول مائي يتجه من أسفل جدار السور إلى الداخل ويسير بين الأشجار. جلست هناك، ونظفت بنطالي وحذائي، كذلك عفرت يدي في التراب وشطفتها بالماء. ثم فجأة سمعت صوت شخصين كانا يتحدثان بصوت آخذ في الارتفاع. دب الخوف في نفسي، فززت بسرعة، وهرعت نحو السور، وتسلقته، ثم قفزت من أعلى السور. كان ثمة زقاق. ركضت مجددًا، وانعرجت إلى بعض الأزقة الأخرى، حتى وجدت أنني قد انتهى بي المطاف إلى البازار. فقلت في سريرتي إن الأمور هكذا تسير على نحو أفضل، فبهذه الطريقة سأضيع في زحام البازار، ولن يتمكن أحد من العثور عليّ. مشيت وسط الجموع المحتشدة، والدكاكين المكتظة، والشيالين الذين كانوا يحملون البضائع. وفي أثناء ذلك لم أنفك عن التفكير في أمر إيجاد مكان للمبيت فيه، حتى أذهب في صباح الغد في إثر الميرزا حسن خان. كنت مُستيقنًا من أنني إذا أخبرته كيف جرت الأمور في قصة اختطافي، فإنه لا شك سوف يساعدني، كي أعود إلى داري. لو كنت لديه الآن، لما استطاع فرُّوخ أن يمنعني من مغادرة طهران. لكنما المشكلة كانت في كيفية قضاء ذاك اليوم وتلك الليلة. كنت أتضور جوعًا، فكل ما كنت قد أكلته استفرغته. ثم إن باطني قدمي كانا ملتهبين، وبت متيقنًا من أن قدميّ قد تقرحتا.

رغم كل هذا واصلت السير في طريقي. وعندما مررت من أمام محال بيع الأطعمة، تمنيت لو أن فرُّوخًا لم يستول على ما بحوزتي من النقود، فتمكنت من تناول شيئًا. هكذا مضيت في البازار، إلى أن وصلت إلى تيمجة معتمد التجار. حيث كانت التيمجة تعج عن آخرها بمحال بيع الأقمشة، وكانت حزم القماش والطاقات مصفوفة أمام محال بائعي الأقمشة. أما البائعون أنفسهم فقد جلسوا على الدكك داخل محالهم، وراحوا يقيسون الأقمشة، ويبيعونها للزبائن. كانت بعض المحال كبيرة للغاية، لدرجة أن أصحابها كانوا قد رتبوا حزم الأقمشة والطاقات متنوعة الأشكال والألوان بحيث يعلو بعضها بعضًا في عدة صفوف كادت تبلغ في بعض الأحيان قدر ارتفاع إنسان، وقد أفسحوا بين الصفوف مساحة للتنقل.

هكذا رحت أستمتع بمشاهدة الأقمشة المتنوعة الألوان والأشكال. وبينما كنت مستغرقًا في تأملها، إذ بي أرى راضيًا على بعد بضع خطوات مني فحسب، حيث كان قادمًا من الاتجاه المقابل. فهرعت إلى جانب الجدار، وتواريت عن ناظريه. كان كلما مضى خطوتين ثلاث، يلقي نظرة داخل المحال، والمسارات التي كانت بين طاقات الأقمشة. وبات من الواضح أنه كان يبحث عني. تملكني الخوف، وجريت إلى داخل أحد المحال الكبيرة، واختبأت هناك خلف أحد صفوف الأقمشة. كم خشيت أن يأتي راضي داخل المحل، ليلقي نظرة. ولما نظرت خلفي كان آخر المحل مظلمًا، حيث بدا وكأنه مخزن المحل. تراجعت خطوة في إثر خطوة، حتى أعثر على مكان أفضل أتوارى فيه. ووقتئذٍ تعثرت قدمي بشيء، ووقعت على الأرض. ثم اصطدمت بصف طويل من طاقات الأقمشة وفجأة تفرقت طاقات الأقمشة على الأرض، وقد وقعت بينها. وفي تلك اللحظة سمعت صوت أحد ما يقول: «ما الأمْل؟ ما الذي تفعله هنا أيها الصبي؟!»

نهضت، ونظرت ورائي. كان يقف إزائي رجل نحيل قصير القامة لون بشرته أسود فاحم مثل القطران. كانت رأسه صلعاء ملساء، وعيناه اللتان تتوسطان صحيفة وجهه الأسود ضاربتين إلى اللون الأبيض كما لو أنهما بيضتا حمامة. ويملك أهدابًا طويلة، وشفتين غليظتين وعريضتين، وعوضًا عن اللون الوردي للشفاه كانت شفتاه شاحبتين بيضاوين. هالني منظر الرجل المروع، حتى انعقد لساني. أما الرجل الذي كان من الواضح أن سقوط الأقمشة قد أثار حفيظته، ما لبث

أن قال: «ألا تُبصِلْ؟ أأعمى أنت؟»

كانت تلك الطريقة التي يتحدث بها، تزيدني وجلًا. غير أنني لم أكد أستدير لأنفد بجلدي، حتى تعثرت قدمي مرة ثانية بطاقات الأقمشة، وسقطت على الأرض. فقال الرجل: «ما الأمْل؟ لمَ تفعل هكذا؟!»

وفي أثناء كلامه برزت أسنانه الكبيرة البيضاء. ومع هيئته تلك وطريقة حديثه، لم يكن لدى شك قط في أنه جنيّ. وأول ما طرق ذهني حينذاك أن أسمي بالله. فبسملت ثلاث مرات متتالية غير أن الرجل لم ينصرف. ظل واقفًا على رأسي ينظر إلي. وعندما رآني قد وقعت على الأقمشة مصعوقًا في مكاني لا أحرك ساكنًا، ما لبث أن قال: «هيا انهض، يا لك من صبي غَلِيب!»

بينما كنت أطالع وجهه الأسود، ويديه السوداوين اللتين كانتا قد برزتا من ثوبه الأبيض الطويل، شعرت بخوف شديد. فقلت: «أنت... أنت... أنت جني؟!»

فقال الرجل الأسود: «انهض.... انهض أيها الصبي، ما الذي تقول. أنا ألماس، الجميع في البازالْ يعلِفني جيدًا.»

فقلت: «ماذا؟»

فقال: «ألماس، ألم تسمع؟»

ثم ركل قدمي برفق، وما لبث أن قال: «هيا انهض، انهض واخلُج من هنا.»

أسندت كفي إلى إحدى طاقات القماش، ونهضت، ثم قلت: «هل يمكنني البقاء هنا قليلًا؟»

فقال ألماس: «كلا، لا يمكنك. اخلج من هنا قبل أن يأتي الحاج.»

فتوسلت إلى ألماس قائلًا: «هنالك شخص في الخارج يريد أن يمسك بي. أرجوك دعني هنا.»

فضيق ألماس عينيه البيضاوين حتى صارتا كحبتي خرز، وحدق إليّ، وقال: «هل سلَقت شيئًا؟»

فقلت: «كلا والله، أبدًا... أما الذي سرقني فهو ذلك الذي هناك بالخارج. إنني لست من طهران، بل من ساوة... قرية سلطان آباد التابعة لساوة. وسيد ذلك الفتى قد سرقني من أبي وأمي وجلبني معه إلى طهران. والآن لا أريد سوى العودة إلى داري.»

فضحك ألماس ضحكة خبيثة ماكرة، ثم قال: «أنت تكذب، لقد سلَقت شيئًا ما.»

فقلت: «والله، قسمًا بحياة أمي إنني أقول الحقيقة، إنني صادق والله.»

نظرت ناحية باب الدكان. ولكيلا يراني راضي في أي وقت، انسللت إلى جانب صف من الأقمشة مختبئًا. أما ألماس فقد أخذ يفكر لوهلة، ثم قال: «اذهب إلى آخل المخزن هناك واجلس، حتى آتيك بخبَل»

٢٠--

في ذلك اليوم لم نتمكن من البقاء حتى المساء في قصر نُويان خان الذي كان يطلق عليه أهل المنطقة القصر الإقطاعي. كنت أنا وليلى هناك، في حين لم يكن الظهر قد حان بعد. وعندما أخبرونا بأن علينا أن ننتظر حتى المساء، ريثما يأتي مندوب البلدية، ويفتح لنا باب الغرفة التي نروم رؤيتها. اتصلنا بأبي، وسألناه عن أفضل حل نفعله، فقال أبي إنه لا يزال باقيًا على المغيب نحو عشر ساعات، وليس من الحكمة أن نهدر كل هذا الوقت سُدى بوجودنا في المكان. ثم قال إنه من الأفضل أن نعود إلى البيت، على أن نذهب الأسبوع القادم في الصباح الباكر، ونتحدث إلى مندوب البلدية. فما كان منا إلا أن وافقناه الرأي. فذهبت إلى عامل الجبس، وسألته متى يبدأ عمله أيام الخميس، فقال في تمام الساعة التاسعة. ولما قلت إذن سوف نأتي الأسبوع القادم بمشيئة الله في تمام الساعة التاسعة، قال ليس هنالك مشكلة، وتودعنا.

تمشينا قليلًا في الأزقة التي تقع في محيط المكان، والتقطنا بعض الصور، ثم سلكنا طريق العودة إلى البيت. وكان الطريق قد استغرق منا قرابة ساعتين. تذكرت أن اليوم هو الخميس، وهذا يعني أنه قد حان دوري في إعداد الطعام. وبالتشاور مع ليلى ابتعنا بعض النقانق والبيض لطعام الغذاء، ثم مضينا إلى البيت. لكننا فور أن ولجنا باب المدخل الرئيس، كانت رائحة قُرمة سَبْزي([51]) الطيبة قد فاحت في كل مكان. فأخذت ألوِّح بكيس النقانق أمام ليلى، ثم قلت مازحًا: «في المقابل من ذلك لدينا بعض من هذه. لن نعطي منها أي أحد، لئلا يرق قلبه ويشعر بالشفقة تجاهنا.»

ثم وجدنا كما لو أن الرائحة تخرج من بيتنا نحن. أخرجت المفتاح، وفتحت الباب. وبمجرد أنفُتح الباب، استقبلت رائحة ذلك الحساء أنفينا، إضافة أيضًا إلى البُلو. سارعنا معًا إلى الدخول، وأغلقنا الباب خلفنا. ولما لم يكن أبي قد طبخ لنا ذلك الحساء من قبل، خمنت ليلى في الحال، وقالت: «جدتي العزيزة!»

كانت الجدة طاهرة جدتنا أم أبينا. دخلنا المطبخ، وقد كانت ليلى محقة، حيث كانت جدتي واقفة أمام الموقد ترفع غطاء القِدر، وتقلب الحساء. ألقينا عليها التحية بفرحة عارمة وسرور، فتقدمت الجدة وغمرتنا معًا، وقبلتنا. كان جسدها الممتلئ، وجهها المستدير، مع شعرها القصير بخصلاته البيضاء، كان كل ذلك يضفي إليها جمالًا ووداعة. سألتها: «متى أتيتِ جدتي العزيزة؟»

فأجابت: «وصلت إلى المحطة صباحًا.»

فقالت ليلى: «ولمَ لم تخبرينا، حتى نأتيكِ إلى هناك؟»

قالت جدتي: «لم أرد أن أتعبكم، فاستقللت سيارة أجرة وجئت، كيف حالكم؟»

فقلت: «كلنا بخير ما دامت جدتي لدينا هنا.»

فقالت جدتي: «فدتك روحي يا حبيب.»

ثم سرنا من المطبخ إلى غرفة الجلوس، وخلال ذلك قالت ليلى للجدة: «وما الذي جعل جدتنا العزيزة تتذكرنا؟»

فقالت الجدة: «عندما كنت أتحدث إلى حميد عبر الهاتف أول أمس، وجدت ولدي مهمومًا. فقلت لا يصح أن أنقطع عن زيارتكم طويلًا هكذا. عهدت بعباس آغا إلى حميدة، وقلت إنني سوف آتي لأراكم وأمكث لديكم يومين ثلاثة.»

فسألتها: «وكيف حال جدي الآن؟»

فأجابت: «الحمد لله، إن ذاكرته ووعيه لم يتغيرا، فلا يكاد يعرف أحدًا. لكن الطبيب يقول إنه يتحسن بشكل عام.»

فقلت: «حمدًا لله، لقد أحسنتِ صنعًا إذ فكرت بالمجيء جدتي العزيزة.»

فقالت الجدة: «أنا أيضًا سعيدة للغاية، كيف حال أبيك؟»

فقلت: «كما هو.»

فقالت جدتي: «ليس كما هو، أعتقد أنه الآن قد أصبح أفضل، لقد كان في مزاج أفضل بكثير هذا الصباح. عندما ذهبت إلى غرفة النوم، وجدت أن أسطوانة الأكسجين تلك لم تعد في مكانها إلى جانب السرير.»

فقلت: «أجل، قبل يومين أخبرني أنه سوف يذهب إلى إحدى العيادات الخيرية، ويتبرع بها.»

فقالت جدتي: «والزهرية الذي قد وُضعت بدلًا منها رائعة للغاية.»

فقالت ليلى مستغربة: «زهرية؟!»

وقلت: «لا أعرف شيئًا عن تلك الزهرية أيضًا، لا بد أنه قد ابتاعها هذا الصباح.»

فقالت جدتي: «ربما، فعندما وصلت، كان لا يزال قادمًا لتوه.»

فقالت ليلى: «دعنا نذهب، لنرى.»

مشينا معًا، وذهبنا إلى غرفة أمي وأبي. كانت قد وُضعت إلى جانب الفراش، حيثما كانت أمي تنام بدلًا من أسطوانة الأكسجين، زهرية طويلة يطل منها نبات الفيكَس بساقه الفارعة، وأوراقه الخضراء اللامعة، إذ كانت أمي تحب نبات الفيكَس للغاية. كما كان على طاولة التسريحة إلى جانب صورة أمي زهرية أخرى صغيرة ملأى بباقة من الورود ذات الألوان القرمزية والزهرية.

فقالت ليلى: «يا لها من رائعة!»

وقلت: «نعم، إنها جميلة.»

ولما عدنا إلى غرفة الجلوس، كانت جدتي قد ذهبت مرة ثانية إلى المطبخ، فذهبنا إليها. وحالما كانت جدتي تقطع الخيار والطماطم لتعد لنا طبق السلطة، قالت ليلى: «لقد اشتريتِ بنفسك كل شيء أيضًا.»

فقالت جدتي: «بل اشترى والدك. لقد أعطيته قائمة بالمشتريات، وذهب هو ليشتريها بنفسه، ثم أحضرها. لقد نسي بالطبع أن يبتاع بعض الأغراض، إذ يبدو أن تركيزه منصب على تلك اللوحة التي يرسمها. وسرعان ما ترك الأشياء التي قد اشتراها هنا، وذهب إلى ورشته.»

بعدما تحدثت إلى أبي قبل ليلتين، أصبحت أتفهم موقفه على نحو أفضل. أضحى الأمر كما لو أن حبه ازداد في قلبي. وكم وددت أن أتحدث إليه أكثر. لذا فبمجرد أن تحدثت جدتي عنه، شعرت بتوق شديد يدفعني لرؤيته، وقلت: «سأذهب بنفسي، لأرى ماذا يفعل.»

وسرت تجاه ورشة أبي. كان أبي قد نصب الحامل، وعليه لوحته الكبيرة، خلف الباب، ويقوم بعمله أمامها. ألقيت عليه التحية، فرفع أبي رأسه من خلف اللوحة، وقال: «مرحبًا يا عزيزي، هل جئت الآن؟»

فقلت: «نعم.»

فقال: «هل توصلت إلى شيء؟»

فقلت: «كما أخبرتك في الهاتف، لا شيء سيكتمل ما دمت لم أر تلك الغرفة بعد.»

حرك أبي القلم على اللوحة، وقال: «اصبر إذن، حتى يوم الخميس القادم.»

فقلت: «لا حيلة لي سوى الانتظار، آمل فقط أن ينتهي الأمر هذه المرة.»

وفي حين كان رأس أبي يطل من فوق اللوحة ضحك، وقال: «ينتهي؟ لن ينتهي أبدًا. سيكون هذا الأمر مجرد إجابة عن سؤال ما، ثم يتفتق ذهنك عن سؤال آخر، يتلوه سؤال آخر، وهلمَّ جرًّا.»

ثم التفت إلى ألوانه. وحينما كان يحرك أنابيب الألوان، قال: «ثمة شيء عليك أن تتذكره دائمًا، ينبغي للمرء منا أن يظل يتساءل. متى توقفت عن طرح الأسئلة، فاعلم أنك في حال يُرثى لها.»

فهززت رأسي، وقلت: «كيف تمضي الأمور في عملك؟»

فالتفت أبي إلى اللوحة، وقال: «ليست سيئة. لم يمض أكثر من يومين منذ أن بدأت، وما زال أمامي المزيد من العمل، أتريد أن تلقي نظرة؟»

فقلت: «أجل.»

فقال: «إذن، تعال.»

تقدمت. اجتزت اللوحة المثبتة على الحامل، ووقفت إلى جوار أبي، ونظرت إلى اللوحة. كان التصميم يبدو مختلفًا تمامًا عما كنت قد رأيته آنفًا. لقد رأيت رسمًا خطيًا لعدد من الصبية كانوا يجلسون قرب نول خشبي، ويباشرون عملهم. وكان من بينهم صبي قد أدار رأسه، ويرمي بنظره

خارج اللوحة. كان صبيًا أملس الرأس، بوجه عظمي أعجف، وعنين مدورتين وغائرتين، وبدت نظرته تلك وكأنه يحاول أن يقول شيئًا للناظر إلى اللوحة. هكذا صدمتني رؤية اللوحة. كما لو كان هذا الصبي نفسه رضا قلي، أو شكورًا، أو أيًا من الصبية الآخرين العاملين في منسج السجاد. وكانت أوراق رضا قلي ميرزا تُرى في كل مكان باللوحة كخليفة فاتنة. لقد استغلق عليّ الكلام، ولم أستطع أن أقول شيئًا. أما أبي الذي ظل ينتظر مني أن أتكلم، وأبدي رأيي، ما لبث أن قال: «ما رأيك؟»

فتحت شفتي بالكاد، وقلت: «هذه... هذه اللوحة رائعة للغاية!»

فقال أبي: «حقًا؟»

فقلت: «صدقًا أقول، إنها رائعة للغاية، بل أفضل بكثير من تلك الأخرى.»

فقال أبي: «لقد نبذت القديمة تلك. إنني رسمتها بالتأكيد بناء على طلب من الزبون، ولكنني سوف أرد إليه المبلغ الذي كنت قد تقاضيته منه مُقدمًا. فبالطبع سوف أتمكن من بيع هذه اللوحة أيضًا، لكن الأمر حاليًا أصعب قليلًا. ما يهمني حقًا هو أنني فعلت شيئًا من أجل أولئك الصبية.»

وفي حين كنت أتأمل اللوحة، قلت: «إنها رائعة جدًا، يا أبي.»

فقال أبي: «مذ أن شرعت في قراءة المذكرات قبل بضعة أيام، رأيت أنه لا يمكن تجاوزها بمثل هذه السهولة، فقررت أن أرسم شيئًا آخر طرأ على ذهني فجأة، وسوف أسمي هذه اللوحة نقوشًا على سجادة صغيرة.»

فقلت: «رائع، رائع للغاية.»

وعندما نظرت إلى أبي، رأيته متحمسًا. كان وجهه محمرًا، وعيناه مغرورقتين بالدموع. فكلما كان أبي يتحمس لشيء، لا يتمالك دموعه. فتحت ذراعي، وعانقته. غالب أبي دموعه، وقال: «لقد قلت إن ثمة أشياء ينبغي لها أن تتغير.»

سحب أبي نفسًا عميقًا، وأردف: «أعطني تلك الكتابات التي كنت قد دونتها بخط يدك، كي أعطيها صديقًا لي يعمل كاتبًا. سيكون من الأفضل أن تتحدث إليه بنفسك أيضًا. إنه مغرم بالأعمال التاريخية كثيرًا. ومنذ سنوات يريد أن يؤلف رواية تجسد الألم والمعاناة الإنسانية، وتفيض بمشاعر الحزن والسعادة والغموض والاستفهام على حد سواء. رواية يمكن لها أن تغير شيئًا ما في مكان ما. يقول إنه لم يستطع حتى الآن كتابة مثل هذه القصة، لذا فإنني سوف أعطيه هذه الأوراق، ربما يمكنه أن يستوحي منها شيئًا.»

--٢١

مكثت ذلك اليوم حتى قرب غروب الشمس بركن مظلم في مخزن المحل وسط حِزم وطاقات الأقمشة. ولم يأت أحد إلى المكان، اللهم إلا ألماس نفسه الذي تفقدني نحو ثلاث مرات، وفي إحدى المرات أحضر لي بعض الماء. وقد أمسى جسده الهزيل، ووجه القبيح الأسود يمثل لي في تلك الساعات الطوال مبعثًا على الأمان والطمأنينة. كانت وظيفته على ما يبدو في الظاهر هي نقل أقمشة المخزن، والاعتناء بالدكان، وتوفير ما يلزمه. وفي كل مرة كان يأتي فيها يسألني بضعة أسئلة، فأجيبه. لقد قلت له في أي مكان أعمل. وقلت إنني قد اكتشفت أنني قد اختطفت من أبي وأمي. وقلت إنني سوف أذهب إلى عائلتي. وقلت إنني كنت أملك مالًا ولكنهم قد أخذوه مني. ومع ذلك كان ألماس لا ينفك ينظر إليّ نظرة ملؤها الشك والريبة، وينصرف. وفي إحدى المرات تحدث هو الآخر عن نفسه. فقال إن الحاج صاحب المحل يوليه ثقته. وقال إنه لا يريد أن يظن الحاج أنه كان يأوي اللصوص في محله. أما أنا فكنت في كل مرة أقسم له أني لست لصًا، وأن كل ما قد قلته صحيح. ثم إنني التمست منه أن يسمح لي بالمبيت في المحل تلك الليلة على أن أذهب في الصباح. وقلت إنني عازم على الذهاب إلى الميرزا حسن خان رشدية. كنت آمل أن تكون مسامعه قد أدركت اسم الميرزا حسن خان غير أنه لم يسمع، وينتبه. فقلت إنه صديقي، وسوف يساعدني كي أعود إلى بلدتي وداري. كذلك قلت إنني لا أملك نقودًا غير أنني على يقين من أن الميرزا حسن خان سوف يمنحه مكافأة كبيرة من لدنه. كنت آمل أن يلين جانب ألماس مع سماعه كلمة مكافأة، فيمد لي يد العون. لكنه ابتسم ابتسامة تنم عن سخرية، وقال: «ليس ألماس من يساعد أحد من أجل المال.»

ثم قال: «انتظل هنا حتى الغلوب، لنلى ما سيحدث.»

وفي عتمة المخزن لم أعد أميز الظهر عن المغرب، إذ كان عليّ أن أنتظر فحسب. هكذا جلست متكئًا إلى حزم الأقمشة وقد ضممت ركبتي إلى صدري. أغمضت عيني، وفكرت فيما توالى عليّ من أحداث منذ ما يقرب من شهرين أقمت خلالهما في قصر نُويان خان. فبدا كل شيء مثيرًا للدهشة. بداية من وصولي إلى طهران، وذهابي إلى قصر نُويان خان بأجوائه المخيفة والمروعة، وصداقتي مع شكور، ثم غرق شكور وعودته من جديد، ورؤية عالم الموتى بكل ما كان فيه من وحشة ورهبة، واكتشاف سر مجيئي، إلى أن انتهى بي المطاف الآن مختبئًا في أحد أركان هذا المخزن. رحت أشعر أن قلبي لا يسعه تحمل كل هذه الحوادث المتتابعة. كنت قد أُصبت بالحمي، فارتفعت حرارة جسدي، وبات كل موضع في جسدي مثخنًا بالآلام. ومع أني كنت قد تجرعت كوب الماء الذي كان ألماس قد أحضره لي حتى آخر قطرة، كنت لا أزال عطشان.

أطبقت جفني وحاولت أن أسترخي. حينئذٍ تذكرت شكورًا، فتحرقت شوقًا إليه، وخالط نفسي أسى عميق؛ لكنني بعد ذلك ما لبثت أن تذكرت آخر ما قاله لي، إذ قال: «سوف أدعو لك.» وآمنت يقينًا أن دعاء شكور سوف ينير دربي، ويساعدني لأعثر على طوق النجاة. فكرت في قرارة نفسي أن شكورًا إنما عاد ليروي لي قصة مجيئي إلى قصر نُويان خان، ويكأنه كان يريد أن يقول لي إنني لم أُبع. وربما لو كان الصبية الآخرون أصغوا إلى كلامه، لأخبرهم هم أنفسهم بأشياء لم يكونوا يعرفونها عن حيواتهم.

ثمة أشياء كثيرة لا نملك أن نراها، أشياء كثيرة تبدو كما لو أنها قد توارت خلف جدار عالٍ

وبإمكان شخص مثل شكور أن يخبرنا بها. أشياء كثرة للغاية تحدث من أمامنا أو من خلفنا، غير أن ظلها يُرى في مكان آخر، حيثما كان شكور واقفًا. تمامًا مثل جهاز السينما توجراف، حيث كانت بعض الأحداث تجري من خلفنا، وكان الضوء المُسلط عليها القادم من بعيد يسقط على مكان ما بالجدار، فنرى نحن ظلالها. ومثل رسوم الظل التي اعتاد رمضان أن يصنعها على الجدار، فرغم أنه كان يجلس عند الجدار الخلفي يحرك يديه تجاه ضوء المصباح، كانت ظلال يده تظهر على الجدار المقابل له على شكل فأر أو أرنب أو ثعلب. فكرت في قرارة نفسي أنني يجب أن أستدير وأنظر خلفي، ليتسنى لي إدراك ماهية الظل الذي سقط على الجدار، وإلا فإنني لن افهم شيئًا أبدًا. فكرت في أن كل إنسان منا ربما توافيه لحظة ما قد تكون في حياته أو بعد وفاته، سوف يتمكن فيها من أن يرفع عينيه عن جدار السينما توجراف الكبير المضيء، وينظر إلى ما يدور خلف الفتحة، ويفهم جوهر القصة.

وبينما كنت غارقًا وسط هذه الأفكار، غشي ألماس المكان. تمنيت أن يخبرني أنه سيكون بإمكاني البقاء في المخزن طوال الليل، لكنه عوضًا عن ذلك قال: «لقد حل الغلوب، انهض، انهض واخلُج.»

فنهضت، وقلت: «أناشدك بالله أن تدعني أبات ليلتي هنا، وأذهب في الصباح.»

فقال ألماس: «لا يمكن، لئن عرف الحاج أنني قد أحضلت شخصًا إلى هنا، فسوف يستاء مما فعلت، ويغضب.»

فقلت متوسلًا: «هذه الليلة فقط.»

فقال: «لا تخف، فإنني لن أتلكك، سأصحبك إلى مكان آخر.»

فور أن سمعت كلامه انفرجت أساريري، وسرعان ما سرت بجانبه دون حتى أن أنبس ببنت شفة. خرجنا من المحل معًا. وأمام الباب طلب مني ألماس أن أبقى في مكاني، ثم ذهب هو. ومن أمام الباب أخذت أتأمل المحال الأخرى التي كانت ما بين مغلقة، ومتوقفة عن حركتي البيع والشراء. وكان الجو شبه مظلم، وحركة ذهاب الناس وإيابهم قد تراجعت. لم يكد يمضي بي الوقت، حتى تقدم ألماس أمام باب المحل ومعه عربة يجرها حصان. كان ممسكًا بزمام الحصان، ويجره خلفه. ثم نظر حوله قليلًا، وقال: «هيا الكب، واستلق في ألضية العلبة.»

ركضت بسرعة، وأمسكت بالقائم الجانبي للعربة، وركبت، ثم رقدت في أرضية العربة. وعما قليل سحب ألماس بساطًا صوفيًا من مؤخرة العربة، وأسدل هذا الغطاء عليّ. ثم بدا الأمر كما لو أنه ذهب، ليقفل باب المحل. وسرعان ما سارت بنا العربة. ومخافة أن تخرج يداي وقدماي من تحت البساط، ويراني أحد تكورت على نفسي، ثم ثنيت مرفقي، وتوسدت ذراعي. ومع ارتجاج العربة في أثناء السير، استغرقت في النوم. ولما استيقظت كانت العربة قد توقفت، فأزاح ألماس عني البساط، وقال: «انهض، ها قد وصلنا.»

عندما نهضت، وجلست في مكاني، كان الجو مظلمًا. نظرت خلفي، فوجدت أن العربة قد توقفت أمام باب خشبي ذي نوافذ زجاجية كبيرة في زقاق منعزل، وكان يُلمح من خلف الزجاج نور بعض المصابيح. قال ألماس: «لم تنتظل؟ هيا انزل؟»

ولما ترجلت من العربة، قال لي ألماس وهو يطوي البساط، حتى يضعه في العربة: «ادخل، حتى

آتي.»

دفعت الباب الموارب برفق، ودلفت إلى المكان. وفي بصيص الضوء الخافت للمصابيح، رأيت أمام الباب طاولة، كان موضوعًا عليها سَّماوَر([52])، وإبريق شاي، وبعض الاستكانات. كانت هناك أيضًا دكك خشبية تحيط بجدران المكان قد جلس عليها عدة أشخاص يحتسون الشاي، ويدخنون الشيشة. كان كل شيء يوحي ظاهره بأن هذا المكان مقهى، لكنه في الوقت نفسه كان مختلفًا عن أي مقهى آخر قد رأيته في حياتي. إذ كان كل هؤلاء الجالسين على الدكك تمامًا مثل ألماس سوداويي البشرة، سوداويي البشرة ونحيلي العود أيضًا. ولقد باغتتني الصدمة عند رؤية هذا المشهد أمامي. تراجعت خلفًا، كي أستدير وأخرج، وإذ بشخص ما يرفع رأسه من خلف الطاولة أمام الباب، ويقول: «تفضل، ماذا تُليد؟»

كان هو الآخر أسود البشرة، قصير القد، نحيل الجسد، وكان ذا شفتين عريضتين، وعينين تجنحان إلى البياض تبرزان في صفحة وجهه الفاحم. لم أكن أدري ماذا يجب أن أقول، إذ كنت قد تخشبت في مكاني، وقد اعتُقل لساني. وبينما كنت أبحث عن أي شيء أقوله، جاء ألماس من خلفي، ودفعني برفق نحو الطاولة، وقال للشخص الذي كان واقفًا خلف الطاولة: «هذا الصبي سوف يبيت تلك الليلة هنا، وفي الصباح الباكر سوف أوافيه.»

ثم ربت على كتفي، وقال: «لا تخف، ستكون بمأمن هنا. هذا الفتي يُدعى قَنْبَلًا، إذا ألدت شيئًا، اطلبه منه في الحال.»

ثم التفت ثانية إلى الرجل الأسود خلف الطاولة، وقال: «قدم له طعامًا، فإنه لم يسد لمقه بشيء منذ الصباح.»

ثم ودعني، وغادر. تلبثت في موضعي، إذ لم أكن أعرف ماذا يجب أن أفعل. جلت بنظري في المكان، حيث كان هؤلاء السود قد جلسوا على الدكك الخشبية ينظرون إليّ خلسة. هكذا تلكأت قليلًا، حتى أشار الرجل الذي كان خلف طاولة السماور إلى الدكة الشاغرة، وقال: «اذهب، واجلس على تلك الدكة الشاغلة.»

ثم أردف: «هلا تناولت بعضًا من كشك الباذنجان([53])؟»

ولما لم أكن قد تناولت شيئًا حتى ذلك الحين، وقد فهمت من الاسم الذي ذكره أنه صنف من الطعام، قلت: «أجل.»

ثم ذهبت وجلست على الدكة، ورحت أطوف بنظري وأتفقد المكان من حولي، حيث كانت الجدران تزدحم بلفائف الثوم([54]) والخرزات الزرقاء الكبير منها والصغير، كما قد عُلق على الجدار المقابل كشكول، وطبر لدرويش.([55]) كما كان هناك لوحة كبيرة تبرز صورة حضرة الإمام علي وابنيه الإمام الحسن، والإمام الحسين جالسين على الأرض، ويقف بجانبهم شخص ما. كان هذا الشخص أسود اللون كألماس، ويرتدي ثوبًا طويلًا، ويضع على رأسه قبعة طويلة مستديرة. ثم نظرت إلى هؤلاء الجالسين على الدكك هؤلاء الذين كانوا جميعًا يشبهون ألماس جدًا. كانوا يحملقون إليّ أيضًا. وفور أن يلمحوني أنظر إليهم، يثبتون أعينهم نحو الأرض. كما لو كانوا يخجلون من النظر إليّ. كان بعضهم يأكل، في حين كان بعضهم الآخر يدخن الجبق والشيشة. ولم يكد يمضي الوقت، حتى أحضر صاحب المقهى صينية كبيرة، ووضعها أمامي.

كان على الصينية طبق من كشك الباذنجان، مع الخبز، والبَقْل، والبصل، وكاسة ماء. تذكرت فجأة كم أنا جائع، فمددت يدي إلى رغيف الخبز عفويًا، وتناولت قطعة منه، لآكل. عندئذٍ لمحت رجلين أسودين يرمقانني من على الدكة المقابلة. لا أدري حينها أوضعت الخبز في مكانه خوفًا أم خجلًا منهما، وفي الوقت ذاته هتف أحدهم من دكة بعيدة في زاوية المقهى قائلًا: «كريم، أهذا أنت يا عزيزي؟»

نظرت إليه. كان يجلس في مكان مظلم، فلم استبصر وجهه جيدًا. لكن ملابسه كانت تختلف عن بقية الآخرين. ففي حين كان جميع هؤلاء السود يرتدون أثوابًا طويلة بيضاء اللون، لم يكن ثوبه أبيض. وعندما وجهت بصري إليه، ارتجف مبغوتًا، وقام. ولما نزل عن الدكة وتقدم خطوة مني، استبينت وجهه. لم يكن أسود البشرة. كان رجلًا هرمًا يرتدي قباءً طويلًا بني اللون، وذا شعر شائب طويل، ولحية بيضاء قصيرة، وكان لون بشرته يشبه لون بشرة جميع من سبق أن رأيتهم في طهران. كان لا يزال يحملق إلي من بعيد، ثم ما لبث أن اقترب، ومرة ثانية قال: «كريم؟!»

فقلت: «أنا لست بكريم هذا.»

فنظر إليّ من كثب، ثم زفر تنهيدة، وقال: «ظننتك كريمًا، ابني.»

نظرت إليه واجمًا. فتنهد الرجل الهرم مرة ثانية، وهز رأسه، وقال: «يا للعجب، كنت تشبه كريمًا من بعيد!»

ثم جلس بهدوء على حافة الدكة، وتأمل وجهي، ثم قال: «ما اسمك؟»

فقلت: «رضا.»

فحملق إلى وجهي قليلًا، ثم أشار إلى صينية الطعام، وقال: «كُل يا رضا، كُل، إن كشك الباذنجان الذي يعده قنبر شهي للغاية، كُله قبل أن يبرد.»

التقطت قطعة الخبز التي كنت قد تركتها، وغمستها في طبق كشك الباذنجان، والتقمتها. ولما امتزج الطعم الطيب للباذنجان مع البصل داخل فمي، نشطت واستردت عافيتي. ولم أكد أبتلع اللقمة الأولى، إلا وأردفتها بلقمة ثانية. ضحك الرجل الهرم، وقال: «ها... أرأيت؟ أرأيت كم هو شهي؟»

هززت رأسي، وقلت: «أجل، إنه طيب.»

فقال الرجل الهرم: «إذن كُل، كُل قدر ما تشتهي.»

ثم سألني: «من أين أنت؟»

فقلت: «من قرية سلطان آباد، ساوة.»

فقال مستغربًا: «وماذا تفعل في طهران؟»

فقلت: «كنت أعمل، لكنني سوف أعود إلى بلدتي وبيتي غدًا.»

فقال: «وأنى لك معرفة ألماس؟»

فقلت: «رأيته اليوم في البازار. كنت أبحث عن مكان أمكث به هذه الليلة، فجاء بي إلى هنا.»

تحرك الرجل الهرم قليلًا على الدكة، وتأمل قسمات وجهي، ثم همس قائلًا: «كم تشبه كريمًا!»

نظرت إلى الرجل الهرم. كان وجهه قد احمر احمرارًا، وشفتاه ترتعشان. أردت وقتئذٍ أن أقول أي شيء، لكنه لم يمهلني، إذ ضحك، وقال: «لا بد أنك تتساءل الآن في قرارة نفسك، لماذا الجميع هنا أسود اللون، أليس كذلك؟»

هززت رأسي، بما يعني بلى. فقال الرجل: «هذا المكان اسمه مقهى قَنْبَر، هل سمعت به من قبل؟»

هززت رأسي يمينًا ويسارًا، وقلت: «لا.»

فقال: «قَنْبَر الشخص الواقف خلف منضدة البيع ذاك الذي أحضر لك الطعام. هو صاحب هذا المكان. ولقد باشر العمل في هذا المكان، وأداره منذ سنوات. إنه أسود اللون، كما أن كل الذين يرتادون هذا المقهى من السود أيضًا. هل سبق أن سمعت بالزنوج؟»

ابتلعت اللقمة، وقلت: «كلا.»

أشار الرجل الهَرِم إلى البقل في الصينية، وقال: «كُل الخضار، إنه أفضل ما تأكله مع كشك الباذنجان.»

ثم أردف قائلًا: «إن هؤلاء الزنوج ينحدرون من سلالة العبيد السود الذين قد قدموا إلى بلادنا قبل نحو ثمانين عامًا، حيث كانوا يُباعون ويُشترون. أما أصولهم وجذورهم فتمتد إلى الحبشة وزنجبار.»

فقلت: «وأين الحبشة وزنجبار هذه؟»

فقال: «منذ زمن بعيد للغاية كانت مملكة كل سكانها يتوارثون سواد البشرة أبًا عن جد. في البداية كان الفرنجة يذهبون إلى مملكتهم، ويأسرون منهم ما يأسرون، ويحملونهم على السفن،ويجلبونهم، ليبيعوهم للتجار العرب. كما كانوا يجلبون بعضهم أيضًا إلى هنا لدينا إلى مدينتي بوشهر وجمبرون، ليبيعوهم إلى التجار والموسرين في البندر. كذلك فإن بعضهم قد توافد على مدينة طهران. والآن يعمل معظمهم إما في بيوت الأعيان، أو في المحال التجارية بالبازار. إن طبيعة أجساد هؤلاء المساكين عبيد الله لا يمكنها أن تتكيف مع المناخ الجوي المختلف في بلاد الغربة، وسرعان ما يفت المرض في أعضادهم. لهذا السبب فإن أعمارهم في العادة لا تتجاوز الأربعين عامًا، وعادة فإنهم لا يكادون يتخطون الأربعين من عمرهم، حتى يسلموا أرواحهم صريعي أحد الأمراض. ومع كل هذا فإن وضعهم ها هنا أفضل بكثير من أقرانهم في الأماكن الأخرى. إذ إن وضع بعض أقوامهم ممن قد انتهى بهم المطاف في بلاد أخرى يبدو غاية في السوء، وقد وصلت أخبارهم إلى هنا وشاعت. لهذا فإنهم قد ارتضوا لأنفسهم أن يقصدوا بلادنا.

لدرجة أنهم الآن على الرغم من أن عادة بيع وشراء هؤلاء قد بطلت منذ مدة، لا يزالون يقيمون بيننا، ويمارسون أعمالهم، ولا يرضون مغادرة بلادنا والذهاب إلى أي مكان آخر. لكنهم في النهاية يواجهون صعوبة في الاختلاط والاندماج مع الناس، ألم تسمعهم وهم يتحدثون؟»

فقلت: «بلى.»

فقال: «إن عبيد الله هؤلاء لا يمكنهم التحدث بلغتنا جيدًا، إذ لا تنساب بعض الكلمات من أفواههم بمنطوقها الصحيح، مما يجعل بعض الوقحاء يسخرون منهم. مثلما أنهم عرضة للاستهزاء بسبب لون بشرتهم الأسود، وبنيتهم الجسدية النحيلة الضئيلة. وهذا ما دفع قنبر قبل عدة سنوات لأن ينشئ لهم هذا المكان، لكي يرتاده هؤلاء أعييياء اللسان ناقصو البيان ويجلسوا مع بعضهم يحتسون الشاي، ويتناولون الطعام، ويدخنون الشيشة. يكونون هم أنفسهم قادرين على أن يتجاذبوا مع بعضهم أطراف الحديث، ويتفاكهوا، ويضحكوا من قلوبهم دون خوف من تمسخر واستهزاء. و كل ليلة جمعة يعقدون مجلسًا، ويتوسلون([56]) بقَنْبَر، غلام أمير المؤمنين، هل سمعت بقنبر من قبل؟»

قلت:«كلا.»

أشار إلى الصورة الكبيرة المعلقة على الجدار، وقال: «كان قنبر غلام سيدنا علي، كان أسود اللون، لكن سيدنا كان يعامله كأحد أولاده. كما كان قنبر يحبه حبًا جمًا، لدرجة أنه عندما استشهد الإمام علي، انفطر قلب قنبر، ومات كمدًا. والآن فإن هؤلاء القوم كل ليلة جمعة يتوسلون بقنبر ويتمنون أن يعدهم أمير المؤمنين هم أيضًا من مواليه.»

ثم التقط أنفاسه، وقال: «خلاصة القول أنهم أناس نبلاء، طيبون، مسالمون، حتى إن درويشًا وحيدًا مثلي يجد أن محادثتهم و مجالستهم خير من مخالطة خبثاء هذا الزمان.»

فقلت: «لكنك لست وحيدًا، لديك ابن، كريم.»

تنهد الدرويش عن كبد حريّ، وقال: «كان لدي... لقد أسلم روحه.»

فقلت مفزوعًا: «مات؟!»

قال: «أجل... هل سبق أن تضورت من شدة الجوع؟»

فقلت: «كثيرًا.»

فقال: «ولكن ليس إلى حد أن تموت. لقد مات ولدي كريم وأمه جوعًا في عام المجاعة.»

تركت آخر لقمة كنت قد تناولتها، فانتبه الدرويش، وما لبث أن قال: «كُل، كُل.»

فقلت: «لقد شبعت.»

فقال: «كُل، أكمل طعامك.»

وأردف: «عندما أتيت، خلتك كريمًا ولدي.»

ثم ضحك، وقال: «إنه لأمر مضحك،ظننت أنك قد أتيت من العالم الآخر.»

ثم بدا وكأنه تحدث إلى نفسه بشيء قبل أن يتنهد، ويقول: «لا شيء يعود من العالم الآخر... لا شيء.»

تناولت آخر لقمة، ثم انصرفت عن تناول الطعام. عندئذٍ قام قنبر من خلف طاولته، وتقدم نحوي، وقال: «أشبعت أم أحضل لك المزيد؟»

فقلت: «بل قد شبعت.»

فقال: «هلا تناولت كوبًا من الشاي؟»

كنت أشتهي حينئذٍ قدحًا من الشاي، وقد صار عندي يعدل مأدبة ملكية بأكملها. سكت خجلًا، ولم أقل شيئًا، فأجاب الرجل الهرم نيابة عني قائلًا: «أحضره له يا قنبر. وإن كان لديك بعض الفطير الحلو أو الكعك أو شيء من هذا، فهاته أيضًا، لتمتلئ معدته تمامًا، ويشعر بالتخمة، فلا يجوع حتى الصباح. »

ضحك قنبر هو الآخر، ومضى. أما أنا فأخذت أتأمل الرجال السود من حولي الذين كانوا قد جلسوا على الدكك، ويتناجون مع بعضهم، وبين آن وآخر يضحكون، ويهزون رؤوسهم. ثم سألت الرجل الهرم: «هل يعيشون في هذا المكان نفسه؟»

فقال الرجل الهرم: «بالنسبة لبعضهم نعم، وللبعض الآخر لا، فالبعض منهم الآن يعمل لدى السادة والأرباب، وأحيانًا ما يأتي إلى هنا، لينال قسطًا من الراحة. وبعضهم لديه أسرة يعولها، وقد تمكن أخيرًا من أن ينشئ لهم بيتًا صغيرًا متواضعًا يأويهم تحت سقفه. أما بعضهم الآخر فيمضي في إثر عمله نهارًا، ويأتي إلى هنا ليلًا، لينام.»

فسألته: «وهل لدى ألماس بيت؟»

فقال الرجل الهرم: «كلا،كان لدي ألماس بيت خاص به، ولكن منذ فترة صار هذا المكان بيته مرة أخرى.»

فقلت: «ماذا تقصد؟»

فقال: «إنها قصة طويلة، هل تملك مزاجًا لتسمعها؟»

فقلت: «أجل.»

فقال: «جيد، هكذا لن تشعر بالسآمة والملل، كذلك أنا. ففي النهاية لا بد أن نقضي ليلتنا هذه بطريقة أو بأخرى.»

ثم التقط نفسًا، وقال: «ألماس هذا أحضره معه أحد تجار مدينة بوشهر كهدية للحاج محمد حسين، وقدمه إلى الحاج. وكان ألماس قد قدم إلى طهران مع جارية سوداء اسمها عنبر، وقد قدحت شرارة الحب في قلبيّ ألماس وعنبر مذ أن كانا في بوشهر نفسها، وفي الطريق من بوشهر إلى طهران تأججت العاطفة بينهما. غير أن هذا التاجر من بوشهر في نهاية الأمر أهدى ألماس إلى الحاج محمد حسين، وأهدى عنبر إلى أخي الحاج يعني الحاج محمد حسن بائع السجاد، فانفصل هذان الحبيبان عن بعضهما. لقد ملك الحب شغاف قلبيهما وتمنى كل منهما الاقتران بالآخر، حتى ذاع خبرهما في كل مكان، كما كان الحاج محمد حسين نفسه على علم بهذا الأمر. حتى ذات يوم أصيب طفل الحاج محمد حسين الأصغر بداء التيفويد. خلاصة القول أن هذا الطبيب وذاك كلهم قد قطعوا الرجاء من شفائه، وأخبروه أن ابنه الصغير هالك لا محالة، ولا حيلة لإنقاذه. حينئذٍ نذر الحاج محمد حسين نذرًا إذما شفى الله ولده، فإنه لن يكتفي بمنح ألماس حريته فحسب، بل سوف يشترى عنبر هي الأخرى من أخيه، ليتسنى لهما الزواج، والعيش معًا. لا أريد أن أثقل رأسك، شاء الله وشُفي الصبي، وتعافى من مرضه. ولم يحنث الحاج

بوعده، ووفى بنذره الذي كان قد نذر. هكذا نال ألماس وعنبر حريتهما، وتزوجا.

وقد ابتاع الحاج لهما بيتًا صغيرًا ظريفًا في حي سر آسياب دولاب، ومنحه لهما. وقال لألماس أنت حر من الآن فصاعدًا؛ أما إذا أردت، فيمكنك أن تأتي إلى محلي، وتعمل لدي على أن تتقاضى نظير ذلك أجرتك. ومثلما طلب ألماس من الله، أصبح عاملًا أجيرًا لدى الحاج. والحق يُقال كان يتفانى في عمله، وكان الحاج أيضًا راضيًا عنه. هكذا عاش ألماس وعنبر حياة لا يشوب صفاءها كدر. ومضت أيامهما سعيدة هانئة، إلى أن ذهبا معًا ذات ليلة سبت إلى ينبوع علي من أجل أن يستمتعا، ويروِّحَا عن نفسيهما.»

فقلت: «أين يوجد ينبوع علي؟»

أمال الدرويش رأسه جانبًا، وقال: «خارج طهران، مكان حلو بهي يقصده الناس من أجل الاستجمام والاستمتاع، حيث مناظر الطبيعة الخلابة من مياه، وجبال، وأشجار. موجز الأمر أن هذين العاشقين الشابين ذهبا، ليتنزها في أرجاء ينبوع علي. لكن لسوء طالعهما، فبينما كانا يصعدان إلى الجبل، زلت قدم عنبر، وسقطت من الجبل، وارتطم رأسها بإحدى الصخور، فهلكت. وليس مع ما كانت عليه من الضعف والوهن، إلا أن ينتهي أمرها في الحال.»

فقلت بنبرة ملؤها الأسى: «أتعني أنها ماتت؟»

قال: «نعم، ماتت المسكينة أمة الله، ومبكرًا هكذا خلفت ألماس وحيدًا في مقتبل حياتهما. باختصار فإن ألماس منذ تلك الليلة لا ينفك يبكي عنبر، وقد ترك منزله وحياته، وجاء إلى هنا، ورفض العودة إلى منزل الحاج مرة ثانية. وكل ليلة سبت، يذهب بنفسه إلى ينبوع علي، ويجلس إلى جانب تلك الصخرة التي كان رأس عنبر قد ارتطم بها، ويتحدث إليها.» ثم أشار الدرويش إلى الأمام، وأراني طاولة قنبر، وقال: «أترى تلك الزهرة في ذاك الإناء الزجاجي؟»

كانت ثمة زهرة بيضاء ذابلة داخله، فقلت: «تلك الزهرة البيضاء؟»

فقال: «فتح الله عليك. لقد أحضرها ألماس معه، فكل ليلة سبت عندما يذهب إلى ينبوع علي يرى زهرة بيضاء قد نبتت بجانب الصخرة التي قد اصطدمت رأس زوجته بها. فيظن المسكين بفطرته الساذجة أن عنبر قد وضعت تلك الزهرة في هذا المكان من أجله، فيقطفها، و يحضرها معه، ليضعها في هذا الإناء، إلى أن يحين الأسبوع التالي، فيعود مرة أخرى ليحضر زهرة غضة جديدة، ويضعها مكان الزهرة التي كانت قبلها والتي تكون قد ذبلت بدورها. جملة القول أن ألماس يمضي أيامه ولياليه على هذا المنوال.»

حزنت لسماع تلك القصة المأساوية لألماس. وغص في حلقي البكاء، لدرجة أنني لم أعد أسمع ما يقوله الرجل الهرم. كنت أفكر في حياة ألماس ورفاقه فحسب.

وفي تلك الليلة تمددت على الدكة في المقهى مثقلًا بهذه الأفكار. وفي آخر الليل أقفل قنبر باب المقهى، وأغلق كل المصابيح في الداخل ما عدا واحدًا. وفي ضوء ذلك المصباح، أخذت أتأمل اللوحة التي أمامي، حتى غلبني النوم.

في وقت مبكر من الصباح، إذ لم يكن النور قد بزغ بعد صحوت على صوت رجل أسود اللون يصلي على الدكة التي كانت بجانبي. فنهضت من نومي، وجلست على الدكة. كان الجميع قد استيقظ ما خلا نفرين، وأخذوا جميعًا يتأهبون للخروج. أدرت عيني في المكان، لأرى أين

الدرويش، بيد أنه لم يكن هناك. كان قنبر خلف طاولة المقهى يرص الخبز والجبن في أطباق منفصلة، ويتجه بها إلى الدكك. كما أحضر لي طبقًا ومعه استكانة شاي. وعندما وضع الصينية على طاولتي، قال: «لئن أَلَّدت أن تغسل وجهك، فالماء هنالك بالخلف.»

قمت، وغسلت وجهي، وعدت إلى مكاني. وعندما عدت رأيت ألماس واقفًا أمام الطاولة يضع زهرة بيضاء في الإناء. ألقيت عليه التحية، فابتسم لي وقال: «هل نمت جيدًا ليلة البالِحة؟»

فابتسمت أنا الآخر، وقلت: «نعم، نمت جيدًا للغاية.»

فقال: «أسلِع، يجب أن أوصلك أولًا، قبل أن أمضي في إثل عملي.»

ثم أشار إلى طبق الجبن والخبز، وقال: «خذ هذا أيضًا واحضِلْه معك، فليس هنالك وقت لنتناول الطعام هنا.»

فقلت: «حسنًا.»

جلست على حافة الدكة، وحشوت رغيف الخبز بالجبن، ولففته، وأخذته معي. أما ألماس فتقدم نحو طاولة قنبر، ورأيته وقد أخرج بضع عملات من صرة كانت في يده، فوضعها على الطاولة، ثم التفت نحوي، وقال: «لقد قلت إنك تُليد الذهاب إلى بوابة قزوين، إلى بيت من؟»

فقلت: «إلى بيت الميرزا حسن خان رشدية.»

فقال: «آها... اذهب، والكب، ريثما أجيء.»

فقلت: «حسنًا، سأفعل.»

فما كدت أتجاوزه، وأخرج، حتى قال: «انتظِل.»

فوقفت، ونظرت إليه. حينئذٍ مد يده إلى كيسه الصغير، وأحصى بعض القطع النقدية، وقال: «تعال، خذ هذه النقود، فلبما لا ينوي ذلك الميلزا حسن خان أن يدفع لك أُجلة الطليق، أو لا يملكها أصلًا، حتى يدفعها لك.»

لبضع لحظات حدقت إلى وجهه الأسود وعينيه البيضاوين، لم أصدق أنه قد وثق بي إلى هذا الحد. وإنه أيضًا بدا وكأنه قد قرأ أفكاري، إذ قال: «ليلة أمس سألت عنبل: أأنت كاذب أم صادق، وقالت إنك صادق.»

فقلت مشدوهًا: «سألت عنبر؟!»

فقال: «أجل، عنبل زوجتي.»

ولم أكد أقول شيئًا، حتى رأيت أن بياض عينيه قد صار قرمزيًا. ووقتئذٍ أطبق شفتيه على بعضهما، وربت على كتفي، ثم قال: «اذهب، اذهب، لئلا نتأخل.»

عندما غادرت المقهى، كان الجو لا يزال مظلمًا. غير أن صوت صياح الديك القادم من مسافة قريبة، راح يبشر بحلول الصباح. في حين كانت نسمات الهواء الباردة في تباشير الصباح الأولى تنعش المرء، وتمنحه النشاط. صعدت إلى العربة، وجلست وسط طاقات الأقمشة التي كان ألماس قد حملها إلى العربة. وعلى حين غرة لمحت في هذا الجو المضبب خيال رجل كان قد

اتكأ إلى جدار المقهى، ويقف ساكنًا بلا حراك. ولما تقصيت النظر، فطنت من لحيته البيضاء إلى أنه الدرويش نفسه. ألقيت عليه السلام، بيد أنه لم يرد. بدا وكأنه شارد الذهن، فلم ينتبه لي، ويسمع صوتي. كان يحدق إلى الفراغ الممتد أمامه. وددت حينها أن أنزل من العربة، وأروي له كل ما قد رأيته برفقة شكور، لكن لم تكن هنالك فرصة لذلك. وما هي إلا أن صعد ألماس إلى العربة، وقال: «من الأفضل أن تتمدد على ألضية العلبة.»

أشحت بنظري بعيدًا عن الدرويش، وتمددت بين طاقات القماش، وفرد ألماس البساط الذي كان إلى جانبه، وغطاني به.

٢٢--

عادة ما تكون شوارع طهران مزدحمة للغاية أيام الخميس، ويشتد هذا الازدحام في محيط البازار أكثر. وهذا ما كنا قد نسيناه تمامًا، ففي وقت مبكر نسبيًا من الصباح انطلقنا بسيارة أبي آملين أن نصل إلى القصر قبل حلول الساعة التاسعة. وحتى قبل وصولنا إلى نواحي البازار كان كل شيء يسير وفقًا لما خططنا له. كنت جالسًا في المقعد الأمامي للسيارة إلى جانب أبي أفكر في أحداث قصة رضا قلي ميرزا. كنت أفكر في كيفية مجيئه إلى طهران وكيفية هروبه. وكم وددت لو أرى أيضًا مقهى قنبر، لكني مع ما قد قمت به من بحث وتحرٍ علمت أنه لم يعد له أثر. طالما اعتقدت أن أعظم مساعدة قدمها قنبر نفسه إلى رضا هي أنه كان السبيل الذي أوصله إلى بيت الميرزا حسن خان، ما جعله يرحل إلى داره بعون من الميرزا. كان رضا قلي ميرزا قد كتب في مذكراته أن الميرزا حسن خان رافقه إلى ساوة، وهنالك اتفق مع أبيه أن يعود رضا لاحقًا إلى طهران، ليتلقى العلم في مدرسة الميرزا. وعلى هذا النحو مضت الأمور، وبدأ رضا حياة جديدة.

كانت ليلى هي الأخرى جالسة في المقعد الخلفي، وتشاهد الصور التي كانت قد التقطتها قبل ذلك للقصر على شاشة الكاميرا. ولما وصلنا إلى نواحي البازار، صارت الشوارع أكثر ازدحامًا، لدرجة أننا وصلنا بدلًا من الساعة التاسعة، في الساعة التاسعة ونصف. لقد كنت طوال الطريق قلقًا بشأن الوصول في الوقت المحدد. كما كان باديًا على أبي الارتباك. وكلما علقنا في ازدحام مروري خانق، يظل يشتعل غضبًا. أوقف أبي سيارته أمام ورشة تصنيع الحقائب في تمام الساعة التاسعة والنصف. ولما عجلت بالنزول من السيارة، قال أبي: «انتظر.»

فقلت مستغربًا: «لماذا؟»

قال: «أصغ لما أقوله لك.»

فنظرت إليه واجمًا. بدا الأمر كما لو كان أبي لا يعرف من أين يبدأ. فمكث قليلًا، وأخذ يحدق أمامه باستقامة عبر زجاج السيارة الأمامي، ثم قال: «لست متأكدًا أما سنفعله أمر صائب أم لا.»

فقالت ليلى مستغربة: «إنني لا أفهم شيئًا مما تقول.»

قال أبي بلهجة واضحة: «انظري، لقد قرأ ثلاثتنا تلك المذكرات، لقد تأصلت في أذهاننا، وأثارت إعجابنا، حتى إنها أصبحت بكل أحداثها وتفاصيلها تعني لنا الكثير. فلمَ الآن علينا أن ننظر إليها بعين الشك والريبة؟ لئن قد مست قلوبنا في الصميم، فليس علينا سوى أن نصدقها. وفي حال أن صدقنا قصة رضا قلي، فإنها ستغدو حقيقية بالفعل.»

ثم صمت أبي، كما التزمت أنا وليلى الصمت. هكذا ساد الصمت بضع لحظات، حتى قال أبي: «إن هذا ما أشعر به فحسب، وبالطبع ليس بالضرورة أن توافقاني الرأي. إن أردتما حقًا رؤية هذا الدليل لتتحققا، فلننزل من السيارة.»

لزمت الصمت، ولم أنطق ببنت شفة. نظرت قليلًا عبر زجاج السيارة إلى آخر الزقاق، ثم فجأة فتحت باب السيارة، وترجلت. كما نزل كل من أبي وليلى من السيارة. هكذا مشينا حتى نهاية الزقاق دون أن نتحدث إلى بعضنا بكلمة. ولما بلغنا نهاية الزقاق انعرجنا يمينًا، ثم يسارًا، حتى وصلنا إلى الساحة أمام القصر، وألفينا الباب الحديدي الكبير للقصر مواربًا. حينئذٍ رحت أدعو

الله في سريرتي أن لا يكون مندوب البلدية قد غادر. ولم نكد نصل إلى الباب، حتى خرج من القصر رجل يناهز الخمسين من عمره ذو معدة بارزة، ويرتدي بذلة بنية غامقة اللون. وبينما كان يغلق الباب خلفه، قلت لأبي: «أعتقد أنه هو.»

تقدم أبي مسرعًا، وألقى عليه التحية بصوت عالٍ. توقف الرجل أمام الباب، وقال: «مرحبًا.»

فقال أبي: «هل حضرتك مندوب البلدية؟»

فقال الرجل: «تفضل، ماذا تريد؟»

فقال أبي: «لقد حصل لدى ابني على تصريح، كي يتمكن من التصوير هنا.»

فنظر الرجل إلينا نحن الثلاثة شزرًا، وقال: «من أين حصل على التصريح؟»

فتقدمت، وقلت: «من بلدية المنطقة.»

فقال الرجل: «دعني أراه.»

فأخرجت الورقة من جيب قميصي، وفتحتها، وأعطيتها للرجل، ليراها بنفسه. فما لبث أن قال: «حسنًا، اذهب وصور، فقط لا تلمس أي شيء. وبمجرد أن تفرغ من مهمتك، أغلق هذا الباب، وانصرف.»

ووقتما هم بالمغادرة، قلت: «معذرة، نريد أن نلتقط صورًا داخل بعض الغرف. لقد التقطنا الأسبوع الماضي بعض الصور في الخارج.»

فقال الرجل مستغربًا: «الأسبوع الماضي! من أعطاك إذنًا بهذا؟»

فقلت: «بواسطة هذا التصريح نفسه. فعندما جئنا، لم تكن حضرتك قد وصلت بعد، فنسقنا الأمر مع ذلك الأسطى عامل الجبس، وهكذا التقط الصور.»

فأدار الرجل رأسه، ونظر عبر الجزء المفتوح من الباب. كما لو أنه أراد أن يرى من هناك الأسطى عامل الجبس. ثم نظر إلى ثلاثتنا مرة ثانية، وقال: «ولكن الأسطى لا يملك مثل هذا الحق.»

فقال أبي: «والآن وقد التقط الصور. سيكون من الرائع إذ تفضلت، وفتحت لنا باب غرفة أو اثنتين من هذه الغرف، كي نلتقط داخلها بعض الصور.»

فقال الرجل: «ليس هناك شيء داخل الغرف، فالجميع يلتقطون الصور نفسها للمناظر الخارجية في القصر.»

فقلت: «ولكنني أريد أن أصوره من الداخل.»

فقال الرجل: «ليكن ذلك إذن في الأسبوع القادم، يجب أن أذهب الآن.»

فقال أبي: «لقد قطعنا طريقًا طويلًا حتى جئنا إلى هنا، ومن الصعب أن نذهب ونأتي الأسبوع القادم. أسد لنا معروفًا، وافتح الباب.»

فقال الرجل: «انظر، الآن عند باب مبنى آخر مثل هذا يقف صنائعي آخر ينتظرني، كي أفتح له الباب، ويشرع في العمل. واليوم أيضًا قد تعطلت سيارتي، فركنتها بجانب الطريق، حتى أنني لم

أتمكن من الوصول إلا متأخرًا جدًا. فإن لم أذهب الآن، فسوف يترك ذاك الصنائعي المكان، ويغادر.»

فقال أبي: «لن يستغرق الأمر وقتًا طويلًا. وفي مقابل ذلك بمجرد أن ينتهي الأمر، سوف أقوم بنفسي بتوصيلك بسيارتي إلى حيث تريد أن تذهب.»

فقال الرجل: «لا، من فضلك دعني أذهب ذلك أفضل من أن تُبقيني هنا ثم توصلني. وسوف أستقل بنفسي تاكسي، واذهب.»

فقلت: «دعني أرجوك. لقد انتظرت طويلًا، كي التقط بضع صور فحسب.»

وقال أبي: «أصلًا بعد ذلك سوف نذهب معًا إلى أحد الميكانيكيين، ونأخذه معنا، ليقوم بتصليح سيارتك.»

حينئذٍ فكر الرجل هنيهة قبل أن يقول: «أي غرفة تريد أن تراها الآن؟»

فقلت: «إحدى هذه الغرف في الطابق السفلي، لن يستغرق الأمر مني وقتًا.»

فقال الرجل مستنكرًا: «تريد أن تصور الغرفة الفارغة التي ليس فيها أي شيء!»

وعندما ولج الرجل إلى الداخل، ابتسمت أنا وبابا وليلى لبعضنا. ثم دخلنا في إثره واحدًا تلو الآخر. دخلنا الدهليز المظلم أولًا، ومنه إلى الفناء. كان مندوب البلدية يتقدمنا بخطى سريعة، وعندما وجدنا قد تخلفنا عنه، هتف قائلًا: «هيا أسرعوا.»

فاستحثثنا خطانا، حتى لحقنا به. حينئذٍ سأل الرجل: «أي غرفة افتح؟»

فقلت: «الغرفة التي في تلك الزاوية، الغرفة تحت السلم.»

مررنا بجانب الحوض الفارغ، ووصلنا إلى زاوية الفناء. وحينئذٍ أشرت إلى الغرفة تحت السلم، وقلت: «هذه.»

فقال الرجل: «هذه؟! لقد كانت من قبل قبوًا.»

فقلت: «أيًا كان... من فضلك افتحها.»

أما الرجل الذي قد استغرب من تصرفي، قال: «مع كل هذه الغرف الفسيحة الرائعة داخل هذا القصر، أتريد حقًا أن تلتقط صورًا جيدة للغرفة التي ليس فيها أي نافذة، ولا حتى باب سليم؟!»

فقلت: «أجل.»

فهز الرجل رأسه، وقال: «يا للعجب!»

ثم مد يده في جيبه، وأخرج مجموعة كبيرة من المفاتيح، وراح يجربها إدخالها في القفل مفتاحًا مفتاحًا. ومن فرط توتري كان قلبي يخفق بشدة، وصار فمي جافًا، وشعرت بحرارة تسري في جسدي. جرب الرجل عدة مفاتيح حتى في النهاية فُتح القفل بأحدها. أخرج القفل المفتوح من حلقة الباب، ودفع مصراعي الباب، فانفتح الباب نصف انفتاحة محدثًا صريرًا جافًا. وحينها قال الرجل: «تفضل، أسرع فحسب.»

كنت أنا وبابا وليلى نحدق مذهولين إلى الفضاء المظلم للغرفة الذي كان قد بدا عبر الباب الموارب. لم يكن من الممكن رؤية أي شيء تقريبًا من الخارج. ورغم ذلك كنا لا نزال نحدق، ونرمي بأبصارنا إلى الداخل. أما الرجل الذي رآنا وقد وقفنا جامدين لا نتزحزح، قال: «تفضل، أَنْجز مهمتك بسرعة كي نذهب، لقد تأخر الوقت للغاية.»

ثم قال لي أبي حينئذٍ: «هيا... ادخل لترى الغرفة.»

نظرت إلى أبي وليلى، ثم إلى باب الغرفة المفتوح إلى نصفه. تقدمت خطوة إلى الأمام، وأتبعتها بأخرى. أمسكت درفتي الباب، إذ كان يندفع من بين درفتي الباب تيار هوائي يضوع برائحة العطن والرطوبة. وقفت أمام الباب، وأرهفت السمع، حيث كانت ثمة أصوت مبهمة تتردد في أرجاء الغرفة، أصوات لم يكن واضحًا أهي بفعل تدفق الهواء في الغرفة أم كلام يدور بين أشخاص كانوا بداخلها. قال أبي: «ادخل، ماذا تنتظر؟!»

سحبت درفتي الباب نحوي دفعة واحدة، وأغلقت الباب. فقال مندوب البلدية مستغربًا: «لمَ أغلقت الباب إذن؟!»

فقلت: «لقد عدلت عن رغبتي، لا أريد أن أدخل. إنني حقًا آسف لإزعاجك.»

فرمقني الرجل أولًا بدهشة، ثم حول نظره إلى أبي. وقبل أن ينطق بكلمة، أخذ أبي نفسًا عميقًا، وقال: «معذرة، يبدو أنه قد غير رأيه.»

فقال الرجل: «ما خطبكم أنتم الثلاثة؟ هل أنتم مدركون ما تفعلون؟ في البداية أصررتم على أن تدخلوا، والآن تقولون لقد صرفنا النظر.»

فقال أبي: «هذا هو الحال، فدائمًا ما يبدل الشباب رأيهم. دعنا الآن ننطلق إلى عملك في ذلك المبنى الآخر.»

فقال مندوب البلدية الذي كان قد استشاط غضبًا: «لا أريد شيئًا منك يا سيدي، لا أريد، سأذهب بنفسي. تفضلوا أنتم بالخروج حالًا، كي أغلق باب القصر.»

ربت أبي على ظهري في حزم، وقال: «فلنذهب من هنا، لئلا نسبب مزيدًا من الإزعاج للسيد.»

فقلت: «حسنًا.»

مشينا تجاه باب القصر، وحالما كنا نمضي بجانب الحوض فكرت في أنني ربما لن آتي إلى هنا مرة أخرى بعد الآن. لذلك توقفت، واستدرت، لألقي نظرة وداع على قصر نُويان الخان. نظرت إلى الحوض، وإلى الأشجار الجافة التي تحيط بالفناء، وإلى السلم، وإلى درابزين الإيوان المتهالك. ثم فجأة لمحت شيئًا ما داكن اللون يبدو وكأنه قطعة قماش تطير من ناحية درابزين الإيوان دائرة في الهواء، وتهبط إلى أسفل. وكلما دنت تلك القماشة السميكة من الأرض أكثر، بدا لونها الداكن بنيًا. وأخذت تدور في الهواء، وتدور، حتى سقطت في أرضية الحوض على ذراع كرسي مكسور. انحنيت أنا وبابا وليلى، وصوبنا أنظارنا نحو الشيء الذي كان قد سقط. كان شيئًا صوفيًا ومستديرًا وبني اللون، شيئًا مثل قبعة صبيانية من اللباد.

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس..

-١-
-٢-
-٣-
-٤-
-٥-
-٦-
-٧-
-٨-
-٩-
-١٠-
-١١-
-١٢-
-١٣-
-١٤-
-١٥-
-١٦-
-١٧-
-١٨-
-١٩-
-٢٠-
-٢١-
-٢٢-

Notes

[←1]

(1) المقابر العمودية أو الرأسية نوع من المقابر يلقى رواجًا في بعض الثقافات لا سيما الآسيوية، حيث يوضع الميت واقفًا، وأحيانًا ما تكون هذه المقابر من عدة طوابق لاستيعاب أكبر عدد من الجثث.

[←2]

(2) كان حيّ عود لاجان واحدًا من المناطق الأرستقراطية في طهران في العصر القاجاري، فبجانب أنه كان فيه بازار صغير، كان يعج بالمساجد والمدارس والبساتين والقصور الفارهة.

[←3]

(3) القاجار هم سلالة تركمانية من الشاهات حكمت في بلاد فارس من عام ١٧٩٤ حتى ١٩موأسسوا فيها مملكة عاصمتها طهران. كانت لغتهم الرسمية الفارسية إضافة إلى شيوع اللغة الأذرية التركية، وقد دانوا بالديانة الإسلامية الشيعية. شملت المملكة القاجارية معظم الأراضي الإيرانية الحالية إضافة إلى أرمينيا وأذربيجان حتى عام ١٩٢٥م حينما أطاح رضا بهلوي بآخر الحكام القاجاريين مؤسسًا لنفسه الدولة البهلوية.

[←4]

(4) مظفر الدين شاه ١٨٥٣ - ١٩٠٧ م هو شاه إيران وخامس سلاطين السلالة القاجارية. خلف والده ناصر الدين شاه في الحكم.

[←5]

(5) دار الفنون لم تكن مدرسة وحسب، بل كانت نواة للجامعة الإيرانية. أنشئت في فترة حكم ناصر الدين شاه الذي كان أول ملك إيراني معاصر يزور أوروبا، وقد دُهش بما رآه هنالك وعزم على نقله إلى بلاده، فكان من بين ما نقله مدرسة دار الفنون ليُدرَّس فيها مختلف العلوم على غرار المدارس الأوربية الحديثة. افتتحت المدرسة في طهران عام ١٨٥١ م، وتولى مهمة التدريس فيها نخبة من الأساتذة من بلاد فارس إلى جانب الأساتذة الأجانب أيضًا.

[←6]

(6) جعفر قُلي خان ١٢٤٧- ١٣٣٣ هجريًا، مدير مدرسة دار الفنون في عهد ناصر الدين شاه،تولى المنصب خلفًا لأبيه رضا قلي خان هدايت الشاعر والأديب المعروف. تعلم أساسيات علوم عصره من والده فدرس اللغة الفرنسية والحساب والهندسة والعلوم الطبيعية. له مؤلفات وتراجم. توفي عن عمر يناهز ست وثمانين عامًا في طهران.

[←7]

(7) كان أبو القاسم الأصفهاني ١٨٢٩ - ١٩٠٤ م المُلقب بسلطان الحكماء أشهر أطباء عصره. درس المنطق والطب والأدب والفقه والتفسير والأدب، ثم انتقل إلى طهران عمل مدرسًا للطب في مدرسة دار الفنون. وبسبب شهرته ومهارته في فنون الطب لقبه ناصر الدين شاه بسلطان الحكماء، وجعله كبير الأطباء في بلاطه. وافت سلطان الحكماء المنية في إحدى القرى بالقرب من مدينة الكرج إثر إصابته بوباء الكوليرا، ودُفن هناك.

[←8]

(8) القباء ثوب مفتوح من الأمام يلبس فَوق الثياب أَو القمِيص ويتمنطق عَليه بحزام.

[←9]

(9) يتكون المطبخ الإيراني من أكلات تحتوي غالبيتها على الأرز، والبُلُو أو البولو هو الأرز المطبوخ في المرق مع مكونات أخرى كاللحوم والبقوليات والمكسرات، وهو على أنواع مختلفة.

[←10]

(10) كانت الأسر الفقيرة تستخدم عربات نقل الطرود البريدية التي يجرها الخيل في السفر رغم أنها لم تكن وسيلة مريحة في السفر، نظرًا لأنها غير مكلفة نسبة إلى العربات الأخرى الخاصة بالمسافرين. كانت عربة البريد ترتكز على أربع عجلات ومزودة بسقف خشبي مقوس.

[←11]

(11) الشاهي من العملات المعدنية التي استخدمت في العصر القاجاري، الشاهي الواحد يعادل خمسين دينارًا.

[←12]

(12) الشادور هو لباس خارجي تلبسه النساء في إيران، وهو جلباب أو معطف فضفاض غالبًا ما يكون لونه أسود، وكان الزي الرسمي في العصر القاجاري.

[←13]

(13) الجبق أو الشبق هي أداة لتدخين التبغ، ذات قصبة طويلة.

[←14]

(14) التومان عملة تعادل عشرة آلاف دينار، أي عشرة قرانات.

[←15]

(15) كالياسكا كلمة روسية تعني العربة التي تجرها الخيل. وهي مركبة مربعة لها بابان ذات أربع عجلات، وتسحبها أربعة خيول أو يزيد، وتتسع لنحو أربعة أشخاص. كانت الوسيلة الأكثر استخدامًا للسفر بين المدن للأثرياء، ومن أكثرها حداثة وفخامة وراحة في فترة حكم ناصر الدين شاه.

[←16]

(16) دليجانس كلمة فرنسية تعني العربة التي تجرها الخيل. كانت تشبه العربة الروسية من حيث أنها مركبة ذات أبواب وأربع عجلات، لكنها كانت أكبر منها حجمًا، ويجرها عدد أكبر من الخيول، إذ كانت تتسع لنحو عشرة ركاب. وكانت عربة الدليجانس مكونة من قسمين قسم أمامي يحتوي على مقاعد الركاب، وقسم خلفي للأمتعة والخدم.

[←17]

(17) الملك الضحاك ماردوش من الشخصيات الأسطورية الخرافية الفارسية التي وردت لديهم في الشاهنامة، كان ملكًا جبارًا ظالمًا قبيح المنظر، وقد كانت حيتان سوداوان تخرجان من منكبيه، لذلك حصل الملك الضحاك على لقب ماردوش التي تعني بالفارسية ثعبانين يخرجان من منكبيه.

[←18]

(18) القِران عملة من الفضة تعادل ألف دينار، أي أنها تساوي عشرين شاهيًا. وكان هنالك أيضًا عملة قِران من الفضة تعادل ألفي دينار.

[←19]

(19) تنشية الثياب أي نقعها في النَّشا وتجفيفها لجعل نسيجها أشد قوة.

[←20]

(20) الكيوة حذاء تراثي قديم يصنع يدويًا من خيوط القطن مع خيوطأخرى، ويدخل في صناعته مخلفات الجلود أيضًا.

[←21]

(21) كان ت مدينة طهران في العصر القاجاري لا سيما في عهد ناصر شاه تشتهر بالعديد من البوابات الكبيرة الشاهقة الموشاة بالنقوش مثل بوابة باغ شاه، وبوابة قزوين وغيرهما. كان من حولها ميادين واسعة، وتغلق جميعها ليلًا.

[←22]

(22) بعد عودة ناصر الدين شاه من رحلته إلى أوروبا أراد نقل فكرة الترام إلى مملكته، فوقع عقدًا مع شركة بلجيكية وأُنشئت عربة الترام التي تجرها الخيول وصُنع لها قضيبان من الحديد. وكان للترام محطات للركوب. غطت عربة الترم آنذاك معظم الشوارع المهمة في طهران، وكان ركوب الترام أمرًا ممتعًا بالنسبة للناس آنذاك.

[←23]

(23) ساحة سبزه ميدان من أهم الميادين في مدينة طهران فترة حكم القاجار، وتقع في نطاق منطقة بازار طهران الكبير.

[←24]

(24) التقويم الفارسي هو تقويم شمسي أي مرتبط بدورة الشمس مكون ثلاثمائة وخمسة وستين يومًا مقسمة على اثني عشر شهرًا، وتبدأ السنة الفارسية في الاعتدال الربيعي يوم واحد وعشرين من شهر مارس حسب التقويم الميلادي ويدعى ذلك اليوم لديهم يوم النيروز ويحتفلون به.

[←25]

(25) الدهليز هو مدخل أو ممرّ بين الباب والدار.

[←26]

(26) الحوض هو أحد فنون العمارة الإيرانية، وهو بركة عميقة في الأرض ملأى بالماء. وعادة ما تتوسط الأحواض أفنية البيوت الإيرانية، فتلطف الجو، وتمنح المكان مظهرًا جماليًا.

[←27]

(27) الإيوان هو أحد العناصر المميزة للعمارة الإيرانية وقد تطور في شكله وتصميمه على مر العصور. في العصر القاجاري كانت القصور مزودة بإيوان بمنزلة مبنى فاصل بين خارج القصر وداخله يقع في واجهة صحن القصر ويطل على حوض مائي. وعادة ما يرتفع الإيوان عن سطح الأرض بسلم مُحاطة بدرابزين يُصعد بها من صحن الدار إلى الدور العلوي الذي يمتد إليه الدرابزين ليسيجه. وعندئذٍ نصل إلى مدخل الإيوان الذي يفضي بدوره إلى قاعة تنفتح على عدة غرف أخرى، ويكون الدخول والخروج من القصر بواسطة مدخل الإيوان.

[←28]

(28) يعود بناء حمام نواب العام في طهران إلى أوائل العصر القاجاري، وهو من الآثار التاريخية الباقية في طهران حتى الآن والتي تُعد من المناطق السياحية. أُنشئ في وقت كانت تلك الحمامات العامة قد انتشرت في أرجاء طهران.

[←29]

(29) أحد العناصر التقليدية للهندسة المعمارية الإيرانية الغرفة ذات النوافذ الخمسة. وهي أكبر غرف الإيوان وسميت بهذا الاسم لأنها غالبًا ما يكون فيها خمس نوافذ متصلة ببعضها على التوالي.

[←30]

(30) يقف على رأسه : تقال في الأصل إذا كان الشخص جالسًا أو مُستلقيًا ويحيط به أشخاص وقوف، ومن هذا أصبح معناها : في حضرته، وأمامه .

[←31]

(31) يُثبت في النول خيوط طولية وهي السَّدى، ويشد عليها خيوط أفقية تُسمى اللُحمة، وتتعاشق خيوطهما، لتكوين المنسوج.

[←32]

(32) الداروغة كان بمنزلة رجل الشرطة، فكانت مهمة من يتولى هذا المنصب حفظ الأمن العام في البلاد، لكن هذا المنصب تغير في العصر القاجاري لا سيما في عصر ناصر الدين شاه وقل شأنه كثيرًا في ظل اتخاذه بعض القوات أجنبية لتتولى مهمة حفظ الأمن، حتى اختفى تمامًا في آخر فترة حكم الدولة القاجارية.

[←33]

(33) بازار طهران الكبير هو سوق مسقوف كبير يعود إلى عصر الصفويين والقاجريين، وشهد البازار في أيام حكم ناصر الدين شاه بناء أقسام جديدة. وهو مقسم إلى عدة أزقة وممرات وبازارات صغيرة وخانات. والآن أصبح بازار طهران أحد مواقع التراث العالمي التابعة لليونسكو، وأشهر المناطق السياحية في طهران.

[←34]

(34) الداروغة تعني بالمغولية الرئيس، من هنا جاءت تسميته بالرئيس.

[←35]

(35) التيمجة هي ممر في البازار يتميز بعدد من الدكاكين متخصصة في بيع سلعة ما، ويحتوي البازار على عدد كبير منها.

[←36]

(36) الميرزا حسن رشدية (١٨٥١- ١٩٤٤م) أحد رواد الحركة الثقافية الإيرانية في القرن الماضي. كان أول مؤسس للمدارس الحديثة في إيران، وهو رجل دين أذربيجاني الأصل ومعلم وسياسي وصحفي وقد ألف بعض الكتب والمقالات بالفارسية والأذربيجانية. من أوائل الذين اهتموا بتعليم الأطفال، وأنشأ مدرسة لتعليم المكفوفين، وساعد في إنشاء مدارس للبنات في إيران . قدم بعض طرق التدريس الحديثة في إيران لذلك حورب بشدة فهدمت مدارسه من قبل المتعصبين والغوغاء والوشاة بدعوى أنها تحرض على الكفر. لكنه لم يتوقف عن التدريس وإنشاء المدارس حتى وافته المنية في مدينة قُم عن عمر يناهز ثلاثة وتسعين عامًا.

[←37]

(37) القازاقيون قوات عسكرية، وهم الجنود الفلاحون الذين كانوا يعيشون في شرق أوروبا وروسيا. وقد شكل الملك ناصر الدين شاه قاجار منهم قوة خاصة، وكانت من أهم القوات العسكرية لبلاد فارس آنذاك.

[←38]

(38) الفالودة هي حلوى إيرانية مشهورة، تتكون من شعيرية رفيعة مصنوعة من النشا، توضع في شراب شبه مجمد من السكر والماء المنكه بماء الورد أو النعناع، وتزين بالفستق.

[←39]

(39) قبل تأسيس الصيدليات الحديثة في طهران، تولى العطارون في البازار مهمة وصف العلاجات العشبية للمرضى، ولكن بعد إنشاء مدرسة دار الفنون، ورحلات الملك ناصر الدين شاه إلى أوروبا، واطلاعه على نظام الصيدليات الحديثة هناك أسس أولى الصيدليات الحديثة في طهران تحت إشراف الصيدلي الألماني الجنسية شفيرين الذي كان يدرس للطلاب في مدرسة الفنون علم الصيدلة، وكان الصيدلي الخاص بالملك نفسه.

[←40]

(40) بازار عود لاجان هو بازار صغير أو ممر متخصص في الحرف اليدوية والصنائع التقليدية يقع في حي عود لاجان.

[←41]

(41) الثآليل: جمع ثُؤْلُول وهو الحَبَّة تظهر في الجِلد كالحِمَّصة فما دونها.

[←42]

(42) المَسطرين هي أداة يدوية تُستخدم في أعمال البناء، تشبه سكينة المعجون، ومزودة بمقبض، يُسوي البنَّاء بها الطوب، ويضع بها المِلاط.

[←43]

(43) الإشكنة هي واحدة من أقدم الأطعمة الشائعة في إيران، وهي وجبة نباتية تصنع من البصل المُحمر مع بعض الخضروات مع التوابل، ثم يضاف إليها الماء، حتى يتكثف قوامها، وتصبح حساءً.

[←44]

(44) كان حمام حسن آباد أحد الحمامات العمومية في طهران التي تعود إلى العصر القاجاري. لم يكن هذا الحمام مزدهرًا نظرًا لأنه قد أُشيع عنه أنه مسكون بالجن، لذا توقف عن العمل عدة مرات.

[←45]

(45) عام ١٨٩٥م سجل أمريكيان براءة اختراع السينما توجراف، والأمريكيان هما الأخوان لويس وأوجست لوميير، وكان هذا الجهاز المخترع أول آلة للصور المتحركة، وقامت على أساسه السينما فيما بعد.

[←46]

(46) آرداشِس خان (١٨٦٣- ١٩٢٨م) كان أحدتجار الأقمشة الأرمن في مدينة تبريز، ولهذا السبب كان يسافر إلى البلاد المجاورة. خلال سفره إلى فرنسا انبهر بجهاز السينما توجراف، فجلبه معه إلى بلاد فارس، وأُنشئت أول قاعة عرض في شارع علاء الدولة بطهران تلتها عدة قاعات أخريات.

[←47]

(47) في عهد الملك ناصر الدين شاه وقعت في إيران بين عامي ١٨٧٠ إلى ١٨٧٢ م مجاعة تُعرف باسم المجاعة الفارسية الكبرى، حدثت بسبب عوامل طبيعة ومناخية، حيث جفت المياه، وشحت الأمطار، وصارت الأراضي الزراعية يُبابًا. وقد اشتدت المجاعة إلى حد أن أصبح الناس يأكلون العشب والحيوانات النافقة، ثم بعضهم. وقد غطت الجثث الشوارع، وشاعت الفوضى، واحتكار التجار، واختطاف الأطفال. لم تنقشع هذه المجاعة إلا وقد أودت بحياة عُشر السكان على الأقل.

[←48]

(48) في العصر القاجاري انتشر في بلاد فارس كما كان شائعًا في الشرق بوجه عام وجود خان المسافرين أو نُزل المسافرين أو سُراي القافلة، وهو بيت صُمم لراحة المسافرين على الطرقات البعيدة، كان مبنى ضخمًا بشكل مربع أو مستطيل، ومزودًا بغرف لإيواء الركاب، وأخرى لتخزين البضائع، كما كان يتوفر فيه مساحة للحيوانات التي تقود العربات أيضًا.

[←49]

(49) الفِريني هو حلوى مشهورة في إيران وشبه القارة الهندية، يصنع الفِريني من دقيق الأرز والحليب والسكر، حيث يُطهى هذا المزيج على نار هادئة، ويُضاف إليه الزعفران وماء الورد والشيرة.

[←50]

(50) الشاه عبد العظيم بن عبد الله الحسني هو من كبار العلماء والمحدثين الشيعة، وهو أبو القاسم عبد العظيم بن عبد الله بن علي بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب. ولد عام ١٧٣ هـ عام في المدينة المنوّرة، وتوفي عام ٢٥٢ هـ ودفن بمدينة الري جنوب طهران في إيران. لعبد العظيم الحسني قبر مشيد يزار في الري، وقد أورد الرواة الشيعة روايات كثيرة في فضل زيارة قبره.

[←51]

(51) قورمة سبزي هي إحدى الأكلات الوطنية الإيرانية، وهي يخنة تتكون في العادة من السبانخ والكزبرة والبقدونس والبصل والفاصولياء وشرائح الليمون مع قطع لحم. وتزين في النهاية بحبات بالرمان.

[←52]

(52) السَّماوَر هو وعاء معدني يستخدم لإعداد الشاي على البخار نقله الإيرانيون عن روسيا وأوروبا الشرقية. وهو حوض ماء معدني بداخله مدخنة يتصاعد منها البخار، حيث يوضع إبريق الشاي ليغلي على مهل.

[←53]

(53) كشك الباذنجان أو كما يطلق عليه يطلق عليه «كشك بادمجان» من أشهر الأكلات التي تشتهر بها إيران وبعض بلدان المشرق. يتكون من الباذنجان المقلي المهروس، والبصل، والكشك الإيرانيّ، والتوابل والأعشاب، حيث تقلّب وتُهرس جميع تلك المكونات في القِدر حتى تمتزج.

[←54]

(54) في بعض مذاهب التصوف و الروحانيات يستخدم الثوم لطرد الحسد والأرواح الشريرة، وبعض الأغراض الأخرى.

[←55]

(55) يحمل كل درويش بإيران الكشكول وهو وعاء لتجميع النقود، والطبر الذي يكون بمنزلة عصاه. فإن الدرويش في إيران لا بد له من كشكول وطبر، يعلق الكشكول في ساعده، ويحمل الطبر على كتفه.

[←56]

(56) التوسل يعني التقرّب إلى الله تعالى بشيء، وهو أن يجعل الإنسان واسطة بينه وبين الله، لطلب حدوث منفعة أو دفع ضررًا إكرامًا للمتوسل به. ويتوسّل بعض المسلمين كما يتوسل المتصوفون إلى الله بالنبي، بل بكل الأنبياء، والقرآن، وأهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، ويعقدون لذلك مجالس يتلون فيها الأدعية والأوردة.